

سير الأبرار

المجلس
الأعلى
للثقافة

عائيل المنجم

المشروع القومي للترجمة



ترجمة : محمد عبد الواحد محمد

193

المشروع القومي للترجمة

عامل المنجم

تأليف

بيتر أبراهامز

ترجمة

محمد عبد الواحد محمد



PETER ABRAHAMS

Mine Boy

هذا الكتاب من أجل داستي

بيد أنه لا وجود لشرق ولا لغرب ، لا لحدود
ولا لأرومة أو منشأ ،
حين يلتقى اثنان من الأشداء وجهها لوجه ،
رغم أنهما قادمان من طرفى العالم !

كبلنج

مقدمة المترجم

لماذا ؟

قد يتساءل البعض عن سبب إقدامى على ترجمة هذه الرواية ، بل إن هذا البعض قد يعجب أنى أقدم للمكتبة العربية ترجمة لعمل من أدب إفريقيا السوداء ، وليس عملا من الأدب الغربى ، النموذج والمعين الذى اغترفنا منه ومازلنا نغترف إلى أن يشاء الله .

ولعل من أبرز دوافع إقدامى على ترجمة هذه الرواية ؛ هى أنها واحدة من أولى الأعمال التى لفتت الانتباه إلى نوع الحياة التى يحياها أبناء جنوب أفريقيا السود تحت سيطرة الحكم العنصرى ؛ فهى تعرض لنا عناء المواطن الأسود ممثلا فى بطلها الريفى الذى نزح إلى المدينة بعد أن ضاقت به سبل الحياة فى قرية ، ليعمل فى المناجم ، والعمل فى المناجم قاس ومرير ولا إنسانى ، حيث إن العمال السود هم دون مستوى البشر .

كما أن الرواية تصور من بين ما تصور ، تطلعات السود للحصول على وسائل حياة البيض ، وتشبثهم باتباع نمط معيشتهم ، وما يؤديه العجز عن تحقيق هذا من تمزق وتدمير نفسى ، وصور التمييز والتفرقة هنا متعدد ، ولها صور مقززة تشمئز منها النفس وتثير فيها السخط .

لكن المؤلف هنا كان منصفاً حين يبين لنا أن من بين هؤلاء العنصريين ، أناس يتعاطفون مع المواطن الأسود ، بل ويقفون إلى جانبه يبصرونه بأدميته ، ويدافعون عنه حتى لو أدى بهم ذلك إلى المهالك .

والأدب الإفريقي أدب ثرى ، لا يقل ثراء إن لم يزد عن الأدب الغربى . ففضلا عن رسمه صورا للمعاناة التى لقيها السود على يد المستعمرة ، هناك صور لمعناته من الحكم المطلق الذى قبض على زمام الأمور عقب جلاء المستعمر ، والذى كان يتم بتخطيط منه لأغراض لا مجال هنا للتعرض لها . ونحن نرى فى بعض الأعمال صور الفساد الذى زرعتة الانقلابات العسكرية ، والاضطراب والقتل والدمار والويلات التى وقعت من جراء الصراع القبلى ، والحروب الداخلية . ثم نحن نرى من وراء ذلك كله بانورااما للعادات والتقاليد وأنماط السلوك وسبل الحياة التى تأخذ باللب وتثير الاهتمام وتصلح مادة للدراسة والبحث .

من هنا كان عشقى للأدب الإفريقي وهو عشق متوهج لا يخمد له أوار . وبسبب هذا العشق أقدمت على ترجمة هذا العمل ، وبسببه أيضا فإننى دائم الحلم أن ينال هذا الأدب اهتمام الأدباء والدارسين والأكاديميين منهم بوجه خاص .

فهل يتحقق الحلم ؟

محمد عبد الواحد محمد

القاهرة يناير ٢٠٠٠

من مكان بعيد مجهول انتهى إلى سمعه زنين دقائق ساعة .
وأصغى الرجل الضخم . دقة . . دقتان . . ثلاث دقائق . . هي إذن
الثالثة صباحاً . ونقل الصرة الصغيرة من يمينه إلى يسراه ، ورفع
بنطلونه واستمر سائراً في الشارع الضيق .

ودارت برأسه الهواجس . . الشارع ضيق مظلم مليء بالآليات .
مالى كامب هذه كلها إذن مليئة بالآطيات . وراح يسائل نفسه . . أين
أنا ؟ . لقد غم عليه الأمر وفقد القدرة على تحديد الاتجاه . ولكن لا
يزال هذا الشارع جميلاً كغيره من الشوارع الأخرى . ثم لمح امرأة عند
بوابة ، وكان من الممكن أن يمضى دون أن يراها لأنها كانت تبدو
وكأنها جزء من البوابة المعتمة ، لولا أنها سعلت وتحركت . فدنا منها
وقال : " أختاه . . ألا تعرفين مكانا يستطيع الواحد أن ينام فيه وربما
يصيب شراباً إذا أمكن ؟ وكان صوته خفيضاً أجشاً .

وأجابت المرأة : " الوقت متأخر "

فقال : " متأخر جداً "

وقالت له : " أشعل ضوءاً لاتبين وجهك " .

- ليس معى ثقاب .

- وماذا معك إذن ؟ .

- لا شى .

- وتريد مكاناً تنام فيه وتشرب والوقت متأخر جداً ؟ .
- وأحنى الرجل رأسه ، ولكن المرأة لم يكن باستطاعتها أن تراها
فى الظلام .

- أمعك نقود ؟

- كلا .

- آه .. أنت رجل غريب . ما اسمك ؟ . أنت جديد هنا ؟ .

- اجزوما ، قادم من الشمال .

- حسن يا اجزوما يا قادمًا من الشمال . انتظر هنا ، سوف آتى
بضوء . وقد تتمكن من أن تنام هنا وتصيب شرابًا وقد لا تتمكن .
ولكن ابق هنا .

ورأى الطيف يتحرك لكنه لم يسمع صوتاً . وأخذ يحدق النظر
فى ظلام البوابة ، لكن لم يكن ثمة شىء يرى سوى جدار من
سواد .

ونقل الصرة من يمينه إلى يسراه . وكانت رجلاه تؤلمانه من
التعب ، وشعر بنبضات متلاحقة فى رأسه كانت تسرى إليها من خواء
معدته . وشعر بثقل لسانه لمسيح حاجته إلى الدخان والشراب .
وظن .. ربما - ولكنه لن يترك العنان لظنونه ، الأحمق هو من يكسر
بابًا وافق صاحبه على فتحه . وجاءه صوت المرأة .

- حسن يا اجزوما يا ابن الشمال ، سأسلط عليك الضوء ،
ولكن حاذر منه على عينيك فهو ضوء باهر .

وحدث نفسه والبسمة ترتسم على شفثيه . لقد عادت المرأة دون أن يلحظها كما لو أنها كانت شبحا . ثم قال لنفسه إن لها صوت إنسان قوى .

- أشعلى الضوء .

وسلط شعاع من كشاف قوى على خصره ، وتباطأ لحظه ، ثم رحف هابطاً إلى قدميه ، ومن قدميه أخذ يتحرك صاعداً بوصة بوصة يستعرض هيئته العامة .

لقد بدأ الشعاع بحذاء تنس كبير وقديم ثبت بقطع من دويار وسلك ، وشوهدت أصابع القدمين بارزة رغم هذا الدويار والسلك . وتصاعد الشعاع إلى بنطلون مغبر حائل اللون قديم ممزق عند الركبتين بدأ كما لو أنه سوف يتمزق عند الخصر لضيقه الشديد . وفوق الصدر الضخم والكتفين العريضين التصق بصورة مريعة قميص ضيق مهلهل . وعلى الوجه العريض ذى السحنة الطيبة تباطأ الضوء برهة قصيرة ، ثم انتقل إلى اليد اليمنى التى تحمل الصرة الصغيرة ومنها إلى اليسرى الفارغة ، ثم انطفأ الكشاف فجأة وبقي اجزوما فى الظلام .

وقالت المرأة بنعومة : "حسن جدا ، يمكنك الآن أن تحصل على مكان تنام فيه وتشرب . تعال يا اجزوما يا ابن الشمال " .

وتوقف اجزوما فى الظلام مترددا ، فصدرت عن المرأة ضحكة فى صوت جهير عميق وقالت :

- رجل ضخم وقوى وتخاف .

- الدنيا ظلام يا امرأة .

- ومرة ثانية انبعث الضوء ولكنه بقى فى هذه المرة مسلطاً على الأرض على بعد بضع ياردات منه .

وكررت المرأة قولها : " أقدم يا رجل " .

وسار اجزوما على هدى شعاع الضوء

وقالت المرأة : وقد دفعت باباً فانفتح : " ادخل هنا " .

وتبعها اجزوما إلى الغرفة فأغلقت الباب وقادت خطاه نحو غرفة أخرى ، وكان بها ضوء وثلاثة رجال وامرأة عجوز جالسين حول منضدة وأمامهم وعاء جعة كبير .

وقالت المرأة : هذا اجزوما من الشمال . أنه منهك وجوعان . قدمى له طعاماً أيتها الأم بلانك . اجلس يا اجزوما " .

وتأمل اجزوما المرأة . كانت طويلة وضحمة ، تكسو جلدتها تلك الصفرة الرقيقة التى تكسو جلود نسوة باسوتو . وكان لها عينان سوداوان نفاذتان . وأقر رأيه على أنها امرأة قوية وأن هاتين العينين تستطيعان النفاذ تماماً داخل الانسان .

وسألها : " بماذا يسمونك ؟ " .

وابتسمت المرأة ، ولاحظ اجزوما أن ناحية واحدة فقط من وجهها تتحرك وهى الناحية اليسرى .

وردت تقول : " لياه " .

لكن واحداً من الجالسين سأل اجزوما : " وماذا يعنىك من اسمها ؟ " .

والتفت اجزوما إلى الرجل . كان طويلا نحिला وكان أصغر من
فى الغرفة . يلتوى فمه بشدة ، ويحملك غاضباً فى اجزوما .
وسأل اجزوما المرأة : " من هذا ؟ " .

- هذا النفر هو " دلادلا " ، وهو يعتقد أنه قوى وقادر على
التلاعب بالكسين لكنه أحمق .

وقال أكبر الجالسين سناً حول المائدة : " هوو ! وربة البيت
تصطحب الأحمق إلى المخدع " .

وانفجر ضاحكا يقرقر كالديك .

وابتسمت لياه قائلة : " أجل يا دادى . . ولم ينبغى على
الأحمق أن يرضى ربة الدار ! " .

وازدادت قهقهة دادى واهتزت جوانحه ، واغرورقت عيناه بدموع
سالت على خديه ، ولهت أنفاسه لفترة وجيزة ، ثم اندفع دلادلا
بشدة فأصاب قبضته جانباً من رأس دادى جعلته يتطاير إلى أحد
الأركان ، وتقدم اجزوما خطوات ورأى السكين فى يد دلادلا ،
فوضع صرته على المضدة بحذر ودار حول المقعد المستطيل . ورفع
دلادلا السكين وكشر عن أنيابه ، وراح كل منهما يرقب الآخر .
وخيم الصمت على الغرفة ، ونسى دادى ما أصاب جانب وجهه من
ضر ، وصدق فاغر الفم بعينين تتابعان فى تراقص مشهد العراك
المفاجئ . وبدخول الأم بلانك إلى الغرفة تحمل الطعام الذى أمرت
لياه بإعداده لاجزوما انفجر فوها ثم انغلق ثانية وعادت أدراجها
إلى المطبخ .

وفى لهجة أمرة قالت لياه : " أعطنى هذه السكين " .
فنظر دلادلا إليها ثم إلى اجزوما ثم إليها ثانية وقال وفى صوته
رنة التماس : " كلا " .
فقالت لياه : " هاتها " . وكان صوتها هذه المرة قاسيًا .
فما كان من دلادلا إلا أن غض البصر وناولها السكين .
- ليجلس كل منكما .
ومن ركنه بصق دادى وقال فى مرارة : " النساء دائما ما يفسدون
العراك الممتع " .
ونادت لياه : " أيتها الأم بلانك .. أحضرى الطعام " .
وتساءلت الأم بلانك دون أن يرى وجهها أحد : " هل أنتهى
القتال ؟ " .
فقال دادى : " ثمة عراك آخر " وبصق ثانية وأسند ظهره إلى
الحائط وأسلم نفسه للنوم .
وحين وضعت العجوز الطعام أمام اجزوما قالت لياه : " كل " .
فتطلع إليها وراح يتناول الطعام .
وتساءلت لياه وهى تتطلع إلى الآخرين كل بدوره : " أعددتى
الجحور بطريقة سليمة ؟ " .
وأوما الجميع واحداً واحداً . ثم نظرت إلى فم دادى الفاجر
وندت عنها ابتسامة ساخرة وسألت :

- وحجره ؟ .

وأومات الأم بلانك برأسها .

فقالت لياه : " يمكنكم إذن أن تناموا " .

وانصرف كل من دلادلا والأم بلانك ولم يبق سوى الرجل الذى كان صامتًا طوال الوقت ، ونظر إلى لياه ثم إلى اجزوما .

وسألته لياه : " ماذا بك ؟ " .

وسألها الرجل بدوره : " كيف نعرف أنه ليس من رجال الشرطة ؟ " .

وأجابت لياه مبتسمة وقد تغضن كل وجهها : " أنا أعرف " .

فأوما الرجل برأسه ، وفجأة مد يده إلى اجزوما ، فتصافحا ، ثم انصرف .

وتساءل اجزوما : " من الرجل ؟ " .

وأجابت لياه : " إنه شقيق رجلى " .

- رجلك ؟ .

- نعم . . قالتها وقد نجبا بريق عينيها وارتسمت على شفتيها شبه ابتسامة . وحين تأملها اجزوما بدت وكأن وجهها أصبح أشد وهنا . لم يعد بعد ذلك السوجه القوى ، ولم يكن لعينيها تلك النظرة الحادة . . كانتا مجرد عيشى امرأة .

وفى هدوء كررت قولها : " أجل ! رجلى .. إنه فى السجن ..
هو هناك من عام مضى .. وعليه أن يبقى هناك عامين آخرين . لقد
قتل رجلا .. رجلا ضخما كبير القم حاول تقييلى .. إنه قوى ..
أعنى رجلى .. هو يقاتل من أجل امرأته .. ويقتل من أجلها ..
ليس مثل دلادلا .. جعجاع .. يحمل مديّة .. ولا شيء سوى
ذلك .. إنه رجل .. أعنى رجلى .. أنت نفسك رجل يا اجزوما .
إنك قوى .. ولكن رجلى يمكنه أن يحطّمك كما يحطّم عصا .
لست أكذب ، ويمكنك أن تسأل عنه الناس " . وتوقفت عن الحديث
واختفت عن الوجه رفته ، وعادت إليه صرامته السابقة ، ونظرت إلى
اجزوما وابتسمت فى سخرية . ومن الركن علا شخير دادى .

- هذا الرجل دلادلا .. ماذا يعنى بالنسبة لك ؟ .

وضحكت من أعماقها وقالت : " امرأة تشعر بالحنين إلى
الغزل .. وهذا كل ما فى الأمر . والآن يا اجزوما ماذا تنوى أن
تفعل ؟ " .

- جيئت لأعمل . لا يوجد عمل فى المكان الذى قدمت منه
ويقال فى هذا المكان عمل كثير .

- وأين ستعمل ؟

- فى المناجم ، فهذا هو عمل الرجال .

وهزت لياها رأسها وصبت لنفسها كأسا ثم قالت :

- ليست المناجم بالعمل الجيد يا اجزوما ، ستصاب بالسعال فيما

بعد ثم تبصق دما ، ثم تضعف وتموت . لقد شاهدت ذلك مرات عديدة . أنت اليوم شاب وقوى . . ولكن فى الغد ستصير هزيلا ومهيا للموت .

- كل الشغل على هذا المنوال .

- لا . . اسمع يا اجزوما ، إننى معجبة بك ، وبإمكانى أن أجعل منك إنسانا قويا ذا نفوذ . فأنا هنا ذات نفوذ . ولو أصبحت رئيس عمالى فستكون أيضا قويا . عندما أقبلت ولقيتني فى الخارج كنت أرقب الشرطة ، لأن هؤلاء الرجال كانوا يدفنون جعة فى باطن الأرض . إنها عملية تدر مالا كثيرا ، وربما كان بإمكانك أن تعمل معى . . هيه ؟

ولبرهة كبيرة أخذ كل منهما يتطلع نحو الآخر . وأخيرا ابتسمت لياه ابتسامتها العريضة وهزت رأسها وقالت :

- لا . . حسن إنك إنسان يتمتع بغباء الرجال . تعال . . سأريك المكان الذى يمكنك أن تبيت فيه .

فقال لها : " ليس معى نقود " .

- إنك قوى ، ولسوف تشتغل ثم تسدد لى فيما بعد ، هيه ؟

- أجل .

وقد أحتاج فى بعض الأحيان إلى رجل قوى ، ولسوف تقدم إلى يد العون .

- ربما .

ثم قالت وهى تدلف إلى حجرة صغيرة : " هنا .. هذا مكان
تقيم فيه المدرسة ، ولكنها لن تأتى إلا بعد الغد ، ويمكنك أن تبيت فيه
.. وحين تعود سنفكر فى مكان آخر " . وأشعلت عود ثقاب أوقدت
به الشمعة ، ثم قالت وهى تتجه ناحية الباب : " أصغ إلى يا اجزوما
يا ابن الشمال .. لا تظن أننى أفعل ذلك لأننى امرأة لينة أو سهلة ،
وأنك تستطيع أن تغشنى ، لأنك لو فعلت هذا فسأمزقك بصورة
تبغض فيك أمك .. " .

وضحك اجزوما وقال : " إنك امرأة غريبة ولست أفهمك .
لكن الشئ الوحيد الذى أدركه هو عطفك " .

وقالت برقة : " أنت محق ، لكن المدينة مكان غريب ..
طابت ليلتك " .

وانصرفت المرأة وأغلقت الباب وراءها . وفى ثاقل خلع اجزوما
ملابسه وشعر الآن أنه أحسن حالا بعد تناوله الطعام . بيد أنه كان فى
شدة الإجهاد ، ومع ذلك استعصى النوم عليه حين أوى إلى
الفراش . وأخذ يفكر .. هذه جماعة غريبة من الناس .. لا شئ
يربط بين أفرادها .. وهم فيما يبدو لا يؤمنون بشئ .. ولكنهم على
أية حال منحوه فراشاً لينام . هى التى أعطته إياه . وهى أشد الجميع
غربة .. وفى الغرفة الأخرى كان الرجل العجوز الذى يسمونه دادى
نائماً قبالة جدار فاغر الفم دون غطاء . ولكن الحياة غريبة .. وهؤلاء
الناس هم الحياة .. بالطبع .

كانت الشمس قد اعتلت الأفق حين استيقظ اجزوما من نومه ،
وظل ساكنا في فراشه برهة من الوقت يصيح السمع ، بيد أن الصمت
كان يخيم على البيت .

" ينبغي أن أنهض " .. وتشاءب وعاد يلتف بالبطاطين ، ولكنه
تذكر أنه في بيت غرباء ، فدفع عنه البطاطين ، وهمس لنفسه حين
وقف لا يحمل فوق جسده سوى قميص واحد .. يجب ألا يدخلوا
الآن ، ولبس بسرعة فلم يكن لديه ما يستغرق ارتداؤه وقت طويل ،
اللهم إلا أن يلبس بنطلونه في غمضة عين .

وفتح الباب ووقف يتنصت .. في مكان ما من البيت منه
يدق .. تيك .. توك .. تيك .. توك .. ولا شيء غير هذا .
وصاح " صباح الخير " .. ولم يجبه أحد . فصاح بصوت أعلى
قليلاً " صباح الخير " ولم يكن ثمة سوى الصمت . وصرخ :
" يا هووو " وطنت نحلة عبر الباب ودارت حول رأسه فهشها ،
لكنها لم تباعد واقترب طنينها أكثر .. هذه الحشرة الحمقاء
ستلدغني .. واتخذ قرارا ، وأسرع بالخروج من الحجرة وأغلق الباب
على النحلة .

كان البيت خالياً فذهب إلى الفناء من خلال المطبخ ، وعندئذ
سمع أصواتا آتية من الشارع ، فذهب إلى البوابة وأطل منها فرأى في
الشارع جماعة من الناس تحلقت في دائرة ، ووسط الحلقة كان العجور

دادى يحجل ويصيح بأعلى صوته ، يداه ترفرفان فى الهواء ، وهو يتواثب يؤدي رقصة حرب قديمة ، ويردد صيحات معركة موعلة فى القدم . وابتسم اجزوما وانطلق يشق طريقه بين الحشد .

كان على الأرض امرأتان ملونتان اشتبكتا فى عراك ، والحشد يراهن على من تكون لها الغلبة . وكان معظم الناس يشجعون المرأة النحيلة السمراء والتي كانت تشبه الهنديات ، كما كانوا ينادونها باسم لينا . أما الأخرى البدينة الشاحبة فكانوا ينادونها بالسكيرة ليزا ، وبدوا أنهم لا يحبونها .

وكانت المرأة البدينة تعلو المرأة النحيلة وتجتثم فوق صدرها ، إلا أن المرأة النحيلة تمكنت منها بالإمساك بشعرها وجذبه . وانسابت الدموع من عيني البدينة ، وقد انحنت رقبتها إلى الخلف من جراء جذب شعرها البنى الطويل .

وصاح دادى : " شديه يالينا .. شديه " ثم تدحرج فى احتياج تجاه قناة مياه الصرف .

وراحت النحيلة تشد .. وتراخت قبضة البدينة التي كانت تمسك برقبة النحيلة وارتدت عن صدرها . وحين ارتقت على الأرض تعرت ثيابها وبدا لون جسدها الشاحب . وأشاح اجزوما بوجهه . وصخب الحشد ، وتمدد دادى فى قناة الصرف وهو يقرقر ضاحكا ويرفس برجيله فى الهواء ، والدموع تنهمر من عينيه . ولما عاود اجزوما النظر رأى المرأة النحيلة تعلو البدينة ، يسراها فوق رقبتها ويمناها خلف ظهرها تبحث عن فردة حذائها ، وحين وجدتها رفعتها عاليا ثم هوت

بها على رأس البدينة ولما رفعتها مرة أخرى كان الدم ينبثق من رأس البدينة . وبصوت خفيض صب اجزوما لعناته ، ولم يتمالك دأدى نفسه ، فحك رأسه فى الرصيف وصخب الحشد مرة أخرى . وشق اجزوما طريقه بين الحشد يريد الابتعاد عنه ، ذلك أنه أحس بثقل غريب يجثم فوق قلبه .

وصاح صوت غطى على هدير الحشد : " كفى ! " . والتفت اجزوما يستطلع مصدر الصوت . لم يكن صاحبه سوى لياه . وأفسح الحشد لها طريقا ، فمشت بينهم دون أن تلتفت يمنا أو يساره ، إلى أن وقفت على رأس المرأتين المتعاركتين . وكانت عيناها متقدتين ، وذراعاها عاريتين . وانحنى ورفعت المرأة النحيلة كما لو كانت ترفع طفلاً صغيراً ، وألقت بها بعيداً عن المرأة البدينة .

وتذمر بعض نفر من الحشد فطوحت لياه برأسها إلى الورا بسرعة وابتسمت ساخرة ، واتقدت عيناها ازدراء وهما تدوران بين الحشد وقالت بهدوء :

- إنى أسمع أصواتا ، دعونى أسمعها مرة أخرى .. أريد أن أعرف أصحابها .

وانتظرت .. ولكن لم ينبس أحد بينت شفة .

- آه .. إنهم إذن يصمتون .. لا بأس .. لكن لو أراد أحد ، رجلا كان أو امرأة ، أن يتعارك أو يشهد عراكا أمام بيتى فأنا لها . ثم واصلت حديثها وهى تضرب صدرها بقبضة يدها " تعالوا تعاركوا معى " .

وفى صمت انفض الحشد وأخذ يزحف مبتعدا . ونهض دادى واقفا يترنح من السكر .

وجلست المرأة البدينة الشاحبة وهى تمسك برأسها التى تتزف ، وكانت مفيقة ، وعلى مسافة قريبة منها كانت المرأة النحيلة تتكىء على جدار .

وصاح دادى جذلا وفى صوت جلجل وهو يشير إلى المرأة النحيلة : " أنظرى . . إنها تهذى " .

وكان فمها ينفتح ببطء ، وسيل من لعاب ينساب منه على ملابسها كما كان جسدها ينتفض ، وانقبضت يداها انقباضاً شديداً ، وفى ببطء أخذت تنزلق إلى جوار الحائط إلى أن تمددت على الرصيف . ولمعت عيناها ، ولسولا رعدة فى جسدها لبدت فى رقدتها وكأنها فارقت الحياة . وبصقت لياه فى اشمئزاز وانتشلت المرأة النحيلة الهاذية وحملتها إلى الفناء ، وتبعها اجزوما ودادى .

وقالت لياه : " أحضروا لى زكية " .

وقام دادى بإحضار الزكية وفرشها على الأرض فى الظل ، ووضعت لياه المرأة فوقها واتجهت إلى بوابة الفناء وقالت فى غلظة للمرأة البدينة :

- فيم جلوسك هناك ؟ ادخلى واغسلى رأسك الغيبى هذا من الدم .

ودخلت المرأة البدينة الشاحبة وغسلت رأسها تحت الصنبور ، وملأت لياه كوزا مياه بارد وراحت تصبه على وجه المرأة الهاذية فارتجفت فى تشنج وأغلقت فمها ، وبدأت رعدتها تخفف تدريجيا .

وتساءل اجزوما وهو ينظر إلى المرأة الهاذية : " أهى مريضة
جدا ؟ " .

وهزت لياه رأسها ومطت شفيتها قائلة : " ستظل على هذه الحال
ولن تفيق ثانية يوماً واحداً فقط .

هذه المرأة طيبة .. وهى تشبه دادى ، تعاني من الحياة وتريد
أن تسلوها . ولكنك أنت .. كيف حالك الآن ؟ . هل أصبت
طعاماً ؟ " .

- كنت نائماً ، وحين استيقظت لم يكن بالبيت أحد ، ولهذا
خرجت فشاهدت هذا العراك .

ولكن قولى لى .. هل دادى دائماً على هذه الحال ؟ إنه يحب
العراك فهل هو قادر على ذلك ؟ .

- سنتناول الطعام أولاً ثم نتحدث . وربما يصحبك جوزيف فيما
بعد ليريك المكان ، هيه ؟ .

وتبعها اجزوما إلى داخل البيت وجلس يراقبها وهى تعد الطعام .
ورغم كل ضخامتها كانت تتحرك فى خفة ورشاقة . إنها امرأة
فارعة قوية ذات ردفين ثقيلين مكتنزين . وبدأ لا جزوما ثانية أنها مجرد
امرأة عادية حين انحنت فوق الموقد لتطمئن إلى أن اللحم لم يحترق .
وكالليلة الماضية أخذت تتحدث عن رجلها الذى سجن لقتله رجلاً
ترثاراً حاول مغازلتها . هذا المرأة تستعصى على الفهم وهز رأسه .
ونظرت إليه وقالت : " ماذا بك ؟ " .

- لا شيء .

- لم تهز رأسك ؟ أراك تنظر إلى ثم تهز رأسك . إنك تظن أن هذه المرأة غريبة . إنها صارمة والناس يخشونها ، وبالنسبة إلى هي .. طاهية .. هيه ؟

- أجل .

وضحكت .. وكان ضحكها شيء ما يتسم بالدفء وقالت :

- وأنت تظن أنها ربما تحبني . هيه ؟

- نعم .

- حسن ، ربما أحب ، أجل .. ولكنك قد لا تفهم كيف أحب . وربما تدور برأسك الظنون إنني أود أن تمضي معي إلى الفراش ، هيه ؟

وضحك اجزوما ولكنه لم ينبس ببنت شفة .

- أجل أستطيع أن ادرك ذلك . ولكن أنصت إلى يا اجزوما يا ابن الشمال .. إنك طفل مع الناس ، ويمكنني أن أكون لك أمماً أحملك منهم . والآن عليك أن تنصت إلى ، فقد تفهم وقد لا تفهم ولكن لا بد أن تصغي . إنني أحبك لأنك في هذا المكان وإن كنت لست فيه .. لا ، أنت لا تفهم . إنني في هذا المكان .. فاهم ! خرجت من بين أهلي ، ولكنني لم أعد بعد واحدة من هؤلاء الأهل . وهكذا الحال في المدينة ، وأنا هنا منذ سنوات طويلة .. المدينة تجعل منك إنساناً غريباً عن طريقة حياة أهلك ، فاهم أنت ؟

- نعم ، نعم . أنا قاهم .

- جيد . . فلتأكل الآن .

ودفعت بصحن طعام أمامه ، وغرفت صحننا آخر لنفسها
وجلست قبالة .

- إنك واحد من أهلى .

- لا . . أهلك لابد وأن يكونوا من الجنوب .

- أنت لا تفهم . اصغ إلي ، أنت من الشمال وأنا من
الجنوب ، ولكن الناس هم نفس الناس ، هيه ؟ .
وأوما اجزوما مرتابا .

- إنك طفل . ولكن اسمع ، لأهلك ولأهلى قانون قبلى وعرف
قبلى . . تمام ؟ .

- نعم .

- أنت قادم من هناك وتحمل معك أساليب شريعتنا ولهذا
أحبك ، ولكن هذا لا يعنى أننى أريد أن أذهب معك إلى القراش .
أوه . . لا . . ولسوف تنشأ مشكلة إن أنت أسأت الفهم . وليس فى
وسعى أن أجعلك تفهم ، ولا فائدة من هز رأسك ، أنا أدري أنك
تفهم ، ولكنك ربما ستفهم فى وقت ما ! .

وفرغا من الطعام ، وأخذت لياه الصحنين وغسلتهما وجففتهما ،
ثم رأت دادى فى الفناء فنادته :

- دادای ! تعال هنا .

وقطب دادی ویصق : " ماذا دهاك يا امرأة .. ألا يمكن لإنسان أن يعيش فى هدوء دقيقة واحدة ؟ " .

- دادی ! تعال هنا .

وأقبل مخموراً يترنح .

- احك لاجزوما عن العرف والمدينة .

- هيه ؟ وترنح من جانب لآخر .

- احك له من العرف والمدينة . لقد رددت عبارتها ثانية فى أناة وهى تعينه على الجلوس على مقعد .

وهمهم : " العرف والمدينة " . ثم لمعت عيناه وابتسم : " العرف والمدينة .. آه .. آوه .. نعم .. الحديث عن العرف والمدينة أمر مضحك يا اجزوما ، مضحك جداً ، عليك فقط أن تنصت " .

ونفض وافقا وأخذ يتمشى فى الغرفة جيئة وذهاباً ، وفرك يديه ، وابتسم فى مكر ، ولعن شفتيه ، ورفع إحدى كتفيه ، ثم رفع الأخرى ، وقال : " مضحك جداً .. جاءت المدينة ذات يوم تزور العرف يا اجزوما وكان العرف كريماً . قدم للمدينة طعاماً ، وقدم لها جعة ، وقدم لها فتيات جميلات .. " .

فقاطعته لياه : " لا يادادى " .

فقال دادی بحزم : " اهدئى يا امرأة " .

فابتسمت لياه .

- كما كنت أقول . . قدم لها فتيات جميلات . ثم ماذا تظن بعد ذلك ؟ إنه شيء لا يصدق . لم تتفوه المدينة بكلمة واحدة . لم تقل " كلا ، شكرا " ولم تقل " أشكر لك " . وقال الناس " آه . . سيصبح الآن كل شيء على ما يرام ، فالعرف والمدينة صديقان " أحم أحمهم . قالوا ذلك وانطلقوا إلى الحقول ليعنوا بمحاصيلهم . وحين كانت الشمس تميل نحو الغروب عادوا وأخذوا يبحثون عن جعتهم ، ولكن جعتهم ولت ، فراحوا يبحثون عن العرف ، ولكنه ولى هو الآخر .

وكنت المدينة هناك تسخر منهم . وهم الآن يساقون إلى السجن لو احتسوا جعة . وهذا هو سبب حبي للجعة . . أمر مضحك جدا يا اجزوما . حسن . . هذه هى كل الحكاية وأنا أريد أن أنصرف لأنام .
وانصرف دادى يتعثر فى مشيته ، ودار حول البقعة التى رقدت فيها المرأة النحيلة الملونة وقد زال عنها هذيانها . وكانت المرأة البدينة الشاحبة قد انضمت إليها . لقد رقدت المرأتان اللتان تشابكتا من قبل فى عراك عنيف - جنبا إلى جنب على قطعة الخيش .

ورعق دادى : " لا وجود مكان هنا " .

فخرجت لياه بزكية أخرى وفرشتها له على بعد قليل من المرأتين وتمدد دادى على ظهره وابتسم لها ثم قال بصوت أجش :

- أحبك يا لياه .

وأجابت هي : " أحبك يا دادي " .

فقال لها بطريقة عدوانية : " إذن قبليني " .

فجثت لياها على ركبتيها وقبلت جبهته . وحين نهضت كان هو قد استغرق سريعا في النوم . ورفت على شفيتها ابتسامة سرعان ما اختفت . ووقفت تتأمل له لحظات ، ثم استدارت ودخلت الدار .

وقال لها اجزوما : " إنك تحبينه " .

فردت بحسم ورنه غضب تبين في صوتها : " وما يعنيك من هذا الأمر ؟ " .

فنظر إليها اجزوما في صمت ، ومرقت هي من أمامه وذهبت إلى غرفة أخرى . وأخذ هو يصيح السمع إلى صوت تحركها تروح وتجيء تلتقط أشياء وتزيح أخرى ثم أخذت تدندن . . وعرف هو الأغنية . إنها أغنية المطر . وراحت تغني :

أماه إنها تمطر

وأنا سوف أبتل

حزين وموحش

وأنا سوف أبتل

أماه إنها تمطر

وأنا سوف

سوف أبتل

كان فى صوتها حزن ظاهر . وخرج اجزوما إلى الفناء وراح يتأمل النائمين الثلاثة . ومن الدار وصل إليه صوتها . ولكن الأغنية هذه المرة كانت مرحلة مفعمة بالضحك والسعادة . وكان الضحك يطغى على صوتها وهى تغنى . وكانت الأغنية عن شاب مختال مغرور وقف وسط بنات يحدثهن عن مدى عظمته وروعته ظاناً أنه وسيم للغاية ، فما كان من البنات إلا أن نصبن له شركا فى إحدى الليالى جعله يركض خمسة أميال ، ومنذ تلك الليلة والبنات يسخرن منه دائما .

كانت أغنية بها أبيات مليئة كلها بالضحك والسخرية من الشاب المختال . وابتسم اجزوما وأوما برأسه . . لقد وصفت الشاب بصدق . . ذلك المختال .

ثم توقف غناؤها . . وسمع صوتها ينادى : " اجزوما " .
ورد اجزوما : " نعم ؟ " .

وكانت لدى لياة جوزيف شقيق رجلها ، ونظر إليها اجزوما فابتسمت له ، ولم يبد فى عينيها أثر لغضب .

- سيأخذك جوزيف ليريك المكان ، فالיום هو السبت ، ولسوف يأتى ربائن كثيرون وربما تأتى الشرطة كذلك ، ولهذا سنكون منشغلين نخذ هذه النقود . . تستطيع تناول طعامك فى أى مكان ثم تعود فيما بعد . . هيه ؟ .

وسأل جوزيف : " من سيعاون فى البيع ؟ " .

- هاتان النائمتان ودادى والأم بلانك ، واتفقت مع اثنين وهما قادمان . ومن الأوفق أن تنصرف يا جوزيف ، فلو قبضوا عليك ثانية فلن تكون ثمة غرامة . ثم ابتسمت له .

وأوما هو برأسه وانصرف خارجا يتبعه اجزوما .

وصاحت لياه وهما يتجهان إلى نهاية الشارع : " اعتنيا بنفسيكما "

وضحك جوزيف وهو يلتفت وراءه وقال لاجزوما : " إنها امرأة طيبة " .

وأوما اجزوما برأسه وهو يشاهد الشارع المزدهم .

وقال جوزيف : " الحال هكذا دائما أيام السبت . فى جيوب الناس نقود تجعلهم يدورون فى الشوارع وينفقونها . . وهكذا السبت هنا "

كان المشهد عاما فى كل الشوارع ، جميعها مزدحمة ، مجموعات من الرجال والنساء تلف هنا وهناك . إنه السبت . . نصف عطلة قومية لمواطنى جوهانسبرج السود . وشارك مالاى كامب فريديدورب شرف كونهما المركزين الاجتماعيين الرئيسيين .

وكان الناس فى الشوارع يتكلمون بأصوات مرتفعة ويخرجون أكياس نقودهم من جيوبهم يعدون ما فيها من نقود ليراها الآخرون . . وكانوا يرتدون أحسن ثيابهم وأكثرها غنى بالألوان . . كانوا يرتدون قمصانا حمراء وخضراء وصفراء وقرنفلية . . وينطلونات واسعة الأرجل تزحف على الأرض . . وسترات محكمة لا تتدلى أبعد من خصورهم . . وأحذية مستدقة البوز . . كما لم يرتد آخرون سوى

(فانلات) دون أكمام وينطلونات يستعرضون رجولتهم . وكانوا رجالا .. هؤلاء .. كانوا طوال القامة ، صدورهم بارزة وعلى العيون ارتسمت بسمات ثقة فى النفس ، ولم يكونوا يفسحون الطريق لأحد ، وإنما يجبرون الآخرين على إفساح الطريق لهم .. اللهم إلا إذا التقى رجل ضخم يرتدى (فانلات) برجل آخر ضخم يرتدى (فانلات) مثله ، فإن كلا منهما يتحى جانبا للآخر ، ويحملقان فى بعضهما البعض ككلبين يتناوشان ، استعداداً لأن ينقض كل منهما على الآخر . وكان هؤلاء يطلق عليهم الرجال الأقوياء فى فريديدورب ومالاي كامب ، وأحيانا ما كان يصارع بعضهم البعض لتحديد الأقوى من بينهم . وكانت الطريقة هى أن يتصارع اثنان ، فإذا ما انتصر أحدهما يصارع آخر ثم آخر وهكذا يستمر الحال إلى أن تنحسر التصفية على اثنين ، وهنا يكون الصراع الكبير ، والفائز فى هذا الصراع يكون هو أقوى الأقوياء . ولقد فقد الكثيرون حياتهم فى هذه المعارك ، ذلك أنهم كانوا يتقاتلون بالعصى والمدى والأحذية وحتى بالحجارة . وهكذا يقطعون فى أيام السبت شوارع مالاي كامب وفريديدورب جيئة وذهابا بصدورهم البارزة ، تطل من عيونهم نظرات الغطرسة .

وفى أيام السبت أيضا تأتى الفتيات من هل وبريا وبارك تاون إلى مالاي كامب يرتدين ملابس بنفس الطريقة التى يلبس بها البيض ، وإن كانت أكثر ألوانا ، ذلك أنهن كن يعشقن الألوان الأزهى ، وكن يتناسين أنهن يعملن فى هل وبريا وبارك تاون ، ويتقابلن عند نواصى الشوارع ويتحدثن بأعلى أصواتهن ، وتكثر الضحكات والتهكمات ،

وكلهن يرقبن الرجال ويتحدثن عنهن ، فتقول فتاة .. يعجبني هذا الشخص ، وتقول أخرى وأنا يعجبني الآخر هناك . ويستمر الحال هكذا ، فيشرون إلى الرجال الذين أعجب بهم . ولكن الإشارات لا تتم بالأصابع وإنما بالعيون ، وبطريقة غامضة يعرف كل رجل الفتاة التي أعجبت به .

وبعد كثير من الرقص والضحك واستعراض الفتيات لأرجلهن يلتقى رجال بفتيات ، وبعد ضحك أشد وحديث أعلى صوتا يمضى رجل وفتاة ، يذهبان للشرب فى مكان من هذه الأماكن الكثيرة أو يتمشيان فحسب أو يذهبان إلى السينما ، أو يمضيان يبحثان عن (مارابا) أو يمضيان فحسب .. ثم يظهر آخران ويحدث نفس الشيء .

وتمضى الحياة بطيئة مثيرة بكثير من الضحكات وكثير من الصيحات والثروة ، وكثير من الشراب والعراك . ويقف أهل مالاي كامب فى شرفاتهم يشاهدون هذا كله ، فيعلقون ، وينصرفون داخل بيوتهم ثم يعودون ثانية ويدلون بمزيد التعليقات . ويصبح الأمر أكثر إثارة حين يقبل الليل .

وأعاد جوزيف قوله وهو يقدم سيجارة لاجزوما : " هكذا يكون يوم السبت هنا " .

وتوقفا عند ناصية وأخذا يرقبان الحشد الذى يدور ويلف كالتاحونة ، وكانت السينما على الجانب الآخر من الطريق والناس تتدفق إليها . وخارج السينما تجمع أناس فى حلقة صغيرة يلعبون النرد . وكان الرجل الذى يمسك بالنرد يقوم ليؤدى رقصة صعبة قبل أن يلقي به على الأرض .

وعلى بعد قليل من بداية الطريق ، وقف رجلان ملونان يتقاتلان ، وكانا أشبه ما يكونان بملاكين يترنحان من شدة الضرب . ولقد ظلا يتقاتلان فترة تزيد على ساعة من زمن ، بيد أن كل واحد منهما جاهد فى أن يظل واقفا على قدميه . وعلى مقربة منا أيضا ، كان رجلان " أنيقان " يعبران الطريق يرتدى كل منهما حلة أرجوانية صارخة اللون ، ذات بنطلون واسع الرجلين ، وسترة طويلة تصل إلى الركبتين ، وقبعة من قش ، وقميصا أحمر اللون ، وربطة عنق سوداء . وفى يسرى كل منهما منديل أحمر ، وفى اليمنى عصا . وسارا يختالان ويقفزان فى الطريق من جانب لآخر وكانا صغيرى الحجم متشابهين ، كما جعلتهما ملابسهما المتماثلة يبدوان وكأنهما نسختان من رجل واحد . وسار خلفهما جمهور من أناس يهللون ويتضاحكون .

ومر باجزوما وجوزيف رجل ملون وامرأة شديدة الشحوب . وقالت المرأة : " انظر إلى هذين الأبلهين الأسودين " . وضحك الرجل . وأحس اجزوما بشيء من الخجل ، والتفت إلى جوزيف .

وقال جوزيف : " إنهما مصمما أزياء " .

- ولكنه عمل تافه .

ونظر إليه جوزيف دون أن ينبس ببنت شفة . وفجأة انحرفت حول الناصية شاحنة بيك آب وقفز منها رجال الشرطة ، راحوا يركضون عبر الشارع ففرقت حشود الناس .

وقال جوزيف : " هيا بنا " .

وجرى الناس في كل اتجاه . واختطف المقاترون النقود التي كانوا يلعبون عليها وجروا .

واختفى الأنيقان في نهاية الشارع . ولم يبق سوى الملونين فهما وحدهما اللذان لم يفرا .

واستحث جوزيف اجزوما وقال له : " هيا " .

- لكننا لم نفعل شيئاً .

وقال جوزيف في ضيق : " إنهم لن يستجوبوك " ثم انطلق كالسهم نحو بداية الشارع .

وكان أحد رجال الشرطة الذي يبعد عن اجزوما بعشر ياردات متجها إليه مباشرة . وانتظر اجزوما . إنه لم يفعل شيئاً . لقد كان يقف هناك يتفرج فقط . واقترب الشرطي ، ورفع عصاه ثم هوى بها بقوة ، فأخطأت رأس اجزوما وأصابته كتفه ، فسرى الألم في بدنه فقال : " أنا لم أفعل شيئاً " وأمسك بذراع الشرطي قبل أن يصيبه ثانية .

وصرخ الشرطي وهو يركله : " اتركه يا ابن الحرام " .

وشعر اجزوما بالألم يسرى في رجله ، فقال هامسا : " كلب " ولطم الشرطي على وجهه .

وانبعشت من عيني الشرطي نظرة دهشة غريبة . وارتجف اجزوما غضبا ، وضم قبضته القوية وضربه ثانية وبشدة . وتأوه الشرطي وسقط متكوماً على الأرض ورقد ساكناً ، فتلفت اجزوما حوله ،

وكانت الشاحنة لا تزال على مسافة بعيدة ، لكن شرطين كانا يقتربان منه فقال لنفسه : " على الآن بالهرب " وراح يجرى متجها إلى نهاية الشارع .

وصاح أحد الشرطين : " اقبضوا على هذا الرجل " .

وخطا رجل ملون إلى الطريق ومد يديه يريد الإمساك به ، فاستجمع اجزوما قواه وأسرع ، وخفق قلبه بشدة ، ولكنه كان يجرى فى سر يجب أن يكون حريصا وإلا أسلمه هذا الأصفر ابن الحرام إلى الشرطى .

وخطا ملون آخر إلى الطريق . وأحس اجزوما بالخوف . وكان من المستحيل أن يجرى وأن يصرع رجلين فى آن واحد . سوف يمسكان به . وسمع وقع أقدام الشرطين خلفه . وشعر ببغض نحو الملونين . لابد أن يضرب أحدهما قبل أن يمسكا به . هؤلاء المولدون . وحدث شيء لا يصدق العقل .. فقد طرح الملون الثانى الملون الأول أرضا وفر متجها إلى نهاية الشارع ملوحا لاجزوما . وابتسم اجزوما وأسرع من خطاه .

وقال له : " شكرا لك أيها الأسمر " .

وقال الرجل : " من هذا الطريق " وانحرف إلى عمر ثم قال : " سوف نسبقهم ولن يدركونا " .

وتبعه اجزوما وجرى الاثنان إلى بيت دخلاه من خلال نافذة ، وتسلقا جدارا ثم جريا إلى منزل آخر ، وتسلقا جدارا ثانياً . وبدأ أن

الملونين لا يابهون بما يحدث . ثم هبطا إلى شارع ضيق وتسلا داخل بيت . وأغلق الملون الباب وارتمى على مقعد يلتهث بشدة ، وأشار لاجزوما كى يتخذ له مقعدا . ثم قفز واقفا وتطلع من النافذة .

ودخلت زوجة الرجل الغرفة ، ولاحظ اجزوما مندهشا أن المرأة كانت سوداء . وقص الرجل عليها ما حدث . ثم خرجت دون أن تنبس بكلمة واحدة ، ثم عادت فيما بعد تحمل شايًا .

وتطلع اجزوما إلى الرجل . . لقد كان صغير الحجم نحيلًا ، ترتسم على وجهه كثير من التجاعيد رغم أنه لم يكن مسنًا . وكانت عيناه حمراوين ، كما ظل يسعل ، وكان سعالًا جافًا شديدًا أجهد رئتيه .

وسألت المرأة : " لم ضربت الشرطى ؟ " .

وأجاب الملون : " لقد ضربه الشرطى بلا سبب " .

ونظرت المرأة إلى اجزوما تتفحصه .

وقال اجزوما : " هذا ما حدث " .

وأومأت المرأة برأسها ثم قالت : " هذا الرجل أحرق لتدخله فى شئون الآخرين " ونظرت إلى زوجها فى قسوة " صدره سيء " ثم ابتسمت فبدا وجهها فتيا ، واختفت التجاعيد المرهقة ، وتلاشت من عينيها نظرات الحزن " لكنه أحرق طيب . . أنت وافد جديد إلى هذه المدينة ؟ " .

وأوما أجزوما برأسه .
فقلت المرأة لزوجها : " هذا هو سبب ضربه الشرطى " .
وأمسك الرجل بيد المرأة وابتسم فى وجهها .
وقال أجزوما : " يجب أن أنصرف " .
فقال الرجل : " ليس الطريق آمنا بعد . إنهم لا يزالون يبحثون
عنك . انتظر فترة أطول " .

وجد اجزوما الشارع دون مشقة ، بيد أنه كان من الصعب عليه
أن يعثر على البيت ، فكل البيوت تبدو متشابهة مع تجمع الشفق .
نفس الشرفات .. نفس بوابات الأفنية .. نفس الجدران الحديدية
الموجة التي تميل مترنحة إلى الخلف . والكل يتشابه في اتساخ
اللون .

وكان الناس في كل مكان . أناس يدخلون البوابات ، وأناس
يخرجون منها . أناس يترنحون ويتساقطون .. وأناس يتعاركون
ويسبون . كان معهم نقود ويريدون التخلص منها .. جوزيف قال
لى ذلك . وقال .. هكذا يكون السبت هنا .

وقال اجزوما لأحد الغرباء المارين : " اسمع يا .. " 11

ورد الغريب وهو ماض في طريقه : " رح في داهية " .

وكرر اجزوما المحاولة . ولم يتوقف أحد ممن سألهم ليستمع إليه
ثم شاهد المدينة الشاحبة التي كانت تتقاتل في الصباح والتي انشج
رأسها ، وكانت متكئة على رجل طويل ثمل . واتجه إليها ومس
كتفها وقال :

- أين مكان لياه ؟ .

ونظرت إليه ليزا الثملة بعينين غائمتين ، وهزت رأسها قائلة :

- اغرب عن وجهى .. اغرب .. فليست أحبك .. هذا الشخص
(بابا) ...

وقال الرجل الطويل الثمل وهو يضرب اجزوما : " امش " .
وتفادى اجزوما الضربة ومضى ثم راح يفكر .. هى بوابة من هذه
البوابات .. ولكن أية بوابة منها ؟ .. هذه الشاحبة الصفراء غبية مع
الشراب . وتعثر فى شخص فأمسك به ليتفادى السقوط .
وصرخ دادى وهو يصارع يائسا ليتعد : " النجدة ! النجدة !
إنهم ينشلوننى " .

وهزه اجزوما قائلا له : " اخرس " .
فقال دادى : أوه .. أهو أنت ؟ ظننتك فى السجن .. جوزيف
قال إنك لن تهرب .. أو هربت ؟ .
- أجل .. أين مكان لياه ؟ .

فقال دادى : " لا أعرف " ومضى .
فأمسك به اجزوما وهزه قائلا : " تعال .. قل لى " .
- هوه .. يظن نفسه أسدا لأنه طرح شرطيا أرضا .. هيه ؟
حسن .. أنا سأريك . هيا قاتلنى .

ووثب دادى مبتعدا ودار حول اجزوما يلوح بقبضتيه ، ثم اندفع
نحوه بسرعة وخبطه فى صدره . وضحك اجزوما وأمسك به . ونحطا
دادى إلى الوراء فزلت قدماه وهوى على الأرض ، واصطدمت رأسه
بالرصيف فتأوه ثم رقد ساكنا .

وجثا اجزوما ورفع رأس دادى وسأله : "أأنت بخير يا دادى ؟" .

وأمسك دادى برأس اجزوما وحاول أن يجذبه إلى الأرض .

وضحك اجزوما وقال له : " أنت ثعلب عجوز " .

ونهض اجزوما حاملا دادى بين ذراعيه كطفل صغير ، فقاوم وكافح دون جدوى .

- أين المكان ؟ .

وقال دادى بخبث : " حسن ! .. اسمع ما أقوله لك .. أتشتري لى شرابا لو أخذتك إلى هناك ؟ .. تلك الحمقاء لياه لن تقدم لى أى شىء بعد الآن ، فهل تقدمه أنت لى ؟ .. لو رفضت فسأقاتلك وأصيح وأقول للناس إنك نسلتنى وتقع بذلك فى مشكلة " .

فقال اجزوما : " وهو كذلك " .

- أنت وعدت .

- تمام .

- هل سيلدغك مليون ثملة لو كذبت ؟

- أجل .

- ويصيبك الرعب أسبوعا ..

- امش .. أرنى المكان .

أحبك يا اجزوما .

فضحك اجزوما وقال له : " ستحصل على شرابك يا دادى " .

- وهذا هو سبب حبى لك . وانطلق ليرشد اجزوما إلى الطريق

كان هناك أناس فى كل مكان . أناس يحاولون دخول البيت للحصول على شراب لهم . وآخرون يحاولون الخروج . وفاحت من المكان كله رائحة جعة الكفيرى . وكانت الأم بلاتك تجلس إلى دون ضخم فى الفناء وتقدم عيارات الجعة بتقتير شديد ، وتجمع شلنات فى مقابل ذلك .

وفى المطبخ كان جوزيف منهمكا فى القيام بنفس العمل ، وصاح " اجزوما ! اجزوما ! " وتوقف عن العمل وأمسك بيد اجزوما وصافحها بشدة .

- طنت أنهم أخذوك . أدت رأسى مرة أتلفت فرأيتك تضرب الشرطى ، وطنت أن أمره انتهى . قل لى يا رجل .. ماذا حدث ؟ .

وحاول اجزوما أن يحكى لجوزيف لكن الضجة كانت شديدة فهز رأسه . وأوما جوزيف وخبط ظهر اجزوما بود ، وقدم له عيارا من الجعة . وهز اجزوما رأسه ، ولكزه دادى بشدة فابتسم اجزوما وتناول العيار . وابتسم دادى فى ابتهاج وربت على ذراع اجزوما الذى رفع العيار إلى شفتيه ثم مرره إلى دادى ، فمسح دادى فمه بظهر يده ثم رفع العيار إلى فمه .

فى هذا الوقت تماما دخلت لياه ، حتى إذا ما بلغت دادى أخذت منه العيار . ومع صرخة من ألم ، ترنح وتمايل فى حركة دائرية .

وحين وقعت عيناه عليها وثب في جنون وأخذ يحجل مرة على قدمه اليمنى ومرة على قدمه اليسرى ، وتيار من سياب يتدفق من بين شفتيه ، وسيل من دموع ينساب من عينيه .

وأمسكت لياه باجزوما وعانقته ، وابتسم لها ، وضحك جمهور الشارين وسخروا من دادى . وأخذ اجزوما عيار الجمعة من يد لياه وقال :

- لقد وعدته . ولم يكن ليرينى المكان لو لم أعدّه .

ورفت ابتسامة ساخرة على وجه لياه . وارتفع أحد حاجبيها وألقت على اجزوما نظرة لبرهة قصيرة ، ثم أومأت برأسها ، وقدم اجزوما العيار لدادى فانتزعه منه وخرج من المطبخ مسرعا . ونظر اجزوما إلى عيني لياه ثم انفجر كلاهما فى الضحك .

وقالت لياه : " لقد فررت " .

وأوما اجزوما برأسه .

- هذا شيء جيد . هل أوقعت به ضررا ؟ .

وأراها قبضته وهو يقول : " لقد غط فى النوم " .

- شيء جيد مرة أخرى . كان عليك أن تهرب حين طلب منك ذلك جوزيف ، إنه عليم بالمدينة .

وربت على قبضة اجزوما وابتسمت قائلة : " أنت رجل . هيا بنا .. سنرى أن كان ثمة مكان نتحدث فيه .

وسارا فى غرفة لأخرى ، لكن الغرف كانت كلها ملاءة ، فى كل مكان أناس يحتسون .

وقالت لياه : " إنها التجارة " .

وهزت كيس النقود الجلودى الذى كان مربوطا حول خصرها فصدر عنه صوت مسموع ، وقالت : " هذه هى القوة " .

ونظر إليها اجزوما فلمعت عيناها وتوهج وجهها قليلا وبدأت ابتسامتها الساخرة ثم اختفت . وبرز صدرها الضخم ، ثم هبط . وضبطته يتطلع إليها فضحكت بصوت مرتفع ، وبدأت أقوى من أى وقت مضى .

- أسئلة مرة أخرى .. هيه ؟ .

ولمعت عيناها وتوجهت إلى الشرفة ولكنها كانت كغيرها من الأماكن .

وعادت تقول وهى تقود خطاه إلى الشارع : " إنها التجارة " .

وسارا حتى بلغا ناصية الشارع ، وسألته : " هل أصبت طعاما ؟ " - كلا .

- طيب . حين تنهى من هذا العمل يمكنك أن تذهب مع المدرسة وتتناول الطعام معها . لقد رجعت . جميل ؟ .

- نعم .

- تستطيع أن تستريح فى الغد ، وبعد غد يمكنك أن تذهب إلى المناجم إذا كنت لا تزال راغبا فى ذلك . قل لى .. ألك امرأة فى الشمال ؟ .

- كلا .

- أتريد واحدة هنا ؟ .

فابتسم ووقف عند الناصية وانتظرا . وظلت لياه تتطلع إلى الشارع المتقاطع مع الشارع الذى فيه يقفان . وبعد عشر دقائق أقبل شرطى أسود على دراجة ، ثم هبط وتوقف عندهما وقالت له لياه "مرحباً" .

ورد الشرطى : " مرحباً " ونظر إلى اجزوما

فقالت لياه : " إنه إنسان طيب " .

وهنا قال الشرطى : " لن يأتون الليلة " .

- جيد

- ولكنهم فى الغد سينبشون مكانك وبعض أماكن الآخرين .

- آه .. ومن هم هؤلاء الآخرين ؟ .

فقال الشرطى : " مهمتى معك أنت " .

فابتسمت لياه ساخرة ، وعدت خمس جنيهات ورقية من كيسها الجلودى وأعطتها للشرطى .

قال الشرطى : " إنك لن تبلغى الآخرين " .

فقالت : " لا أهتم إلا بنفسى " . ثم اصرفت .

وركب الشرطى دراجته ومضى .

وقالت لياه : " هيا " ورجعت إلى البيت ، فلاحق بها اجزوما وأمسك بذراعها .

- هل ستبلغين الآخرين ؟ .

فقالت وهي ماضية : " ماذا بك ؟ " . واستلت ذراعها منه .

- إنك امرأة غريبة .

- وأنت مغفل . امش ، فلدى كثير من المهام لابد أن أؤديها .

وتبعها إلى الفناء من خلال الدار ، ثم إلى باب عند الطرف البعيد من الفناء ، وطرقت الباب ودخلت ، ومن خلفها اجزوما .

وتطلعت . إليهما شابة كانت تتناول طعامها .

وقالت لياه : " هذا اجزوما " .

وابتسم اجزوما ، لكن الفتاة نظرت إليه دون أن تبادله الابتسام . وأيقن أن هذه هي المدرسة .

وقالت لياه : " أعطيه طعاما ودعيه يقيم هنا . لدينا عمل كثير ولسوف يأتون في الصباح ينبشون المكان " .

وسألت الفتاة : " والليلة ؟ " .

- لن يأتوا ، ولهذا سنبيع كثيراً ونستريح فيما بعد . سوف أدعوك ، ويمكنك أن تذهبي مع اجزوما إلى السينما بعد أن تنتهى من طعامك .. هيه ؟ .

وخرجت لياه وأغلقت الباب وراءها ، ثم أطلت برأسها فى الغرفة ثانية وقالت :

- اجزوما .. لست غاضبة منك . ولكن لا تكن غيبيا . لو أنى
أبلغت الآخرين فستعلم الشرطة أننى تلقيت تحذيرا وستسوء العاقبة .
والآن تناول طعامك .

وقالت الفتاة : " اسحب كرسيك واجلس " .

واستجاب اجزوما . ونهضت الفتاة وغرفت له شيئا من طعام فى
صحن ، وراح هو يراقبها . وكانت الفتاة جميلة تشبه زهرة ندية بنية
ملساء . وكان فى رشاقة جسدها شباب وقوة . إنه جمال أسمر قوى
هادىء .. فى ذراعيها وساقها ولففتها وهامتها المرفوعة . وكانت رقة
صوتها ساحرة ، وكان من الصعب الكف عن النظر إليها .

ووضعت الطعام أمامه وقالت : " طرحت الشرطى اليوم أرضاً " .
وأوما برأسه .

- لماذا ؟ .

- ضربنى دون سبب .

- ولم لم تهرب ؟ .

أيجب أن يفر إنسان لم يرتكب شيئا ؟ .

وابتسمت له للمرة الأولى . وكان شيئا جميلا . لقد بدت أسنانها
جميلة ، وانفرج الوجه عن غمازتين ، غمازة فى كل وجنة .. أشياء
جميلة دفينة يشتهى تقيلها . وكانت عيناها وضائتين عميقتين حين
ابتسمت . وبادلها الابتسامة .

وسأله : " أنت لست خائفا ؟ "

فأعلن وفي صوته رنة تباه : " لست أخشى إنسانا "

فقالت له : " كل "

وبعد فترة قصيرة رفع ناظرية وقال : " بم يسمونك ؟ "

- اليزا .

- اسم جميل .

وسأله : " وأنت .. من أين ؟ "

- من الشمال .

- هل هو جميل ؟

- جميل جدا .

- فلم هجرته ؟

ليس هنك عمل . وسأته إلى المناجم هنا .

وصمتت .. أما هو فراح يفكر في شيء يقوله ، بيد أنه لم يجد ما يمكن أن يكون موضوع حديث . لقد كانت جميلة جدا . ونظر إلى شعرها ورغب في أن يلمسه . ورفعت ناظريةا فرأته يتطلع إليها ، فغضت الطرف ثانية .

- ما رأيك في الطعام ؟

- جيد . أطهوته أنت ؟

- أجل -

وأطلت لياه برأسها من الباب وقالت : " إنها جميلة يا اجزوما ،
هيه ؟ " .

- جميلة جدا -

وضحكت لياه وأغلقت الباب بعنف -

وسأله اليزا : " هل ستشرب ؟ " .

- كلا -

ونفضت اليزا وراحت ترفع الأطباق واجزوما يراقبها - وخيم
صمت على الغرفة - ومن الخارج تنهت إلى سمعها في خفوت ضجة
الشاريين - ومن آن لآخر كانا يسمعان لياه تهديء من ضجة الشاريين
عندما يشتد الصخب -

وقالت اليزا : " أعنى على رفع المكنة ، سأحيك لبعض الوقت " .

ووثب اجزوما وأمسك بمكنة الحياكة ، وحين رفعها أحس بوخزة
حاددة مؤلمة في كتفه اليسرى -

وقالت له اليزا : " إنك مصاب " .

فقال : " ليس فى الأمر شىء " .

- دعنى أنظر -

- إنه المكان الذى ضربنى فيه الشرطى الغبى -

- اجلس هنا -

وفتحت القميص - وكان فى المكان الذى ضربه فيه الشرطى كدمة
أرجوانية اللون فقالت :

- يجب أن تضع شيئاً ما عليها .

وعثرت على قنينة مرهم وأخذت تدهن منه الكدمة . وكانت أصابعها ناعمة ورقيقة . وتمنى لو أن هذه الأصابع استمرت تقوم بهذا العمل . وقال لها : " أنت جذابة وجميلة " .

فقالت : " إنك تشعر بالوحدة " وضحكت .

وساد الصمت بينهما مرة أخرى ، ولكنه كان صمتاً يشيع فى النفس شعوراً بالرضا . حتى الضوضاء التى جاءتهما من الخارج أشاعت نفس الشعور . وناولته سيجارة وأشعلت لنفسها واحدة وبصت على وجهه وضحكت .

- أهى المرة الأولى التى تشاهد فيها امرأة تدخن ؟ .

- شاهدت النساء البيض فقط يدخن .

ولضمت الإبرة ، وببطء أخذت المكنة يصدر عنها صوت جلبة لها طنين رقيق راق لاجزوما . وقالت :

- حدثنى عن موطنك وعن أهلِكَ ؟ .

وراح يحكى : " إنه بعيد جداً .. بين تلين ونهر . وهو هادى لا يشبه الوضع هنا . حين أفكر فيه الآن أشعر بالحنين إليه . فى يوم ما كان لدينا قطيع كبير ، أما الآن فلا يوجد سوى القليل منه ، والأرض جدباء ، وهناك أبى وأخى وأختى وهما أصغر منى " .

- وأمك ؟ .

- ماتت .
- أتنوى العودة ؟ .
- نعم .
- والمدينة .. أتعجبك ؟ .
- لا أدري .
- لياه تحبك .. إنها تتحدث عنك كثيرا .
- إنها حنونة ، ولكن من الصعب فهمها .
- هي طيبة أيضا .
- إنك تحبينها . ما علاقتها بك ؟ .
- هي شقيقة أمي . رعتني لما ماتت ، وأرسلتني إلى المدرسة .
- وها أنا الآن مدرسة . ألم تذهب إلى المدرسة ؟ .
- نعم .. لم أذهب فليس في المكان الذي نحن فيه مدرسة .
- وتوقفت اليزا عن الحياكة وغطت المكنة .
- هيا .. سنذهب للتمشية . سأأخذك إلى مكان شبيه بالريف .
- وغادرا مالاى كامب وابتعدا عن حشود الناس وعن الزعيق والعراك وضجيج الشوارع تلك التى أخذت تتلاشى فى بطاء وتتباعد إلى أن صارت فقط همهمة بعيدة . وبعد فترة من زمن كان تحت الأقدام عشب .

وقالت اليزا : " المكان هنا هادىء " .

فقال : " يكاد يشبه الريف " .

فقالت : " حين يتتابنى الضيق من الضجيج آتى هنا أحيانا " .

فقال : " الجو هنا ندى " .

وجلسا .

وقالت اليزا وهى تشير بإصبعها : " ها هى المدينة " .

وكانت المدينة تقع إلى حد ما ناحية الشرق . وكان ثمة كتلة من
مبان غير واضحة المعالم ، وأضواء تومض .

وقال اجزوما : " النظر إليها من هنا يشعرك بالوحشة " .

وتمددت اليزا مستلقية على ظهرها ، وتوسدت ذراعيها ثم
قالت : " أحب التطلع إلى النجوم " .

وستدار ونظر إليها : " إنك جميلة " .

فقالت : " إنك تشعر بالوحشة " وضحكت .

- لم تقولين هذا ؟ .

- لأنها الحقيقة .

وأحس بوجود شيء ما بينهما لا يعرف كنهه ، كما لا يستطيع أن
ينحيه جانبا . وأدار رأسه ونظر ناحية الغرب ، فشاهد أشكالا ضخمة
شاهقة غير واضحة المعالم ، ترتفع من وراء ظهورهم عالية فى السماء

لقد كانت أشكالا مستديرة ضخمة ، لكن ضخامتها تقل وترق كلما علت ، بحيث لا تظهر سوى قممها بوضوح قبالة السماء .

وسأل اجزوما وهو يشير اليها : " ما هذه الأشياء ؟ " .

ورفعت اليزا رأسها ونظرت ثم قالت : " هذه نفايات المنجم . كتل من الرمل الذى يجرف من الأرض ، حين يبحث المعدنون عن الذهب . أنت سوف تساعد فى عمل هذا " .

- مجرد رمل ؟ -

فقالت بسأم : " نعم .. مجرد رمل " .

- لا بد وأن استغرق ذلك وقتا طويلا .

- فعلا .. سنوات كثيرة استغرقها عمل ذلك كله . كما أن المزيد منه يتم كل يوم .

- ألم تقتربى منها أبدا ؟ -

- بلى اقتربت .

- وماذا تشبه ؟ -

- تشبه الرمال .

- ومالونها ؟ -

- لون الرمل الأبيض .

- ألا يوجد رمل أسود ؟ -

- لم أر شيئا كهذا .
- شيء طريف .
- لم ؟ .
- جبل من رمل أبيض يقيمه رجال سود .
- ورجال بيض أيضا .. هيا .. يجب أن نمشي .
- ونفضت و(تمطعت) ، وجلس هو يحملق في نفايات المنجم ..
- وبزغ القمر فجأة من وراء سحابة .. وكان كبيرا وأصفر وبهيجاً . وفي السماء تلالآت النجوم براقية . وحول اجزوما ناظرية من نفايات المنجم إلى اليزا وصبا إليها . ثم قال في تجهم :
- أنت جميلة .
- فقلت : " هيا بنا " .
- أنت لا تحبيننى .
- ونظرت إليه نظرة غريبة لكنها لم تنبس ببنت شفة . ثم بدا في ضوء القمر أنها تبسم .. ابتسامة بسيطة ساخرة ذكرته بالمرأة لياه .
- ومشت ، فنفض وتبعها ، وأمسك بذراعها وجذبها إليه .
- فقلت : " أنت قوى جدا " وضحكت .
- لماذا لا تحبيننى ؟
- وللمرة الثانية بدت في عينيها تلك النظرة الغريبة وهي تتطلع إليه . ومرة ثانية لم تتفوه بكلمة واحدة ، فجذبها وأدناها منه ،

وأمسك بها فى إحكام .. فأحس بصلابة جسدها تلين فابتسم . ومن خلفهما قبعَت المدينة وقبع مالاي كامب . وهناك كانت نفايات المنجم التى تكونت من الرمل الأبيض . وهنا كان الهدوء والطمأنينة ، وكانت هى رقيقة بين زراعيه .

وبيده الكبيرة أمسك بذقنها ورفع وجهها وابتسم ، ولكنها لم تبادله الابتسام . هذه إنسانه غريبة مثل لياه .. وهبط بشفتيه ليقبلها . وهنا تصلب جسدها ثانية .. ودفعته بعيدا عنها وقالت :

- لا تفعل . وكان صوتها أشبه بصراخ طفل . وأولته ظهرها ، ومشت مسافة صغيرة . أما هو فقد وقف يتأملها .
وقالت له دون أن تلتفت إليه : " آسفه " .

فقال : " لاتبال " . وسار بعيدا عنها ، واتخذ الطريق الذى أتيا منه ، ثم مرة واستدار ليتطلع إلى نفايات المنجم البعيدة ، ثم استدار ثانية ومضى .

وحين اقترب من مالى وكامب لحقت به وسارت بحذائه . ولفترة طويلة سارا صامتين . ثم رفعت عينيها ونظرت إليه وقالت :

- أنت غضبان .

- وماذا يهمك ؟ .

فقالت : " أنا آسفه .. لكنك لا تفهم ؟ " .

ونظر إليها .. وبدا وجهها حزينا ، فزايله غضبه ولم يكن فى داخله الآن سوى الشعور بالوحدة .

وقال ها : " لست غضبانا " .

وسار صامتين طوال الطريق .

طوال تلك الليلة والناس يحتسون الشراب فى بيت لياه . وحين عاد اجزوما واليزا كان البيت أكثر ازدحاما عما كان عليه قبل أن يغادراه . وكانت الأم بلانا العجوز تجلس فى نفس المكان فى الفناء ، وخلفها دنان فارغان ، وأمامها دن يمتلىء إلى منتصفه ، وكان الفناء مكتظا بالناس . وفى ركن آخر من الفناء كان مع المرأة النحيلة الملونة التى كانت قد أصيبت بالهذيان بعد الظهيرة ، دون آخر ، وكانت أيضا تبيع . وحين رآها اجزوما مترنة أصابته الدهشة .

وكانت كل حجرة فى البيت تمتلىء برجال ونساء يحتسون الجعة ، وكان ثمة نساء ملونات كثيرات تلتف أذرعهن حول رجال سود . أما الملونون من الرجال فلم يكن منهم هناك سوى رجل أو اثنين .

وأقبلت امرأة ملونة نحيلة قاسية الملامح وأحاطت بذراعيها عنق اجزوما وقالت :

- اشتر لى شرابا يا بابا .. ويمكن بعد ذلك أن نغضى لنام سويا .. نصف كراون فقط .

وتركته اليزا واتجهت إلى غرفتها . وراح اجزوما إلى الفناء ثانية . وكانت لياه متكئة إلى جدار تحادث جماعة من رجال وتضحك بأعلى صوتها . وكان وجهها متوردا تسخر بعينيها من الرجال .

- اجزوما . وكانت صاحبة هذا الصوت الأم بلانك العجوز .
واتجه ناحيتها فدعته للجلوس قائلة :

- اجلس هنا يا ولدى . وهيات له مكانا على الدكة التي بجوارها .
" لدي نقود كثيرة ، وأريدك أن تأخذ بعضا منها وتبقيه معك لتسد
منه لياها . هؤلاء الناس سكارى ، وقد يقع شيء من العراك ، وأنا
امرأة عجوز " .

وناولته ربطة أوراق مالية وربت على ذراعه ، ثم دفعته بعيدا
فابتسم . وكان صوتها عذبا عطوفا ذكره بصوت أمه العجوز . ثم
زعقت " تعالوا .. أقبلوا يا أولاد الكلاب ! تعالوا وأملأوا أمعاءكم
بالشراب ! ولم يكن فى صوتها شى من أمومة .

والتفت إليها اجزوما وضحك فغمزت له بخبث وتغضن وجهها
الجدى العجوز إثر ابتسامه داعرة .

وزعقت : " تعالوا يا كلاب . أين شلناتكم ! " .

وانصرف اجزوما .

- ها هو ابن الحرام .

واستدار اجزوما ، فمرق شىء ما أمام وجهه ، فتراجع خطوات
إلى الخلف .

وصاح دلادلا : " هذا لسرقتك المرأة التى كانت لى " ولوح بسكين .
وكان من ورائه رجلان آخران يحمل كل منهما سكينًا . وأحس
اجزوما بدم يسيل على جانب من وجهه . وضحك دلادلا وهو يشق

الهواء بسكينه . ودنا منه الرجلان الواقفان خلفه ، حيث تقدما بضع خطوات . وتراجع اجزوما خطوات إلى الوراء وهو يتلمس شيئاً ما صلباً وجامداً .

وقال صوت نسائي : " خذ هذه " ودفعت إلى يديه بهراوة . وكانت لنا صاحبة هذا الصوت ، المرأة النحيلة الملونة التي كانت قد أصيبت من قبل بهذيان . ورفع اجزوما الهراوة وقال : " أقبل " . وارتفع صوت لياه قائلاً : " دع دلادلا هذا لى " .

وتراجع دلادلا خطوات إلى الخلف وأدار رأسه . ورفع اجزوما الهراوة وتقدم خطوات نحو دلادلا .

- لا .. هو لى أنا . راقب الاثنين الآخرين . وتقدمت إلى الأمام فى ببطء ويدها فى خاصرتها وابتسامة ساخرة ترسم على وجهها . وتحرك الناس إلى الوراء مبتعدين عن المجموعة القليلة التى فى الوسط . وأدار أحد اتباع دلادلا عينيه صوب لياه فضربه اجزوما فسقط الرجل ساكناً . وهنا اندفع الآخر تجاه البوابة ، لكن رجلاً طويلاً دخل فى التوقبض عليه . لقد أمسك هذا الرجل الطويل برقبتة وهزه ، وقال وهو يزأر " اسمى جيه .. بى . وليامسن ، وسأقتلك يا وضع " .

وصرخت المرأة النحيلة الملونة : " جوهانز ! " .

ونظر إليها الرجل الضخم دون أن يفك قبضته .

وصاحت لنا : " لا تقتله .. ستذهب إلى السجن " .

وزمجر جوهانز : " سأسحق هذا الخسيس " .
وصرخت لنا : " لا " .. وكان فى صوتها سطوة .
وأطلق جوهانز زمجرا سراح الرجل الذى هوى إلى الأرض
فرقد ساكنا .

وقال دلادلا وهو يتراجع إلى الوراء أمام لياه : " لو اقتربت أكثر
من ذلك ، طعنتك بالسكين " .

وقال جوهانز فى زمجرة وهو يخطو إلى الأمام " واحد آخر " .
فقالت لياه : " إنه لى أنا " .

وتراجع جوهانز إلى الخلف .

- لا تقتربى أكثر من ذلك يا امرأة .

وتقدمت لياه خطوة ، فحاول دلادلا طعنها ، لكنه أخطأها
فأمسكت بذراعه ودفعتها بعيدا . فجاهد هو ليوجه السكين إلى
كتفها ، لكنها أمسكت به كالمنجل .

وهمست له : " ابذل محاولة أشد " ونطحت وجهه برأسها فتفجر
الدم من أنفه ، وبرزت عروق جبهته ورقبته حين جاهد ليهبط بالسكين
وكانا فى أثناء اشتباكهما فى هذا الصراع المخيف يتمايلان من جانب
لآخر . وحاول يائسا أن يشل حركتها فنخرت ، ثم فى بطاء دفعت
بذراعه وراء ظهره ، وراحت تدفعها وتدفعها ، فبدت حبات العرق
على جبهته وتغضن وجهه من الألم ، ثم تلقى بعدها ضربة عنيفة
فتراخت يده ، وانزلقت السكين من بين أصابعه ، وهنا تركته لياه

فتكوم على الأرض ، وألقت عليه نظرة ، وبصقت ، ثم رفعت كعب
حذائها وهوت به على وجهه .

فقال اجزوما : " لا " .

فنظرت إليه بابتسامة ساخرة ومضت وهي تقول " ابعادوا هذه
القدارة " .

وجذبت اليها اجزوما من ذراعه قائلة " تعال .. سأغسل وجهك
من الدم " .

ومضى معها إلى الغرفة فأحضرت طست ماء وغسلت وجهه
وقالت " ليس الجرح غائرا لكن لا بد من علاجه وإلا ازداد
النزف .. هيا " .

فقال : " الأمر بسيط " .

وبضيق صدر جرفته وخرجت به .

عادا بعد ساعة وكانا قد وجدا طبيبا خاط جرح وجه اجزوما .
ولم يكن بالفناء ولا بالدار أحد من الناس فقد انصرفوا جميعا ، ولم
يبق سوى جوهانز الضخم ولينا ، ومن كل مكان كانت تفوح رائحة
الجنة الكريهة قوية .

وتساءلت لياه : " أهو جرح سيء ؟ " .

وهز اجزوما رأسه .

وقالت لياه : " جوهانز يعمل فى المناجم ولسوف يساعدك .
هيه يا جوهانز ؟ " .

وأجاب جوهانز : " اسمى جيه . بى . وليامسن . ولسوف
أساعدك " .

ودخل دادى تعينه الأم بلانك . لقد كان نائما وهو الآن مفيق من
سكره . ونظر اجزوما إلى جوهانز . . كان يشبه الملونين بيد أنه كان
يتكلم ويتصرف كالآخرين . وكانت المرأة النحيلة الملونة تحبه ، وهو
أمر بادر للعيان .

ونظرت لياه إلى اجزوما ثم إلى اليزا وضحكت .

وقالت اليزا : " لقد فقد قدرا كبيرا من الدم " .

فقالت لياه : " دعيه ينم . وأنت ستساعديتنا فى التخلص من
الصفائح وترتيب المكان حتى يبدو كل شىء على ما يرام حين تداهمنا
الشرطة فى الصباح " .

وأومأت اليزا برأسها . ومضى الثلاثة . . اجزوما ولياه واليزا إلى
الفناء ثم إلى الغرفة . وجلست لياه ونظرت إلى اجزوما وقالت :

- ستنام هنا ، وستنام اليزا فى البيت . . ولكن كيف الحال
معك الآن ؟ .

- على ما يرام .

- أتريد طعاما ؟ .

- كلا .

- شرابا ؟

- كلا .

- وهذه الفتاة ؟ .. وأومات برأسها إلى اليزا .

وقالت اليزا : " لاتكونى حمقاء " .

وصمت اجزوما وتنهدت لياه وضحكت . ثم تذكر اجزوما النقود التي أعطته إياها الأم بلانك ، فأخرجها من جيبه وناولها لياه ، فنهضت وبكف يدها ضربته على ظهره واتجهت ناحية الباب ، ثم أومات مرة أخرى ناحية اليزا وقالت " البنت هذه تحبك ، لكنها بلهاء ، والسبب هو التعليم ، إنها تحبك ، بيد أنها ترغب فى إنسان يستطيع قراءة الكتب وارتداء ملابس كملايس البيض ، ويتكلم لغتهم ، ويرتدى القطعة الصغيرة من القماش إلى يسمونها ربطة العنق . خذها بالقوة ، وإلا كنت أبلها مثلها " .

ومع ضحكة أخرى خرجت من الغرفة . ونظر اجزوما إلى اليزا وقال :

- هل الأمر هكذا ؟ .

لكنها لم تلتفت إليه . ثم قالت : " فراشك معد ، ويمكنك أن تنام الآن " ، ثم مضت دون أن تجيب عن سؤاله .

جوهانز الثمل وجوهانز المفيق شخصان متباينان .. الأول صاحب متبجح متغطرس ، يقول للعالم أنه جيه . بى ويليامن ، وأنه يسحق أى نخسيس . يفتبط بالعراك ، ويعتز بقوته الشديدة . يتحدى أى إنسان فى أى وقت . أما الآخر فكان هادئاً منظوريا على نفسه لين الحديث ، وديعاً كالحمل ، يخجل فيما يبدو من ضخامة حجمه وشدة قوته . يكاد يخشى النظر إلى أى إنسان ، وهو على استعداد دائماً للتنحى عن طريقه للناس ، ومن النادر تماماً أن يغضب أحدا .

وفى هذا الصباح الباكر من يوم الاثنين كان جوهانز مقيماً ووجهه جاداً ، وقد تقارب حاجباه بالطريقة التى يكون عليها الإنسان حين يطيل التفكير بشدة . وكان اجزوما ينظر إليه من وقت لآخر ، فى حين بقى جوهانز يتهادى فى مشيته مطأطئ الرأس . وكان فى جعبة اجزوما كثير جداً من الأسئلة التى يود طرحها عليه . وقد حاول ذلك ، بيد أنه لم يتقلق منه سوى كلمتى .. أجل ولا ، يرددهما فى صوت هادئ ينطوى على إحساس بالحزن . كان من الصعب الحديث معه . وتساءل اجزوما بينه وبين نفسه عما يمكن أن يكون عليه شكل المناجم فى الحقيقة .

وقال اجزوما : « الشوارع الآن خالية » . وكان يتذكر كيف كانت هذه الشوارع مزدحمة يوم السبت .

فقال جوهانز : « نعم » .

وفكر جوهانز .. إنها تبدو على غير المألوف ، خالية تماماً .. لكنه لم يتفوه بشيء ، وكأنها ينبغي ألا تكون كذلك .. طويلة .. واسعة .. وخالية .. شارع بعد شارع . والمحلات كذلك .. مجرد واجهات دون أناس يتفرجون عليها . والطين المقزغ خامد في كل مكان . وأضواء مصابيح الشارع الخافتة .. كل شيء بدا غير مألوف على هذه الصورة .. وكأنه الموت يفترش المدينة . وجوهانز لا يحب ذلك ، فهو يكره التفكير في الموت .

وقال اجزوما : « الحياة الآن هادئة تماماً ، وأنا أحبها على هذه الصورة . لاتعجبني حين تكون مزدحمة والناس موجودون في كل مكان ، كما هو الحال يوم السبت » .

وغمغم جوهانز « اححم » وحدث نفسه « أحبها حين تمتلئ بالجماهير » .

- ماذا ؟ .

- لاشيء .

- حسبتك تتكلم .

- لا .

ومرة أخرى سارا صامتة لفترة طويلة ، في طول الشوارع الخالية وفي عرضها ، مع البنايات المرتفعة الغافية على كلا الجانبين ، والسلع والملابس في واجهات المحلات . لكن لم تشاهد سيارة في أى مكان

ولا إنسان . مدينة الذهب نائمة ، وكانا هما المستيقظين الوحيدين ،
الشيئين السائرين فيها . وراح جوهانز يفكر . . إنها أشبه ما تكون
بمكان مقفر ، وأنا لا أحب الأماكن المقفرة . . بينما راح اجزوما
يفكر . . إنها جميلة هكذا . . جميلة وآمنة .

وقال جوهانز فى نفسه . . إنها تعجبه ، لكنى أحب الناس . .
وليس مجرد شوارع خالية ومبانٍ لأحياة فيها . . إنهم الناس . .
الناس . وفى نفس الوقت كان اجزوما يفكر . . إنه إنسان غريب . .
بالأمس كان صخباً متبجحاً . . وهو الآن هادئ إلى حد أنك لا
تكاد تسمع صوته حين يتكلم . . وإنى لأتساءل عما هو الحال فى
المناجم . لقد ألقى هذا السؤال على جوهانز ، بيد أن جوهانز لم
يجبه . وها هو يحاول ثانية :

- كيف تسير الأمور فى المناجم ؟ .

ونظر إليه جوهانز بعينين حائرتين .

وقال اجزوما موضحاً : « إننى لم أذهب إلى منجم أبداً » .

ظل التجهم المصاحب للحيرة واضحاً على وجه جوهانز .
وساءل اجزوما نفسه عما إذا كان جوهانز قد أدرك سبب السؤال ،
فراح يتكلم ثانية وقال :

- لست أهاب العمل . المسألة فقط هو أنى أريد أفهم وأعرف
ما سأفعله .

- ستفهم . . فليس من الصعب أن تتعلم . وزم شفتيه ورنا
ببصره بعيداً . لقد كره الشوارع الخالية . وكره الصوت الذى كان
يصدر عن أقدامهما ، فقد زاد من إحساسه بخواء الشوارع ، والكلام

يجعل الأمر أكثر سوء . وفتح اجزوما فاه ليتلکم ، ونظر إلى وجه جوهانز ، ثم عدل عن رأيه .

وخلفا جوهانسبرج وراءهما غير بعيد منهما . لقد كانت تماماً خلف مرتفع بسيط اعتلياه ، وكانا لا يزالان قادرين على رؤية أعلى الأبنية لو أنهما نظرا إليها . وكانت قمم نقايات المناجم الشاهقة قبالتها . وتطلع إليها اجزوما ، فبدت له الآن عادية مألوفة ، وليس كما بدت يوم السبت ليلاً حين شاهدها مع اليزا . كان فيها آنذاك شيء جميل مذهل وشامخ ، أما الآن فهي مجرد جبال مرتفعة من رمال . . ولم تعجبه .

وقال جوهانز : « هاهم بعض رجال في طريقهم إلى المناجم » وأشار إليهم . فبص عليهم اجزوما .

وكان يمتد على يسارهما وعلى بعد قليل تحتها ، طريق أملس مرصوف بالحصى ، وحول منعطفه الأيسر موكب من رجال يسيرون . ولم يكن الصباح قد انفلق تماماً ، وكان يتعذر تمييزهم كأي شيء حولهم سوى أنهم أناس سائرون .

وقال اجزوما : « إنهم كثيرون » .

- أجل .

- من أين قادمون ؟ .

- من المجمع السكني . وجلس على العشب بعد أن قال ذلك ، فجلس اجزوما بجانبه ، وراح يشاهد طابور الرجال وهم يقتربون .

وقال جوهانز بتؤدة « المجمع السكني في لانجلاجت . كل عمال المنجم الأفارقة لابد وأن يعيشوا في المجمعات السكنية » .

فسأله اجزوما : « وأنت ؟ » .

وساد صمت لفترة قصيرة . ودنا صف الرجال الطويل ، لكنه كان لا يزال بعيداً عنهم بمسافة كبيرة . وأشار جوهانز إلى الصف وقال :

- إنهم ليسوا من أهل المدينة .. هم قادمون من المزارع ، وبعضهم من بلاد البرتغال ، وآخرون من روديسيا . جلبهم الرجل الأبيض . وهؤلاء المجلوبون لابد وأن يعيشوا في المجمعات . إنه القانون الذى يسرى هنا . ولكنى قدمت إلى المدينة مثلك ، وأنا رئيس عمال رجل أبيض ، ولهذا لا أقيم فى المجمعات السكنية . هم لا يأخذون عمالاً كثيرين من المدينة ، لأنهم لا يحبونهم » .

- وهل سيأخذوننى ؟ .

وأوما جوهانز برأسه . ثم أخذ يلوك شيئاً من العشب . ولما اقترب الطابور نهض جوهانز (وتمطع) قائلاً :

- هيا .. سوف نسير معهم .

وتبعه اجزوما هابطاً منحدرًا بسيطاً ، وانتظر معا على جانب الطريق .

وسار فى مقدمة الطابور الطويل واحد من الاندونا . وهو شرطى مناجم أسود ، مهمته الحفاظ على النظام بين العمال . بينما سار آخرون من الاندونا على جانبى الصف ، كل واحد منهم يبعد عشر ياردات عن الآخر . وقد حملوا جميعاً نيايت ورماحاً رفيعة . وكان الرجال فى الصف يدندنون فى أثناء سيرهم . واجزوما يشاهد ذلك بفضول ثم سأل :

- لماذا يحمل هؤلاء الآخرون رماحا رفيعة ؟ .

وأجاب جوهانز : « إنه القانون » .

ومر الطابور بمحاذاتهما فقال جوهانز بصوت عال : « صباح الخير » .

وصاح الاندونا الذى يتقدم الطابور : « صباح الخير يا وليامسن ، كيف الحال فى المدينة ؟ » .

فأجاب جوهانز : « كالمعتاد » .

وسار الاثنان بمحاذاة الطابور الزاحف ، وإن بقيا على جانب الطريق . وتطلع اجزوما إلى وجوه الرجال السائرين ، ولم يكن يرتسم على وجه أى منهم سوى تعبير باهت . ثم وقع بصره على كهل يتسم له فباده له الابتسام ، فحياه الكهل بيده .

وسأل اجزوما جوهانز : « من ذلك الرجل ؟ » .

ونظر جوهانز ثم هز رأسه . وعاد اجزوما النظر إلى الكهل .

وسأل اندونا المقدمة وقد علا صوته فوق أصوات وقع أقدام الزاحفين المكتومة الرتيبة « من صديقك هذا يا وليامسن ؟ » .

وأجاب جوهانز : « إنه يدعى اجزوما » .

فقال الاندونا بصوت مرتفع : « مرحى يا اجزوما » .

ورد اجزوما : « مرحى » . . وأدار عينيه إلى الكهل ، وكان فى عينى ذلك الرجل شىء ما . . كان فيهما رسالة من نوع ما ، لكن

اجزوما عجز عن ادراكها فهز رأسه . وبصوت مرتفع سأل الاندونا :
« أذهب هو إلى المنجم ياوليامسن ؟ » .

- سيعمل مع الرجل الأحمر .

وانحرف الطريق ، وحين استقام ثانية استطاعا أن يشاهدا بوابات
المنجم في مواجهتهما . ثم بدأت أولى خيوط شعاع الشمس تلوح في
الشرق . وكان الصوت المكتوم الرتيب الصادر عن أحذية الرجال
الزاحفين يوالى الدمدمة . وظهر في مؤخرة الطابور أثر الغبار المثار .
وطفى فوق ذلك كله طنين الزاحفين .

وانفتحت البوابات وزحف داخلها الرجال . ومن مبنى منخفض
سود الدخان جدرانته خرجت جماعة من البيض وأخذت تراقب
الزاحفين المارين أمامها . واتجه الطابور يساراً واختفى خلف نقاية
منجم وبعض الأبنية . ونجا صوت وقع الأقدام الزاحفة . ثم عاد
الصوت من جديد ، لكنه جاء في هذه المرة من جهة اليمين . وألقت
اجزوما ثمة طابورا آخر من الرجال ، فنظر إلى جوهانز .

فقال جوهانز : « نوبة الليل » .

وزحف الرجال خارجين عبر البوابة محاطين بالاندونا ، ويقود
مسيرتهم الاندونا . وكانوا يشبهون تماما رجال الطابور الذى دخل .
بيد أنه كان ثمة شيء آخر فى هؤلاء الرجال . . شيء ما غريب عن
الطابور الذى دخل . ونظر اجزوما عن كثب يحاول إدراك ذلك
الشيء ، بيد أنه لم يكن ثمة ما يمكن إدراكه ، ومع أنه كان
موجودا ، إلا أنه لم يستطع اكتشافه . واختفى الطابور عند منعطف
الطريق ، وبدأ صوت وقع الأقدام يخفت ، إلى أن اختفى . وقال

جوهانز: « انتظر هنا » ومضى إلى البوابة . وهناك ، خطا واحد من الاندونا إلى الأمام ، ورفع جوهانز ذراعيه وأبقاهما ممدودتين ، فتحسس الاندونا جيوبه ، ثم سار جوهانز خطوات بعده واختفى خلف مبنى منخفض .

وجاء رجلان من البيض ، كل منهما فوق دراجة بخارية إلى منعطف الطريق ، ففتح الاندونا لهما البوابة وعبراها بدراجتيهما . ووصلت بعد ذلك ثلاث سيارات عبرت البوابة الواحدة تلو الأخرى ، ثم جاء جوهانز وقال له :

- الرجل الأحمر لما يأت بعد .. سنتظر هنا .

ومن مكان ما خلف البوابات دوى انفجار أعقبته دمدمة ، فقفز اجزوما قائلا : « إنه مكان غريب » .

- ستتعلم أن تعرفه .

واندفعت دراجة بخارية حول منعطف الطريق وانطلقت بسرعة تجاه البوابات ، فقال جوهانز :

- ذلك هو رجل الأبيض .

وفرمل الرجل الأبيض دراجته فانزلت مسافة عشر ياردات كاملة قبل أن تتوقف تماما . ونهض الرجل الأبيض من فوق الدرجة وهو يضحك . كان طويلا عريضا مثل جوهانز ، لكنه كان أصغر منه سناً ، كما بدا أقوى ، وكانت آثار الضحك بادية على وجهه ، ولعلت عيناه في مرح وقال :

- من هناك ياجونز ؟ . من ذلك الذى يشرف على العمال وأنت

هنا ؟

طللت عليهم .. وكل شيء على مايرام .

- يا للعجب ! إنك مفق يا جوهانز . وخبطة على صدره
وضحك .

وقال جوهانز وظل ابتسامة يعبر وجهه : « الشرطة حطمت كل
شيء » .

وبكفيه ضرب الرجل الأبيض فخذه وضحك . وفجأة توقف
ونظر إلى اجزوما . وهنا صاح أحد الرجال البيض عند باب الغرفة
التي سودها الدخان :

- هيا يا كريس .

فرد عليه كريس صائحا : « أنا قادم » .

وعاد يدير عينيه في اجزوما ويتفحصه عن كذب .. ثم أحنى
رأسه ورفع ذقنه وقال : « ومن هذا ؟ » .

ورد جوهانز : « يدعى اجزوما » .

وسأل كريس ورأسه مائل : « يابو ؟ » .

فقال اجزوما : « يابو » وابتسم .

وبادله الرجل الأبيض الابتسامة وفجأة انطلقت قبضة يده وهوت
بشدة على صدر اجزوما ، فالتفت عيناه ، وتراجع إلى الخلف بطريقة
غريزية ، ورفع ذراعيه وتكورت كلتا يديه في قبضتين شديتين ،
وبسرعة أمسك الرجل الأبيض بيديه ، ولعت عيناه وقال :

- آسف يا اجزوما ، أردت أن أختبر رجولتك « وربت على كتف جوهانز بمودة قائلا « هذا الشخص امرأة . لا يكون رجلا فقط ، إلا حين يكون ثملا . . مضبوط ؟ » .

ومد كريس يده ، ويتردد صافحه اجزوما . وفتش كريس في جيبه فوجد علبة سجائر أعطاها لجوهانز وقال :

- اقتسمها مع اجزوما . ويمكن أن تدخله ، سأفهمهم مع الرجل الأحمر .

وصاح الرجل من الكوخ المسود من الدخان ثانية : « هيا ياكريس » .

فصاح كريس : « قادم » وسار ناحية البوابة .

ونادى جوهانز « اسمع يا أبيض » .

وتوقف كريس واستدار .

- قل لذلك الرجل عند البوابة أن يسمح لاجزوما بالدخول .

فقال كريس : « وهو كذلك » .

ودخل البوابة وتكلم مع الاندونا الواقف بالبوابة ثم انضم إلى الرجال البيض في الكوخ المسود من الدخان .

وقال جوهانز لاجزوما : « هيا . . الأمور الآن على مايرام » .

- ولكن أين الشخص ذو الرأس الأحمر ؟ لقد قلت إنى سأشتغل لديه .

- حين يقول ذلك الشخص إن الأمر على ما يرام ، فهو كذلك ، لأنه صديق حميم للأحمر . . هيا .

وقاد جوهانز الطريق ودخلا البوابة ، وهنا أمسك الاندونا بذراع
اجزوما فانتزع منه ذراعه .

فقال له جوهانز : « لابد أن يفتشك . . هذه هي التعليمات » .

ودفع الاندونا بذراعي اجزوما عاليا ، وقام هذا بمدحهما مثلما
فعل جوهانز ، فقد رآه يقوم بذلك . وتحسس الاندونا جيوبه ثم أوما
له برأسه . أنه في الحقيقة لم يفحص . . ولكنها التعليمات .

وابتسم جوهانز وغض من بصره حين نظر إليه اجزوما . وفجأة
ابتسم اجزوما كذلك ، ثم مضيا بعيدا .

وقال اجروما : « يعجبني رجلك الأبيض » .

فقال جوهانز : « هو إنسان طيب » .

وسأل اجزوما : « هولندي ؟ » .

- أجل . ورجلك قادم من وراء البحار . تعال من هذا

الطريق .

وقاد جوهانز خطى اجزوما إلى نافذة زجاجية صغيرة بها فتحة .

ثم نقر على قاعدة هذه النافذة فظهر رجل أبيض .

وقال الرجل الأبيض : « نعم ؟ » .

فقال جوهانز : « معي نقر جديد » .

- لمجموعتك ؟ .

- لا . . للرجل الأحمر . . رئيس عمال .

- الأحمر لم يأت بعد .
- رجلى الأبيض قال ذلك .
- تعنى رئيسك ؟ .
- رجلى الأبيض .
- وحملق رجل النافذة فى جوهانز ، فبادل جوهانز الحملة فشمه
- رجل النافذة ، حول ناظره إلى اجزوما .
- ما اسمك ؟ .
- اجزوما .
- أين جواز مرورك ؟ .
- وناوله اجزوما الجواز ، وانصرف الرجل ، ثم عاد بعد فترة من
- الوقت بقطعة من ورق صلب زرقاء اللون ، ودفع بها إلى اجزوما
- قائلا « احرص عليها تماما » .
- وتناول اجزوما قطعة الورق الصلبة وأخذ ينظر فيها ، لكنه لم
- يستطع قراءة ماكتب عليها . وكان ما كتب هو :
- تصريح للوطنى اجزوما قائد جماعة السيد بادی أوشيا
- وسأل اجزوما : « وجواز مرورى ؟ » .
- وأجاب رجل النافذة « بعد العمل » ثم انصرف .
- وتبع اجزوما جوهانز وسارا حول المبنى إلى مكان فيه مجموعة

من رجال كانوا يحملون عربات بالرمل ثم يدفعونها . وكان فى حراسة هذه الجماعة التى تبلغ الخمسين اثنان من الاندونا ورجل أبيض .

وقال جوهانز لاجزوما : « ستعمل هنا اليوم » .

وأخذه جوهانز إلى الرجل الأبيض وأبلغه أن اجزوما رئيس جديد لعمال الرجل الأحمر . لكن اجزوما لم يشعر بميل تجاه الرجل الأبيض . كانت عيونه تشى بأنه واحد من أولئك البيض الذى يحبون ركلك ودفئك وسبك .

وحين انتهى جوهانز من التوضيح جذب اجزوما وانتحى به جانبا وقال له : « هذا الرجل لا يتمتع بالطيبة . لكلك ستبقى هنا اليوم فقط ، غير أن كل شىء سيكون على مايرام . وعليك ألا ترد عليه فيما لو أغضبك . وهذا الشخص الواقف هناك سيصحبك عندما يحين موعد تناول الطعام . والآن على أن انصرف يا اجزوما . . أتمنى لك حظا طيبا » .

وراقب اجزوما جوهانز وهو يتعد ، وشاهده يصل إلى مجموعة من رجال كانوا ينتظرونه عند باب مصعد المنجم ، وناولوه أحدهم غطاء رأس مثبت به مصباح ، أضاءه جوهانز ، ووضع الغطاء فوق رأسه ، ثم لوح للرجال بالاتجاه نحو المصعد ، ولحق بهم ، وانطلقت صافرة فتحرك المصعد هابطاً إلى أن اختفى عن الأنظار مخلفا وراءه فراغا كبيرا فى المكان الذى كان يشغله . وكان اجزوما يعلم أن ذلك لابد أن يحدث . ومع ذلك أحس أنه صدم ، ودق قلبه بعنف ، وابتلت يدها بالعرق .

- يا هذا .. أنت ! .

ووثب اجزوما ، ونظر إلى الرجل الأبيض الذى اتقدت عيناه
غضباً .

- ادفع هذه .

وتطلع اجزوما إلى الرجل الأبيض ثم إلى الشاحنة المحملة ثم
رفع ناظريه إلى المنحدر الشديد الذى يقع على امتداده الخط
الحديدى ، ثم ارتد بصره إلى الرجل الأبيض . واحتج أقرب اندونا
إلى اجزوما همسا ، وتوقفت الزمجرات فى حلق بضة رجال كانوا
على مسافة أبعد .

وهمس رجل : « إنه لا يعرف الطريقة » .

وهمس آخر : « هذا عمل رجلين » .

وصاح الرجل الأبيض : « اخرسا » .

وتوقفت الهمسات والدمدمة .

وتعجب اجزوما .. لم هو حائق على ! ثم سار متمهلاً نحو
الشاحنة ، فتنحى الرجلان اللذان كانا يتويان دفعها جانبا . واستجمع
اجزوما قواه قبالة جانب الشاحنة ، ثم وجه بصره ناحية الرجل
الأبيض . وكان فى عينى هذا الرجل وميض غريب . ورأى اجزوما
خلف الرجل الأبيض تماماً رجل جوهانز الأبيض وواحداً آخر . وكان
لهذا الآخر شعر أحمر . نعم .. هذا هو الشخص الأحمر .
وارتسمت على وجهى هذين الرجلين تعبيرات غريبة . لكنها لم تكن
نفس التعبيرات المرتسمة على وجه الرجل الآخر الذى أمره بدفع
العربة . وزغق فيه الرجل الأبيض « هيا » .

ودفع اجزوما الشاحنة فتحرك جزؤها الأعلى لكن العجلتين
بقيتا فى نفس موضعهما .

وهمس رجل آخر فى غيظ : « اخفض » .

لقد بقى الطرف الذى دفعه يتحرك إلى الامام ، وأخذت العربىة
تميل ، وأيقن اجزوما أنها ستقلب فجذبها . وكان أن تحركت
العجلات إلى الخلف ، ولكن العربىة بقيت مائلة إلى الامام . . إن لم
يقم بعمل شىء ما سريعا فستقلب العربىة ويلقى بالرمل فوق الخط
الحديدى . ورأى اجزوما النظرة المرتسمة على وجه الرجل الأبيض
ويريق عينيه وبسمة التشفى على شفتيه . وهمس اجزوما «
خنزيرا ! » واستجمع قواه ومد رجله اليسرى إلى الامام حتى اندفع
محور العجلتين نحو قصبة رجله ، عندئذ مال إلى الخلف وجذب
بكل ما لديه من قوة جبارة . وأحس بجلد ساقه يتمزق ، وأن دما
حاراً يسيل إلى كاحله . وتصلب فكاه وجذب بطريقة أشد ، وفجأة
عادت العربىة إلى وضعها الصحيح وانسابت حبات العرق على
جبينه ، وتنفست زمرة المشاهدين الصعداء بشدة ، وابتسم اجزوما
رغم الألم الذى شعر به فى ساقه ، ثم انحنى ووازن نفسه وأخذ
يدفع العربىة التى تحركت ببطء فوق القضبان . وصدرت ضحكات من
كل ناحية ، ضحكات تتسم بالعصبية . وحدث اجزوما نفسه . .
الأمـر سهل لو تعرف الطريقة .

- اجزوما .

وتوقف اجزوما واستدار . . وكان ذلك هو رجل جوهانز
الأيض . وتكلم الرجل وأقبل رجلان آخران وقاما بدفع العربىة .

وقال كريس : « تعال هنا » .

وأخذ اجزوما نفسا عميقا ، ودق قلبه بعنف ، وآلمته ساقه ،
وأحس بضغط جبهته وأمسك كريس بذراعة ، وأحس اجزوما بأصابع
الرجل الأبيض ترتعش . وكان فى عيني الرجل الأبيض رغبة شديدة
فى الاقتتال .

وابتسم اجزوما وقال : « كل شيء على مايرام » .

فقال كريس وهو يتطلع إلى الرجل الأبيض الذى طلب من
اجزوما أن يدفع العربة : « أنت رجل قوى يااجزوما .. ها هو الرجل
قوى الأحمر .. وهو أيضا رجل جدا . هل أصبت ؟ » .

- إنه جرح بسيط فقط فى ساقى .

- أسمح لى أن أراه ؟ .

ونزع اجزوما بنطلونه وكشف عن الجرح الدامى . فقال كريس :

- سيأخذك الاندونا إلى حيث يمكن تضميده .

ونظر اجزوما إلى الرجل الأحمر ولم يسترح لمراه . كانت عيناه
قاسيتين كاييتين ، لا أثر للضحك فيهما مثلما كان فى عيني كريس ،
كما كان فمه صارما . واستقر فى ذهن اجزوما أنه رجل منصف وإن
كان صارما .

وكان الرجل أقصر قليلا من كريس وإن كان أعرض منه ، ذقنه
ممتدة وعيناه زرقاوان . وبسبب شعره الكث الأحمر سمى بالرجل
الأحمر . ولفترة طويلة أخذ يحمق فى اجزوما دون أن يتفوه بكلمة

واحدة . ثم التفت إلى الرجل الأبيض الذى أمر اجزوما بدفع العربة وقال له :

- هذا عاملى ، ولو كنت مكانك ما حاولت ذلك ثانية . وكان صوته عميقا وخفيضا ، ثم التفت إلى اجزوما وقال له :

- لا أستطيع أن ألوى لسانى لأتلق اسمك بطريقة صحيحة ، ولهذا اسميك روما . . . موافق ؟ .

وأوما اجزوما برأسه وساءل نفسه عما إذا كانت البسمة تعرف طريقها إلى وجه الرجل الأحمر فى أى وقت من الأوقات . وابتسم كريس لاجزوما ، ومضى الرجلان الأبيضان ، ومن مكان ما انطلقت صافرة الخامسة والنصف .

كان اليوم بالنسبة لاجزوما غريبا ، بل إنه كان أكثر غرابة من أى يوم آخر مر به . وكان ثمة صوت دمدمة وصياح وانفجارات ، واهتزازات أرضية ، وصياح دائم من رجال الاندونا وهم يدفعون الرجال إلى العمل . وكان ذلك كله النظرات المؤلمة والقسوة التى ثمة فضلا عن تبدت من ذلك الرجل الأبيض الذى أمره بدفع العربة وهو لا يعلم الوسيلة إلى ذلك .

بيد أن كل هذه الأشياء لم تكن أسوأ مافى الأمر . كلها كانت مربكة ومخيفة ، وكانت الغرابة فى الأمر كله هى التى روعته ، وكذلك نظرة عيون الآخرين الذين كانوا يعملون معه . ولقد سبق له أن رأى هذه النظرة حين كان فى مزارع موطنه . . رآها حين كان

يرعى قطيعه ، وحين أقبل كلب بين القطيع وأخذ ينبح . لقد كانت عيون هؤلاء الرجال كعيون الأغنام التى لم تعرف مكاناً تفر إليه حين نبح الكلب . وكان هذا ما روعه .

وعندما أقبل لورى تواب الرجال مبتعدين عن الطريق وجروا كالخراف . وكان الاندونا ، فضلاً عن ذلك ، يشبه الراعى يحمل رمحا فى حين جلس الرجل الأبيض متشابك اليدين .

ومع واحد آخر دفع العربة فوق المنحدر . وكان الممر الذى لابد أن يسير فيه ضيقا ، وكان من الصعب أن يحفظا توازنهما جيدا ، وصاح الرجل الأبيض : « أسرع » ووالى الاندونا الصياح . وراحت العربات الصغيرة المحملة بالرمال الناعمة الندية تدفع واحدة وراء الأخرى فوق المنحدر إلى حيث يتكون مستودع جديد لنفايات المنجم .

ولكن كلما أسرعوا فى نقل الرمل ، أسرعت الكومة فى النماء .. شحنة عربة تمضى وشحنة عربة أخرى تقبل من جوف الأرض .. وشحنة عربة أخرى تمضى وشحنة عربة أخرى تقبل وأخرى وأخرى ، وهكذا استمر الحال طوال اليوم بلا انقطاع .

ولهث الرجال وأحمرت عيونهم ، وسالت حبات العرق على جباههم ، وتصلبت عضلات أيديهم من الألم وهم يصارعون كومة الرمل الناعم الندى . لكن الرملبقى كما هو . عربة تأتى من باطن الأرض ، وعربة تصعد لتكوم نفاية المنجم . وتأتى أخرى وتمضى أخرى .. طوال اليوم . ويسبب عرقهم ولهائهم ، ويسبب أحمرار عيونهم وخواء نظراتهم المكددة لم يكن ثمة شئ يرى .

لقد كانت الكومة فى الصباح كبيرة للغاية وهى الآن على نفس الحال ، لقد بدا أن نفاية المنجم لم تتم هى الأخرى . وكان هذا ما أفزع اجزوما . . رؤية عدم جدوى عمل الفرد . . هذا الإحباط الذى ينتاب الفرد بسبب الرمل الذى دائما رطبا ودافئا ويسبب نفاية المنجم التى لا تنمو ولا تزيد . . ويسبب عيني الرجل الأبيض القاسية . . ذلك الرجل الذى كان يستحثهم على الإسراع .

وأدى به هذا إلى شعور باليأس والقلق . . لقد عمل بنشاط رائد ، معتصرا قوته خلف العربة المعبأة ، لاهثا خلف العربة الفارغة ، ومتطلعا باهتمام إلى النفاية لمعرفة أنها قد نمت وكبرت ، ومراقبا الرمل المجروف من الأرض للاطمئنان على أنه يتناقص . . لكنه كان كما هو ، نفس الشيء طول الوقت . . لاشيء يتغير . بيد أن حوله فى كل مكان كانت الضوضاء المروعة المفزعة والصافرات المنطلقة . . وأصوات الانفجارات وهسيسها من باطن الأرض . . وهذه الأشياء التى كانت ترتطم برأسه حتى احمرت عيناه مثل عيون الآخرين .

وحين أطلقت الصافرة تعلن التوقف عن العمل لتناول الطعام ، نادى أحد الرجال اجزوما . وكان المنادى واحداً من الرجال الذين يعبثون العربات ، وقال لاجزوما : « إننى نانا ، ولسوف تتناول طعامك معى » .

ووجدا بقعة ظليلة وجلسا تحتها على الأرض . وفى كل مكان وجد الرجال أمكنة لهم تناولوا فيه طعامهم . وكان لكل واحد منهم نفس النوع من العلب الصغيرة ، وفى كل علبة قطعة من عصيدة جريش الذرة مطهوة مع قطعة من لحم وكسرة خبز مخلوط خشن

جداً ، فتحولت إلى كتلة صلبة . وقسم نانا طعامه بينه وبين اجزوما .
ومسح اجزوما جبينه واستند إلى الجدار المموج للكوخ المسود من
الدخان . وكان على اليسار نفاية منجم شديده الضخامة ، وعلى يده
اليمن كانوا يفرغون الرمل طوال الصباح دون أن يروا نتيجة لذلك .
وتابع نانا عيني اجزوما وقال له : « الأمر يستغرق وقتاً طويلاً » .

- أمثل هذا يحدث كل يوم ؟

- كل يوم .

- أنه مكان غريب .

- العمل شاق حين تكون مستجدا ولكن لا بأس به . وهو يسير
على هذه الوتيرة مع الشخص الجديد . . في البداية تشعر بخوف
شديد لأنك تعمل وتعمل دون أن ترى نتيجة لعملك . وأنت تنظر
وتأمل ، وكلما نظرت لا ترى شيئاً ، وهذا يؤدي إلى الخوف ولكنك
في الغد تفكر . . حسن ، ليس هناك شيء يمكن التطلع إليه ، وأنت
لن تطيل النظر كثيراً ، وعندئذ يقل الخوف ، بل إنك حتى بعد الغد
يقل تطلعك ، ثم يقل أكثر بعد ذلك ، وفي النهاية تكف عن النظر
كلية . وحيث يولى الخوف عنك . . وهكذا يسير الحال .

واعترض اجزوما : « لكن عيون الرجال » .

- عيون الرجال ؟

- أجل . . لقد شاهدتها . . أنها تشبه عيون الغنم .

ونظر نانا إلى اجزوما وابتسم ابتسامة ألانت وجهه ، وقللت من
التجاعيد التي تحيط بفمه ثم قال : « ألسنا جميعاً أغناماً تتكلم ؟ » .

ولفترة من زمن راحا يأكلان فى صمت . وحين فرغا من طعامهما تمدد نانا على الأرض وأغمض عينيه . ثم أخذ الآخرون يتمددون الواحد تلو الآخر ، إلى أن انتهى الأمر بتمددهم جميعا .

وقال له نانا : « تمدد أنت كذلك ، فالتمدد يريح جسدك » .

واستجاب اجزوما .

- أفضل .. هيه ؟ .

- أجل .

- دع جسدك كله يرتخى تماما .

ومن مكان ما راح رجل يدندن بصوت خافت ، وانضم إليه آخرون . وكانت الدندنة خفيفة رقيقة رتيبة . واشترك اجزوما معهم . وأدى به هذا إلى شعور أشد بالارتياح .. لقد أحس أن التقلص أخذ فى الزوال عن جسمه ، وأن ألم ظهره بدأ يقل ، فأغمض عينيه . وغطت الدندنة على الضوضاء والهسهسة وأصوات الانفجارات . وفتح اجزوما عينيه وتطلع إلى السماء .. لقد كانت زرقاء من فوقه - وهى الآن خضراء فى موطنه فى الريف ، وهناك القطيع على سفح التل . وابتلت عيناه فجأة فجففهما بظهر يده بشدة . وسأل صاحبة بصوت مرتفع :

- وكيف الحال تحت الأرض ؟ .

وأدار نانا رأسه والتفت إليه قائلاً : « البعض يحبون المكان والبعض لا يحبون » .

وانطلقت الصافرة ، فقد انتهت نصف الساعة ونهض الرجال و
(تمطعوا) وفي ثاقل عادوا إلى عملهم . العربات تعباً بالرمل الناعم
الرطب ، والرجال يدفعونها ويفرغونها . وتخرج عربات أخرى من
جوف الأرض محملة كذلك بالرمل الناعم الرطب الدافئ . . وهكذا
يمضى العمل .

حين أخذت الشمس تميل نحو الغروب ، خرج الرجال الذين
دخلوا باطن الأرض في ذلك الصباح . . كانوا أمواجاً تخرج من
أحشاء الأرض . وشاهدتهم اجزوما وهم قادمون يظللون أعينهم
بأيديهم يحجبون عنها ضوء الشمس . فراح يسأل نانا :
- هل الدنيا مظلمة تحت الأرض ؟

نظر إليه نانا وضحك : « أعتقد أن هناك شمساً ؟ »

ودفع اجزوما جاروفه بقوة ، فأحدث ارتطامه بالرمل الناعم
الرطب الدافئ صوتاً . لقد ظل يدفع العربات في النصف الثاني من
يومه ويعبئها بالرمل ، وكان يطوح في قوة إلى العربة بعبوة الجاروف
من الرمل .

- اجزوما !

وكان جوهانز يشق طريقه بين حشد من الناس . ونظر اجزوما
إلى الرجل الأبيض الذي كان مستولاً عنهم وانتظر .

وقال جوهانز : « إيه . . كيف تسير الأمور ؟ »

وقال نانا لجوهانز الذي لحق بهما : « هذا الرجل قوى » .

وصاح الرجل الأبيض المستول : « وليامسن ! » .
وقال جوهانز بلا مبالاة : « الأحمر يريدك » .
ورفع اجزوما بصره صوت سمع حين جوهانز . . لقد عادت رنة
التبجح إلى صوته . وفى عينيه بدا وميض العجرفة كذلك ، وفكر
اجزوما . . ولكنه كان تحت الأرض ! .
وقال الرجل الأبيض غاضبا : « كان ينبغي أن تأتى إلي أنا » .
وسأل جوهانز بازدراء : « لماذا ؟ » .
وتوجه الرجل الأبيض إلى جوهانز وسأله : « مع من
تتكلم ؟ » .
وأجاب جوهانز وهو ينظر فى وجه الرجل الأبيض « معك
أنت » .
ووقفوا يحملق كل منهما فى الآخر ، وقد احمر وجه الرجل
الأبيض من الغضب . أما جوهانز فقد ارتسمت على شفثيه ابتسامة
تسم باللامبالاة فبدت وكأنها تقول « اسمى جيه . ب . وليامسن ،
ولسوف أسحقك ياخسيس » . ثم استدار الرجل الأبيض ومضى .
- وقاحتك ستوقعك فى مشكلات ياكافيرى .
وقال جوهانز ضاحكا : « تعال يا اجزوما » .
وطوح اجزوما الجاروف بعيدا وتبعه . واصططحبه جوهانز إلى
سقيفة طبيب المنجم ، وهناك كان كريس وبادى .
وصاح كريس فجأة : « مرحى يا اجزوما ! . كيف سارت
الأمور معك ؟ » .
وأجاب اجزوما : « حسنة » .

وكان بادی الرجل الأحمر صامتا .

وقال الطبيب : « تعال هنا يا اجزوما » .

وخلع اجزوما ملابسه واستلقى على طاولة ، وراح الطبيب يفحصه ، فى حين وقف كريس وبادى وجوهانز يراقبونه - وحين فرغ الطبيب طلب من اجزوما أن يرتدى ملابسه وقال : « قوى كالثور ، لكن لا يزال نزوله فى الغد أمرا مخالفا للقواعد » .

فقال كريس : « سيرعاه جوهانز » .

- هذا ممكن .. لكنكما دائما ما تخرقان القوانين ، ويوما ما ستواجهان مصاعب . لكن ماذا تقول أنت أيها الأيرلندى ؟ .

فأجاب بادی باقتضاب : « سيكون على ما يرام » .

فسأل الطبيب : « أتود النزول تحت الأرض يا اجزوما ؟ » .

ورد اجزوما بلهفة : « أجل » .

فضحك الطبيب قائلا : « وهو كذلك » .

وخرجا .

- اجزوما ! .

والتفت اجزوما إلى بادی وانتظر .

- اذهب لتغتسل ، ثم عد إلى قبل أن تمضى .. فاهم ؟ .

وأوما اجزوما برأسه . ومشى الرجلان الأبيضان إلى الكوخ الصغير حيث يوجد الرجال البيض الآخرون . وأرشده جوهانز إلى مكان اغتسال عمال المنجم المحليين ، وأراح حفنة من الرجال عن

الطريق وهو يجار « اسمى جيه . ب . وليامسن » . وهز اجزوما رأسه وتبعه . وأفسح الرجال لهما مكان ، فاغتسلا ثم خرجا ، وانتظر اجزوما ريشما يذهب جوهانز إلى الكوخ ليدعو بادی . وحين أتيا كان كل من بادی وكريس قد اغتسل .

وقال كريس لجوهانز : « أحضر الدراجتين » .

وقال بادی لاجزوما : « هيا » .

وسار اجزوما وبادی إلى البوابة ، وعلى بعد مسافة قصيرة منهما سار كريس . وكان جوهانز في المؤخرة يدفع الدراجتين . وكانت الشمس تختفي وراء الأفق . وعند منعطف الطريق أقبل صف من رجال يزحفون إلى البوابة ، يقودهم رجال من الاندونا ويحيطون بهم من الجانبين . وارتفع صوت وقع أقدامهم الزاحفة على الأرض . . ترامب . . ترامب . . ولما دخلوا البوابة اتجهوا يسارا وأختفوا . بينما خرج صف آخر يسير في إتجاه المجمع السكنى .

وقال بادی لاجزوما « لو اشتغلت معى فلا أريد حماقات . العمل تحت الأرض شاق . لكن الأمر سيصبح على ما يرام لو كنت عاملاً جيداً . إنك سوق تتولى أمر العمال المحليين الآخرين . ستجعلهم يشتغلون ، وهذه وظيفتك . وحتى تكون قائداً قديراً لا بد أن تكون عاملاً جيداً . فلو كان عمالك رديئاً فسوف تكون رئيس عمال سيئاً . وأحياناً ما يكون العمال كسالى ، وعندئذ لا بد من استخدام قبضة يدك ، ويجب أن تركلهم ، هذا هو الوضع هنا . ولهذا السبب أريد رجالاً قويا ، لكن القوة وحدها لا تكفى ، لا بد أن تكون قائداً ، فالرجال لا ينقادون فحسب إلا لإنسان لا يعرف الخوف قبله ، فكن ذلك الرجل . سيعمل تحت رياستك خمسون رجلاً .

وسيحاول البعض اختبارك ليروا ما إذا كنت لين العريكة . وهؤلاء ينبغي سحقهم بقبضتك ، وإن لم تفعل فلن تكون صالحا . سيحقد البعض عليك لأنك جديد وترأسهم وأنت لا تعرف العمل ، وعليك أن تتعامل معهم ، ويجب أن تتعلم العمل بسرعة . وإذا كنت إنساناً صالحاً صرت لك صديقاً، أما إذا كنت غير ذلك أصبحت لك عدواً ، وهذا كل ما أردت أن أحدثك به . فهل هو كلام معقول ؟ » .

فأجاب أجزوما : « معقول » .

حسن جداً .

ومد بادي يده بادي يده فصافحه اجزوما ، وكانت القبضة قبضة رجلين قويين .

- أمعك نقود ؟

- كلا يا ريس .

- لا تقل لى يا ريس هنا .

وأخرج بادي من جيبيه لفة من أوراق نقدية أعطى منها ورقة لاجزوما وقال له : « لدى بعض أشياء قديمة تحت الأرض يمكنك ارتداؤها فى الصباح . وهذا كل ما فى الأمر » .

ووقفوا يتظران الثنائى الآخر . ثم ركب كل من الرجلين الأبيضين دراجته ، وانطلق الاثنان . وصاح كريس وهو يلتفت وراءه : « لا تفرط فى السكر يا جوهانز » .

ولوح له جوهانز وضحك ، ثم قال لاجزوما : « هيا بنا » وأنطلقا إلى مالاى كامب .

حين وصل الاثنان إلى لياه ، كانت مجموعة من النسوة تغادر المكان . وكانت لياه تقف بالبوابة تراقب انصرافهن ويداهما في خصرها وعلى وجهها ابتسامة ساخرة وقالت :

- أهلا يا اجزوما . كيف تسير أمور العمل معك ؟ .

- على مايرام .

- أهلا يا جوهامز .

- ها أنذا يالياه ، اسمى جيه . ب . وليامسن ، وسأسحق أى خسيس . فقط أرنيه يا أخت لياه وسأسحقه من أجلك . اسمى جيه . ب . . .

وضحكت لياه وربت على يد اجزوما وقالت :

- مرة أخرى ! من أين حصل على الشراب ؟ . إنه يأتى هنا حين يكون خالى الوفاض . وحين يكون معه نقود يذهب إلى مكان آخر . أين ذهبتما يا اجزوما ؟ .

- جئنا إلى هنا مباشرة .

فقالت لياه : « ياسلام ! » .

وقال اجزوما : « كان على هذه الحال حين خرج من المنجم » .

- هذا صحيح يا أختى . إنها الحقيقة والله . إذ كان مع رجلى الأبيض تحت الأرض ، فقدم لى بعضا منه .

فسألته وهى تنظر إلى اجزوما : « أو أعجبك ؟ » .

- لا بأس به .

- لكنك تبدو بائساً .

- لست كذلك .

فقطقت لياہ بلساتها وقالت : « لا تكذب على . قلت لك إنك تكون كالطفل مع الناس » .

وسأل اجزوما وهو يتطلع بعيدا : « من هؤلاء النسوة ؟ » .

فرفعت لياہ أحد حاجبيها وابتسمت قائلة : « كلهن نسوة بائعات للجمعة . حين يتم القبض على أحد يأتين سوياً ويجمعن نقوداً من بعضهن البعض ، ويكفلن المقبوض عليه ، وكان هؤلاء النسوة هنا ليجمعن نقوداً من أجل الذين قبض عليهم بالأمس . بيد أن الشرطة تعلم هذا ، ولن تكون ثمة غرامات » .

فقال اجزوما ونظره يتجه إلى نهاية الشارع : « فهمت » .

وتأملته لياہ لحظة ، ثم التفتت نحو جوهانز وقالت له : « ادخل .. خيلتك موجودة ولو أنها مفيدة . وقل للأم بلانك أن تعد الطعام » .

وحين انصرف ، قالت لياہ لاجزوما : « اجلس » .

وجلس الاثنان على دكة خشبية طويلة قائمة على الرصيف تجاه الحائط .

- مازلت تعتقد في قرارة نفسك أن وجود هؤلاء الآخرين في السجن كان بسبب خطأ ارتكبته .

وتعتقد أنه كان ينبغي أن أبلغهم بقدوم الشرطة يوم الأحد

للتفتيش .. هيه ؟ .

- الأمر لايعنينى .. فهذا شأنك .

- ولكنك فى قرارة نفسك تلومنى .

- من أنا حتى ألومك ؟ .

- ولكنك تلومنى . رأيت ذلك الآن فى عينيك حين أخبرتك

عن هؤلاء النسوة .. هيه ؟ .

وأدار اجزوما رأسه ونظر إلى لياه . ولفترة طويلة أخذ كل منهما

يحدق فى الآخر .

وقال اجزوما : « نعم أنا ألومك » .

- آه .. وهذا مايجعلك غير سعيد . لماذا ؟ .

- لقد كنت كريمة معى .

- ثم ماذا ؟ .

وهز اجزوما رأسه « لا أدرى ! .. لا أدرى ! .. دعينى وشأنى

يا امرأة » .

وابتسمت لياه وراحت تحميملق فى الفضاء . وبقيها هكذا فترة

طويلة . وكان الشارع حولهما مفعما بالحياة . الناس يغدون

ويروجون . والأطفال يلعبون فى مجارى المياه ، ويلتقطون قشر

البرتقال القدر ويأكلونه .

وكانت حركة ملاي كامب النابضة في الليل تسرى في كل مكان
.. دافئة .. كثيفة .. تخفق وتضطرب .. أناس يغنون .. وأناس
يكون .. وأناس يتعاركون .. وأناس يحبون .. وأناس يكرهون ..
وآخرون حزاني .. وآخرون مرحون .. وآخرون مع رفاق ..
وآخرون وحيدون بلا رفاق .. البعض يموتون .. والبعض يولدون .
- تقول إنك لاتدرى . أنا أدري يا جزوما .. أنا أدري .

ونظرت إليه ، وقد علت شفيتها ابتسامة باهتة وإن بدت نظراتها
جادة . وهمست : « أنا أدري » ثم تمالكت نفسها وتغيرت نبرات
صوتها وهي تقول :

- اصغ إلى يا جزوما ، سأحاول ثانية أن أمكنك من أن تفهم .
الحياة في المدينة على هذه الحال . أنت تصارع طوال الوقت ..
تصارع وتصارع .. في نومك وفي صحوك . أنت تهتم بنفسك فقط .
فإن لم تفعل ينتهي أمرك . ولو كنت لين العريكة سيصق كل واحد
على وجهك . سوف يسرقونك ، ويغشونك ، ويخدعونك ، ولهذا
لا بد أن تكون صلبا إن أردت أن تعيش هنا .. صلبا كالصخر .
والمال هو أفضل صديق لك . بالمال يمكنك أن تشتري الشرطي .
وبالمال تستطيع شراء إنسان ليسجن بدلاً منك ، هكذا تسير الحياة هنا
يا جزوما . قد تكون الحياة بذلك شيئاً طيباً ، وقد تكون شيئاً سيئاً .
ولكنها على هذه الحال . ولكي يعيش الإنسان هنا عليه أن يفهمها .
إنها ليست على هذه الصورة في المكان الذي قدمت منه . أما هنا ،
فهى هكذا .

وساد بينهما ثانية صمت طويل . وظهرت النجوم ساطعة تتلألأ
فى السماء ، وعلا القمر فى الفضاء ، وكان يمضى مسرعاً فى طريق
درب التبانة راحلاً تجاه الشرق . وأدارت روزيتا التى تسكن فى
الجانب الآخر من الطريق حاكبها ، وخرجت إلى الشرفة تهز ردفها
الكبيرين . وجاء صوتها عبر الطريق يحى لياه « هالو » ورفعت لياه
بصرها مروعة وكذلك اجزوما .

وقالت لياه لاجزوما : « يجب أن تدخل ، سيكون الطعام
معداً » .

فقال اجزوما : « رجلى الأبيض أعطانى جنيها ، هل لك أن
تأخذى شيئاً منه نظير طعامى ومبىتى هنا ؟ » .

ونفضت لياه وحدقت فيه من عل ، ثم أشاحت عنه بوجهها
وقالت فى غلظة :

- كلا ، يمكنك أن تسدد لى حين يدفعون لك بطريقة لائقة ،
هيا .

ودخل الاثنان . . وكانت النار موقدة فى صفيحة زيت برافين
مشفوبة الجوانب وسط المطبخ ، وحولها جلس على الأرض الأم
بلانك ودادى ورجل غريب لا يعرفه اجزوما ، والمرأة البدينة المتقعة
التي تسمى ليزا السكيرة ، ولينا النحيلة الملونة ، وجوهانز ، وامرأة
أخرى كانت أيضاً غريبة . ولم يكن مغيب العقل من هؤلاء سوى
دادى وجوهانز وليزا السكيرة .

وقال دادى : « آه .. اجزوما ياولدى .. ستقدم لى شرابا ..
أو ليس كذلك ؟ لقد وعدتني بذلك » .

وعلقت الأم بلانك وهى تدفعه : « إنه ثمل » .

وقال جوهانز : « اجزوما الخسيس » .

وقالت لينا : « اخرس يا جوهانز » .

فقال جوهانز : « خسيس » وحك وجهه بمفاصل أصابعه بعد أن
كور يده .

وابتسمت لينا فى تسامح وكانت تبدو وسيمة جدا وهى مفيقة .
ونظر إليها اجزوما . وكان من الصعب التصديق بأن هذه هى نفس
المرأه التى شوهدت تهذب يوم السبت .

وقالت لياه وهى تشير إلى الرجل الغريب : « هذا صمويل ،
وتلك هناك .. ميزى » .

وأوما اجزوما برأسه للرجل والمرأة وكانت صغيرة ، بيد أنها لم
تكن وسيمة وإن كانت عيناها تضحكان على الدوام ، وهو ما يلفت
أنظار الناس إليها .

وقالت الأم بلانك وهى تنظر إلى اجزوما : « اليزا ليست هنا » .

فقالت لياه : « أمسكى عليك لسانك يا عجوز » .

فضحكت الأم بلانك قائلة : « توجد أخريات غيرها هنا . هيه
يا اجزوما ؟ . قد أكون عجوزا ؟ . قد أكون عجوزا لكن الجواد
المتمرس شىء جيد أيضا . أليس كذلك يا اجزوما ؟ » .

فقلت لياه : « أمسكى عليك لسانك وقدمى للرجل طعاما » .

نهضت الأم بلانك ضاحكة ، وراحت تغرف الطعام ، فغرفت لكل واحد صحنًا . أما اجزوما فقد بقى يتطلع لينا . فقلت له التى كانت تتابع نظراته :

- إنها إنسان غريب . لها ابن يتعلم فى المدرسة ، ولسوف يكون مدرسا عما قريب . ولايتها بيت جميل وزوج يشبه الرجل الأبيض . ولكنها هنا تعمل فى حانة امرأة سوداء لارخصة لها لقاء شئ بسيط من الجعة والطعام . غريبة .. هيه ؟ » .

وطأطأت لينا رأسها ، وامتلأت عيناها بالدموع . وبسرعة استدارت لياه نحوها وضمتها بين ذراعيها كما لو أنها كانت طفلة . وتعلقت بها لينا ، فأخذت لياه تميل بها يمنا ويسرة ، ثم راحت تحادثها برقة وقالت :

- لم أكن أقصد أن أكدرك يا صغيرتى ، وأنا آسف لك . الأمر هين .. هين .. فكفى عن البكاء . أنت تعلمين أننى أحبك ، ولكنه ذلك اللسان البذئ الذى يجعلنى أتفوه بمثل هذه الأشياء . كفى الآن بكاء ، وجففى هذه الدموع .

وقالت لينا وهى مازالت تبكى : « ليس الخطأ خطأ أبنائى . لقد حاولوا مساعدتى » .

وقاطعتها لياه : « كفى .. كفى .. لا تقولى شيئا ، فالأمر لا يعينهم ، والخطأ خطئى أنا . لقد تلبسنى شيطان جعلنى أهزأ بك .. فهل تسامحيننى ؟ » .

ولان وجهه لياه واتسم بالحنو وهى تنظر إلى المرأة الملونة الضئيلة . وأومات لينا برأسها وشدت على يديها .

- حسن ، والآن تناولوا ، طعامكم ، كلكم .

وأحاط جوهانز رقبة لينا بذراعه وجذبها نحوه . وحاولت هى أن تقاومه ، لكنها كانت كالريشة بين يديه ، وضحك الآخرون حين رفعها وأجلسها فوق حجره .

وتساءل اجزوما وهو متجه بنظره إلى لياه: « لماذا فعلت ذلك ؟ » .

فقالت لياه: « أنت أردت أن تعرف » .

فقال فى نبرة غاضبة: « أنت قاسية » .

وهزت لياه كتفها استهزاء وانصرفت . ودار الحديث فى الغرفة همساً . وحين انتهى اجزوما من طعامه غادر الغرفة . وفجأة أحس بالاستياء والتعاسة فذهب إلى الشرفة وأخذ يتفرج على ما فى الشارع ، وأنصت إلى ضوضائه ، حاول التعرف على أصحاب هذه الأصوات . وتساءل ترى أين تكون اليزا الآن ، وماذا تفعل ؟ وكيف حال الأهل فى موطنه ؟ ، وماذا يفعلون ؟ . ثم ضحك ، فمن الطبيعى أن يعرف ما يفعلونه الآن . فأهله وكل الناس الآخرون لا بد وأن يكونوا الآن قابعين أمام نار ضخمة متاحة للجميع ، ولا بد أنهم يتجاذبون أطراف الحديث ويرقصون . ولا بد أن آخريين يشدون ، ولا بد أن الشبان يلهون ، والكبار يشاهدون . ومن الطبيعى أن يعلم ما يفعلونه الآن فى موطنه .

لكن الأمر هنا مختلف ، لا يثق أحد . لياه قالت أن الحياة هنا صراع دائم . وجوهانز يخشى أن يكون مفيقاً . ودادى لا يفيق أبدا . والأم بلانك تتكلم بصوت عال وكأن بها مس من جنون . والمرأة النحلية لينا شخصية حين تسكر ، وحين تفيق تصبح إنسانا آخر ، وتكون شديدة التعاسة .

واليزا . . اليزا الجميلة التى تستطيع أن تدرك الكثير جدا غمضة عين . . هى أيضا إنسان غريب جداً طالما تعيد النظر إليها مرة أخرى . هو يشعر أنه يحبها ويشتتها ، ولكن شعوره هذا يجعله تعيسا ، ألم تقل لياه إنها تريد إنسان يستطيع قراءة الكتب وارتداء ملابس البيض والتحدث بلغتهم ؟ . ولكن لياه قالت أيضا أن اليزا تشتتها وإن عليه أن يقتحم عرينها عنوة . ولكنه لن يفعل ذلك أبدا . وهذا العائق بينهما منعها من الإقبال عليه بمحض إرادتها . لقد استقر رأيه وهو يحملق فى درب التبانة على أن وسائل المدينة غريبة حقا .

لقد قال القدامى أن من ماتوا يصيرون نجوما . وتساءل إن كانت أمه نجما ، وإنها الآن فى السماء ، وإنها تستطيع أن تراه « أمى . . أمى . . أنت هناك بين النجوم ؟ أو يمكنك أن تريتنى ؟ » .

وضحك ضحكة خافتة . يا لحمقى وأنا أتحدث إلى النجوم ! . وذكره ذلك بكلبه الذى كان ينبج دائما على القمر . وكأن القمر يابه لنباحه .

وخرجت ميزى من الغرفة ولحقت به وقالت له : « أما زلت غاضبا ؟ » .

والتفت إليها .. وكان يرتسم حول فمها إمارات دعابة ، وكانت
عينها الضاحكتان لامعتين وقال : « لا » .

- أتحبها بشدة ؟ .

- أحب من ؟ .

- أعتقد أن هذا سبب غضبك .

- لا أفهم ما تقولين .

- لايهم . لياه أخبرتنى أنك جديد في المدينة . كم مضى عليك
هنا ؟ .

- جئت منذ أربعة أيام .

- من أين ؟ .

وكان صوتها أجشاً وغليظاً ، ولكنه مع ذلك كان يتسم بدفء
جذاب .

- من الشمال ، فيما وراء روتبانسبرج . وأنت ؟ .

- ولدت هنا .

- في المدينة ؟ . ونظر إليها بطريقة ملفتة فضحكت .. وأعجبه
صوت ضحكها الأجش .

- أجل .. في المدينة .

- ألم تذهبي أبداً إلى المزارع ؟ .

- أجل .

- ألا تتوقين إلى المزارع أحيانا ؟ .

- كلا .. لم أذهب إطلاقا إلى مزرعة ، ولهذا لا أشعر بحنين إليها .

- وأنت .. ألسنت بائسة كهؤلاء الآخرين ؟ .. وهز رأسه في اتجاه من هم بالداخل .

وضحكت میزی ، ورنّت ضحكاتها في الخارج عالية وخشنة وودودة ، فالتفتت إليها رءوس امرأتين ورجل كانوا يسرون عبر الشارع وابتسموا ، ولوحت لهم میزی بيدها فلوحوا لها .
وسألها اجزوما : « من هؤلاء ؟ » .

- لأدري .

ونظر إليها . لقد ولدت هنا وضحكت حين سألها عما إذا كانت تعيسة . وأمسكت بذراعيه وتشبثت بها إلى أن انتهت نوبات الضحك . ثم تطلعت إلى وجهه وجففت دموعها .

- كلا يا اجزوما ، لست تعيسة ، فأنا لا أحب التعاسة . أحب أن أكون سعيدة . وأحب أن أضحك . ، فالضحك شيء جميل .. يصل إلى صوت أناس يرقصون عن الناصية .. هيا بنا نذهب هناك .

- لا .

فجذب ذراعه بقوة وقالت في إغراء : « هيا يا اجزوما .. هيا بنا » .

- لا .

فتركت زراعته وواجهته : « أنت واقف فى انتظارها هنا ، هيه ؟ » .

- من ؟ .

- أنت تعرف من أعنى . اليزا . . ولكنها لن ترضى بك .
لست كفتا لها . تلك المرأة تحسب نفسها ملكة . . إنها تريد الناس
الذين يدخلون السيجار كالبيض ، ولديهم سيارات ويرتدون الحلل كل
يوم . هيا يا اجزوما . . لاتضيع وقتك معها . إنها سوف تشمخ
عليك لأنفها . وأنا سأريك شيئاً من اللهو ! . سأريك أن المدينة
يمكن أن تكون شيئاً جيداً . . هيا .

- إننى متعب . لقد بدأت العمل فى المنجم اليوم ، ويجب أن
أستريح .

- سوف نزيل هذا التعب . هيا .

وجذبتة من الشرفة إلى الشارع . واقترب ضجيج الناس الذين
يصفقون ويغنون . وتعلقت ميزى بذراعه ، تهز ردفها وتخطو
خطوات قصيرة رشيقة وهى تسير معه متجهين نحو بداية الشارع .
وكانت من حين لآخر تتجاوزه وهى تلف حول نفسها ، فيصدر عن
فستانها حفيف ، ثم تنحنى له فى رشاقة ، ثم ترقص مرتدة إلى
الوراء لتعلق بذراعه ثانية . وكان دفء متعة الحياة لديها من القوة
بحيث انتقل إليه . ولمعت عيناه ، وابتسم لها .

وعند ناصية الشارع وتحت ضوء مصباح تحلقت جماعة من رجال
ونساء . كانوا يصفقون بأيديهم ويضربون الأرض بأقدامهم مع إيقاع

الحركة السريعة ، ويدندنون ، وكانت إحدى النساء تغنى . وفى
وسط الحلقة اثنان يرقصان . . رجل وامرأة ، ويتبادلان الإشارات ،
ويتحادثان بلغة الحركات ، ثم يخطوان عائدتين إلى المتحلقين ، ليتقدم
اثنان آخران وسط الحلقة ، يتكلمان بأيديهما وأقدامهما وأردافهما
وغمزات عيونهما . وطوال الوقت يردد المتحلقون كلمات الإطراء
والتشجيع للراقصين . كما تغنى امرأة بصوت صاف جميل ، ويدندن
الآخرون ويصفقون ويضربون الأرض بأقدامهم ، ثم تشرق الوجوه
بالضحك والبهجة وتتمايل الأجساد .

وانضم اجزوما وميزى إلى الحلقة ، وشعر هو بالسعادة وبجانبه
ميزى بعينها الوضاءتين وأسنانها البراقة ، وكانت تصفق وتتمايل يمناً
ويسرة ، وتشجعه . وصفق هو وتمايل ، وافتر ثغره عن أسنانه ،
وزومات ميزى برأسها تعلن موافقتها .

وخطا اثنان إلى الحلقة . وبحركات آمرة دعا الرجل المرأة أن
تقبل عليه وتجتو أمامه على ركبتيها . وبترفع وأنفة رقصت المرأة بعيداً
عنه . وأمرها الرجل ثانية فتجاهلته . وحاول الإمساك بها ، ولكنها
رقصت بعيداً عنه متفادية إياه . وصفق لها النسوة فى الحلقة استحساناً
. أما هو فقد شجعه الرجال . واستجمع الرجل قوته ونهض واقفاً
تمام ، وأمر المرأة وهو يشتعل غضباً أن تجتو أمامه ، ويدرز الخوف يشع
من عينيها إزاء غضبه . وارتعدت وأخذت تتحرك إلى الوراء فخطا
الرجل إلى الأمام . وتراجعت المرأة ، وأمرها مرة أخرى ورعدة
جسدها تزداد عنفاً . ومع انكماشها من شدة الخوف ، ظلت ترفض
أن تجتو أمامه ، واندفع بعنف تجاهها ، فأجفلت وترنحت فى ألم ،

لكنها ظلت رافضة أن تستلم . وفي يأس انصرف الرجل ، فواساه الرجال الذين كانوا فى الحلقة ، فى حين شجعت النسوة المرأة على المقاومة ومع هذا كله ، كان صوت المرأة الصافى يشدو .

وفجأة عاد الرجل وراح يشب راقصاً أمام المرأة . إنه الآن يتوسل ويستعطف . لم يعد بعد يصدر أوامر . وفى استعطاف راح يجثو على ركبتيه ، ورقصت المرأة رقصة الفوز المفعمة بنشوة النصر . وانضمت إليها النسوة اللاتى كن فى الحلقة يشاركنها فرحة النصر . وشاركه الرجل الإحساس بالذل الذى لاقاه .

وتوقف فجأة رقصة الفوز . وبود راحت ترقص أمامه وتتواثب فى استعطاف كذلك ، كما راحت تجثو على ركبتيه ، وبعدها تعانقا .. وتراجعا إلى الخلف ، ليخطوا اثنان غيرها داخل الحلقة وفى وسطها .. وهكذا دواليك .

ويرفق لكزت ميزى اجزوما بمرفقها وأشارت إلى وسط الحلقة فضحك وأوماً برأسه . وانتظرا .. وحينما خلت الحلقة خطا الاثنان إلى الأمام . وحين فرغا ابتعدا قليلا عن الحلقة ووقفا يضحكان . وكان وجه اجزوما مبتلاً بالعرق ، فراحت ميزى تحفقه بمنديلها . وتنفسا بصعوبة ، ومال كل منهما على الآخر .

وسأله : « أليس شيئاً جميلاً أن تكون سعيداً ؟ » .

فقالت وهو يتطلع إلى عينيها الباسمتين : « بل إنه جميل جداً ، فلنتضم إلى الحلقة ثانية » .

فقالت له وقد أمسكت بيده : « لا .. الوقت متأخر ويجب أن تستريح . وأنا أيضاً على أن أذهب إلى عملى صباحاً » .

- فترة صغيرة فقط . . هيه ؟ .

- كلا يا اجزوما . فى البداية رفضت المجيء ، والآن لا تريد مغادرة المكان . ولكن لا بد أن تغادره ، لأن الآخرين سوف يبحثون عنك .

- أنا لست طفلاً .

فضحكت قائلة : « هيا » . . وجرت بهيذا عن الحلقة .

وكانت لياہ فى الشرفة حين عادا . وراحت تتأمل اجزوما ، ثم قالت لميزى : « جعلت الوجه المتجهم يضحك ياميزى » .

- الأمر هين ، هو يريد إنسانا يضحك ليضحك هو الآخر أيضا . . أليس كذلك يا اجزوما ؟ .

فقال مبتسما : « هذه إنسانة مريحة » .

- ورقصى ؟ .

فقالت لياہ بطريقة جافة : « هذه المرأة راغبة فيك يا اجزوما » .

فتساءلت ميزى : « وهل هذا شيء سيئ ؟ » .

فقالت لياہ : « اسأليه » .

فتساءلت ميزى وهى تتأمل لياہ بدقة : « أو تريدينه أنت ؟ » .

فضحكت لياہ وشمخت برأسها وقالت : « اسأليه عن ذلك أيضا » .

ضحكت ميزى ضحكة عريضة ومدت يدها تتأبط ذراع لياہ ، فربت لياہ يدها ، ثم مدت يدها الأخرى وتأبطت ذراع اجزوما .

وقالت لياه : « لقد جاءت اليزا » .

وهنا انتزع اجزوما ذراعه ، ولكن ميزى به ، فابتسمت لياه
وقالت : « سندخل » .

وفى أثناء دخولهم رفعت اليزا عينيها ، كان بجوارها شاب نحيل
فى ثياب مهندمة ، يبدو معتل الصحة . ثم راحت تنقل بصرها بين
اجزوما وميزى . ورأت كيف كانت ميزى تميل على اجزوما ،
فقال :
- تبدين سعيدة جدا ياميزى .

- أنا بالفعل سعيدة يا اليزا . كنت أرقص مع اجزوما ، وهو
يرقص رقصة جيدا ألم تراقصيه ؟
- نعم .

- ثم إنه قوى جدا معجبة به .
فحملت اليزا فى ميزى ، فبادلتها ميزى الحملكة .
وسأل اجزوما : « أين جوهانز ؟ » .
فردت لياه : « نائم » .

وقالت اليزا : « هذا ندولا ، مدرس . . . وقد خرجت معه » .
فسألتها ميزى : « وهل أمضيت وقتا طيبا ؟ » .
- نعم

- ونحن أيضا . أليس كذلك يا اجزوما ؟ .

- أوه . . أجل . كان وقتا طيبا جدا .

وهنا قالت لياه : « إننى متعبة وأريد أن أنام . أين سستامين يا ميزى . . مع اليزا أم مع اجزوما ؟ » . وكان فى صوتها سخرية تتسم بالازدراء . وتجاهلتها ميزى وقالت فى عذوبه : « سوف أقدر » .
وقست نظرات لياه ثم لانت وضحكت قائلة : « لسانك هذا سيجر عليك المتاعب » .

فقالت أجزوما : « طابت ليلتكم » ومضى إلى الفناء ثم إلى الغرفة الخلفية . وجلس على السرير وأمسك رأسه بيديه . . لقد خرجت اليزا مع ذلك القرد السقيم الذى يرتدى ملابس البيض .
لماذا ؟ . . حتى يديه كانتا ليتين . لكن ميزى طيبة . . استطاع أن يفهما . . وقد غمرته السعادة لأول مرة منذ قدومه إلى المدينة .
وميزى هى التى كانت من وراء ذلك . لقد رقصا ، وكان ذلك شيئا جميلا . . وكسنت هى إنسانة جيدة . . تلك المرأة . وكان فى يعيها إغراء . . كما كانت أيضا رقيقة . . لم تسخر منه ، وعاونته فى أمور لم يكن يعيها . . وهى ناعمة الملمس دافئة . . لو أنها كانت معه الآن لولت كل التعاسة . إنه يدرك ذلك . ورغم هذا فإنه يتوق لاليزا الباردة والتى خرجت مع رجل آخر . وأطفأ الشمعة وجلس فى الظلام وأشعل سيجارة ثم سمع دقة على الباب :

- نعم ؟ .

- أنا أنت ؟ .

وكان الصوت لاليزا .

- كلا .
- أيمكنني الدخول ؟ .
- أجل . . أدخلني .
- ودخلت ، فتحسس جيوبه إلى أن عثر على علبه الثقاب .
- لا تشغل ضوءا . سأفتح النافذة التي خلف السرير ، ونستطيع بذلك أن نرى على ضوء القمر .
- واصطدمت به ودارت حوله وفتحت النافذة ، فتدفق ضوء القمر إلى الغرفة واستطاع أن يرى حدود وجهها بالقرب منه .
- أو يمكن أن أجلس هنا ؟ .
- أجل .
- وساد بينهما صمت لم يخلشه سوى تلك الضوضاء التي تأتي عبر النافذة من العالم الخارجي .
- كيف كان حال الرقص ؟ . وكان صوتها خافتاً .
- كان جيداً .
- وجهك كان يطفح بالسعادة حين دخلت ومعك ميزي تتأبط ذراعك .
- كنت سعيداً .
- أتحب ميزي ؟ .
- أجل . أستطيع فهمها ، وهي إنسانة ودودة . وكنت سعيداً لأنها حاولت أن تسعدني .

- لياه تحبها كذلك ، فهي دائمة الضحك والناس يحبونها .
- وساد الصمت بينهما مرة أخرى . وبلا قصد عبث اليزا في جيبها فوجدت سيجارة .
- أشعل لى السيجارة .
- وأشعل اجزوما السيجارة .
- كيف وجدت المناجم ؟ .
- على خير ما يرام .
- وماذا فعلت ؟ .
- عاونت فى تكوين نقاية منجم لن يزيد حجمها .
- أكان عملا شاقا ؟ .
- أجل ، ولكنه ليس شديد المشقة .
- وكانت سيجارة اليزا تتوهج كلما جذبت منها نفسا .
- ثم تنهدت .
- وسألها اجزوما : « لماذا جئت ؟ » .
- فقالت بنعومة : « لأنى أردت ذلك » .
- لقد خرجت مع ذلك المدرس .
- وأنت رقصت مع ميسى .
- هذا لأنك لم تكونى هنا . لماذا جئت .. ألتحدعينى ؟

- كلا ، جئت لأنى لم أكن أود المجرى ، ولكنى أوده فى نفس الوقت . . . أوه . . . أنت لا تفهم .

- ما هو ذلك الذى لا أفهمه ؟ .

إنه شىء ما فى نفسى . شىء ما صعب يسوقنى ، لا أدرى ما هو . ولكنى فى لحظة أكون هكذا ، وفى لحظة تالية أكون غير ذلك . فى لحظة أعرف ما أريد ، وفى لحظة تالية لا أعرف .

- وماذا تريد الآن ؟ .

- لا أعرف . . . جئت لأنى وددت أن أكون معك ، وأنا هنا الآن ومازلت بائسة . . . ولكن ألا تفهم ؟ .

- اقتربنى . وكان صوته قويا .

وإزدادت منه اقترابا . فطوقها بذراعه وعانقها . وبدأ صلابة جسدها تلين فى بطنه إلى أن رقدت قبالة فى هدوء . وتنهدت وأوت أقرب ما تكون إلى دائرة ذراعه ، وهمست :

- إنك لا تكرهنى ؟ .

- أجل .

- أنت معجب بى . . . هيه ؟ .

- أجل .

- كثيرا ؟ .

- كثيرا جدا .

- لعلك تحبنى ؟ .

- ربما . . لست أدري . . فأنت كالشيطان يجرى فى دمي .

- إننى أستطيع الضحك والرقص مثل ميسى تماما . انتظر
وسوف أريك هذا يوما ما .

وطوقت رقبتى بذراعيها وتعلقت به .

- إنك قوى جدا . . ضخم جدا . . وهو ما يبعث الدفء فى
دمي يا اجزوما .

وقبلته قبلة دافئة قوية عاطفية نحوه واعتصرها اعتصارا .
وأمسكت هى به بكل مألديها من قوة . وغرد قلبه . . إنها تحبه ! .
وأحنى جسدها إلى الخلف ومال فوقها . ولعت عيناها . وحين راح
يتأمل لمعان عينيها لاحظ حزنا يزحف إليهما ، ثم تصلب جسدها ،
ودفعت يده بعيدا عن فخذها ، ووثبت بعيدا عنه ، فتركها تبتعد
عنه . وصرخت : « لا » ثم صرخت بأعلى صوتها : « لا . . لا . .
لا ! » وارتقت على الفراش ورقدت ساكنة ، وأشعل اجزوما عود
ثقاب أو قد به الشمعه . ونهضت هى من السرير ، ووضعت منديلها
بين أسنانها ، وانسابت دموعها على وجهها ، ولكن لم يصدر عنها
صوت . ثم حاولت أن تتكلم ولكنها لم تستطع ، فخرجت .

ولفترة طويلة جلس اجزوما يحملق فى الفضاء . ثم أطفأ
الشمعة وأوى الفراش ، ولكنه لم يستطع النوم فاستلقى يحملق فى
السماء عبر النافذة المفتوحة ، وينصت إلى الضوضاء التى راحت
تتلاشى تدريجا إلى أن بدا وكان كل شئ قد خلد إلى النوم ، فيما

عدا المدينة التي كان طينها يتناهى إلى أذنيه . وانفتح الباب ودخلت
اليزا ثانية وألقت بنفسها على السرير بجواره ، ولم يلتفت هو إليها .
وقالت بنعومة : « اجزوما » .

- نعم ؟ .

أنا لست طيبة ولا أستطيع أن أصلح من أمر نفسي . ومن
الصواب أن تكرهني . ينبغي أن تضربني . ولكن في داخلي شيء ما
خطأ ، ذلك أني أريد أشياء البيض . . أشتهى أن أكون كالبيض ،
أذهب حيث يذهبون ، وأفعل الأشياء التي يفعلونها . وأنا سوداء ،
ولا أستطيع دفع ذلك . إحساسى الداخلى أنى لست سوداء ، ولا
أريد أن أكون إنسانة سوداء . . أن أكون كما يكونون . . فاهم يا
اجزوما ؟ . إنه أمر مشين ، ولكنى لا أستطيع دفعه . إنه هكذا تماما .
وهو ما يؤدى بى إلى إيلا مك . . افهم أرجوك .

- كيف يمكننى أن أفهم ؟ .

وتنهدت اليزا ثم خرجت ثانية .

ولى الدفء عن الجسو ، وأقبل الشتاء بطيئاً على مالاي كامب وفريديدورب وجوهانسبرج . وأصبح النهار الآن بارداً والليل أشد برودة . وتذثر الناس وازدادوا التصاقاً بمدافئهم التماساً للدفء . وكانوا ينامون قريبين من بعضهم البعض ليكونوا أكثر دفئاً خاصة فى مالاي كامب وفريديدورب .

وقد مضى على اجزوما فى المدينة حتى الآن ثلاثة شهور . ومنذ أكثر من شهرين ترك محل لياه وسكن فى غرفة فى مالاي كامب . ولم ير لياه منذ غادر محلها . ولم يكن يرغب فى الذهاب هناك خشية أن يلتقى باليزا ، فهى كالشيطان يسرى فى دمه . . وهو لم يستطع نسيانها . كان يشعر برغبة فى رؤية لياه والآخرين كذلك . اليسوا هم أول أصدقاء له حين قدم إلى المدينة ؟ . . ألم يهيئ له الطعام والمأوى ؟ . . ولكن لخشيته من رؤية اليزا ، لم يكن يذهب هناك ويبقى بعيدا .

وفى هذه الليلة وحين قبع فى غرفته الباردة بلا مدفأة وبلا إنسان يتحدث معه ، تآقت نفسه إلى دفء مكان لياه وإلى إشراقة عينيها ، وإلى اللغو المخمور الذى يصدر عن دادى ، وإلى عيني الأم بلاك الماكرتين اليقظتين اللتين تشاهدان كل شئ ولا تتفوه هى بشئ . بل إنه اشتاق حتى لرؤية لينا ، المرأة النحيلة الملونة التى كانت تشبه الطفل وهى إلى جوار جوهانز . اشتاق إليهم جميعا . . وشعر بانقباض ، واشتدت البرودة فى الغرفة ، فأشعل غليونه وراح يدخنه فى شراهة ،

ثم نهض وارتدى سترته وخرج . وأحس بقشعريرة حين لفح هواء الليل وجهه .

كان ذلك فى ليل يوم من أيام السبت . ورغم برودة الجو ، ازدحمت الشوارع وإن لم يكن كازدحام أول سبت ذهب فيه يتمشى مع جوزيف . وكان الناس يتحركون فى ثاقل وقد التصق بعضهم ببعض . ولم يكن بوسعك أن تميز الأشداء منهم ؛ كانوا جميعا متدثرين وقاية من البرد ، ولم تقف عند نواصى الشوارع جماعات من الناس يرددشون .. فالجميع يتحركون . ومضى فى الشارع متجها إلى سرة جوهانسبرج . ومر باثنين تحت ضوء مصباح ، رجل يحيط امرأة بذراعيه ، وتضحك هى فى وجهه . فأشاح اجزوما بوجهه ومضى مسرعا . وكان فى كل مكان يرى أزواجا من الناس .. كل رجل يصحب امرأة .. والكل يسرون متلاصقين اتقاء البرد ، وقد بدت السعادة على وجوههم . أما هو فكان يسير وحيدا .

وكان حذاؤه واهيا رقيقا يتسرب منه البرد . وبدأت أصابع قدميه تؤلمه . وفكر وهو يتذكر كل الملابس التى منحه إياها رجله الأبيض . ليس الأمر بالغ السوء . ومر به آخرون ممن ليس لديهم حتى أحذية ، وكان الكثيرون بلا سترات . ويمكن للمرء أن يلمح إحساسهم بالبرد .. وهكذا لم يكن الأمر شديدا السوء معه . ولكن حتى أولئك الذين كانت عيونهم تفضح شدة إحساسهم بالبرد ، لم يكونوا وحيدين . كان معظمهم يسير وفى صحبته امرأة ، وكان مع آخرين أصدقاء من الرجال .. هو فحسب ، كان يمشى وحيدا .

واقترب من سرّة جوهانسبرج وأصبح الناس أقل عدداً . وإن وجد كثير من البيض فى ذلك الوقت ، وكانوا مختلفين لم يكونوا يمشون كما يمشى بنو جلده . وبدأ الأمر وكأنه لا وجود لهم فى الواقع . وتنحى جانبا حتى يمروا . وسمع أصواتهم ، لكنهم كانوا غرباء .. لم يتطلع ناحيتهم أو يرقبهم بدقة ليتبين ما يقولون وكيف كانت عيونهم تبدو ، وما إذا كانت نظرات المرأة التى تتعلق بذراع رجل تكن له حبا . لم يابه بكل ذلك لأنهم ليسوا من بنى قومه .

ومر بواجهة مطعم .. فى داخله جلس أناس من البيض يتناولون الطعام ويتحدثون ويدخنون ويضحكون مع بعضهم البعض . وبدأ جو المطعم دافئاً ومريحاً وجذاباً .. فأشاح بوجهه سريعا . وكان فى واجهة أخرى كعك .. فوقف يطل عليه . وأحس بخبطة خفيفة على كتفه ، فالتفت ليرى شرطيا . ودون أن يتفوه بكلمة واحدة سحب جواز مروره من جيبه وقدمه للشرطى ، فاطلع عليه وراح يتفحص اجزوما من رأسه إلى قدميه ثم رد إليه الجواز . وأدرك اجزوما أن الشرطى كان ودودا .

- أين ذاهب يا اجزوما ؟ .

- أتمشى فقط .

- آ .. ها . لم لا تذهب إلى بيتك وتجلس أمام المدفأة مع جمعتك ؟ .

وابتسم اجزوما وقال : «أتريدنى أن أذهب إلى السجن ؟ .

وضحك الشرطى وقال : «حسن ، لكن عليك أن تحسن من سلوكك» .

وراقبه اجزوما وهو يمضى عنه . . ليس إنسانا سيئاً ذلك الرجل . . ربما كان مستجداً . ثم واصل سيره فى الشارع ، وانعطف فى شارع إلوف ، وهو سرة المدينة . وكان الزحام شديداً ، والتحرك وسط هؤلاء البيض صعباً ، إذ كان على المرء أن يستمر فى التنحى جانباً ، وأن ينتبه إلى السيارات التى تمرق سريعاً .

وابتسم اجزوما فى مرارة . . المكان الوحيد الذى يتمتع فيه بالحرية كاملة وهو ذلك المكان القابع تحت الأرض فى المناجم . هناك هو السيد . . هناك يعرف طريقه . هناك لم يشعر حتى بالخوف من الرجل الأبيض ، لأن الرجل الأبيض يعتمد عليه . هو رئيس العمال ، يصدر أوامره لعمال المنجم الآخرين . . وهم يؤدون له مالا يؤدونه لرجله الأبيض أو لآى رجل أبيض آخر ، ولقد أدرك ذلك واكتشفه بنفسه . . تحت الأرض يحترمه رجله الأبيض ويسأله المشورة قبل الشروع فى أى شئ . هذا هو الحال تحت الأرض . . حيث يشعر أنه فى بيته ، وأنه مطمئن النفس . . حتى رجله الأبيض كان يحاول أن يصادقه لأن عمال المنجم الآخرين كانوا شديدي الاحترام له . لكن أبيض وأسود لا يمكن أن يتصادقا . إنهما يعملان معا ، وهذا كل مافى الأمر . وابتسم . إنه لا يروم الأشياء التى يتمتع بها الرجل الأبيض . لا يريد أن يعقد صداقة معه . هو يشتغل له ، أجل ، ولكن هذا كل مافى الأمر . ثم ألا يحترمه الآخرون أكثر مما يحترمون جوهانز ؟ . . السبب فى ذلك يرجع الى أنه لايقول للرجل الأبيض

يا «ريس» ولكنه يعرف كيف يتعامل معه .

ثم راح يفكر فى اليزا ثانية .. وتلاشى من نفسه الشعور بالازدراء . لقد حاول أن ينساها ، ولكنها كانت محاولات غير مجدية ، فحنينه إليها يزداد يوماً بعد يوم .. بيد أنها تريد أن يكون لديها مالى الأبيض .. الأمر الذى جعله يحرق على الرجل الأبيض .

- بصى يادى .. هاهو زوما ! .

والتفت اجزوما ليرى رجله الأبيض ومعه امرأة ، وكانت السعادة تشع من عينيه ، وعلى شفثيه ارتسمت ابتسامة . وكانت هذه هى المرة الأولى التى يرى فيها عينى رجله الأبيض بادى تضحكان .

- أهلا يا زوما .

ومد بادى يده ، وتردد اجزوما ، ثم صافحها وابتسم . وكان الرجل الأحمر سكراناً .

- هذه فتاتى يازوما . مارأيك فى ذوقى ؟ . وضحك .

ونظر اجزوما إلى المرأة فابتسمت له ومدت له يدها . وتوقف المارة من الأبيض وأخذوا يلتفتون إليهم . وأحس اجزوما بالنعاسة ، وود لو أن الرجل الأحمر أخذ فتاته وانصرف . وصافح يد المرأة ، وكانت يدها صغيرة ناعمة الملمس .

وقالت : «هذا إذن زوما» .

فقال بادى : «اسمه ياعزىتى يبدأ بحرف اكس» .

فقالت : «الرجل الأحمر يتحدث عنك كثيرا يازوما» .

فقال : بادی «إننا نعوق حركة المرور» وأمسك بيد اجزوما وسار به في طريق صغير يبتعد عن وسط المدينة ، ثم انحرف إلى منحرف صغير وقال له : «اسكن هنا» .

فقالت : المرأة «دعه يصعد يا أحمر» .

فصاح بادی متحمسا : «فكرة جيدة ! .. تعال يازوما سوف تتناول طعامك معنا ؟» .

فقال اجزوما : «كلا» .

- هيا . وأصر بادی ودفعه بعض الشيء ناحية المصعد . وحين خرجوا منه تقدمت المرأة وسارت بهما إلى الشقة .

فقال بادی : «هذا هو بيتي» .

وتطلع اجزوما حواليه ، ولم يكن قد رأى مكاناً كهذا من قبل . لم يكن به مدفأة ولكنه كان دافئاً .

وقالت المرأة : «اجلس يازوما» .

وجلس اجزوما على حافة المقعد ، وخلعت المرأة معطفها ، ثم مضت إلى غرفة أخرى . وتمدد بادی على أريكة وابتسم لاجزوما . ثم عادت المرأة بثلاثة كئوس ، وقالت لاجزوما وهي تناوله كأساً منها : «هذا سيدفئك» ورفع بادی كأسه وقال :

- في صحة زوما أحسن عامل منجم .

فقلت المرأة : «فى صحة زوما» وابتسمت له .

وتجرع بادی ودى كأسيهما . بينما جلس اجزوما ممسكا بكأسه .
إنه مازال يشعر بنعومة يد المرأة فى كفه . كانت صغيرة جدا وناعمة .
وكانت هى على قدر من الملاحظة التى تدعو للتطلع إليها ، ولكنه لم
يشأ أن يفعل ذلك .

وقالت له : «اشرب كأسك يازوما» .

وبعثت الخمر فيه الدفء . وأخذت منه المرأة الكأس الفارغة ،
وأدارت المذيع وقالت لبادى :

- كل الأشياء معدة .. فضعها على الترولى وأحضرها هنا .

وخرج بادی ، وأخذ اجزوما يفكر .. الآن أدرك ما تشهيه
اليزا . لكن هذه الأشياء للبيض فقط .. ومن الحمق أن نظن أننا
قادرين على الحصول عليها . وتطلع إلى كل مافى الغرفة . أجل ،
هى جميلة . فوق أرضها سجاجيد ، وفيها كتب ومذيع .. أشياء
جميلة فى كل مكان .. رائعة .. كل شئ رائع .. إلا أنها جميعا
مقتنيات الإنسان الأبيض .. والحمق كل الحمق اشتهاى مقتنيات البيض
كيف يتأتى للأسود أن يحتسى الخمر وأن يحتفظ بالزجاجة فوق
المنضدة دون أن يخشى رجال الشرطة ؟ .. كيف يمكن للأسود أن
يفعل ذلك وكيف يمكن لاليزا أن تكون مثل فتاة الأحمر البيضاء
تلك ؟ . وتابعت دى عينيه وهما تجولان فى الغرفة فسأله :

- أو أعجبتك ؟ .

- هه ؟ . ويدا مرتاعاً .

فقلت : «أعنى الغرفة» .

فقال : «إنها رائعة» ونظر إليها .

وتطلعت إليه فى ود ، وحين ابتسمت ظهر على وجنتيها غمازتان كغمازتي اليزا تماما . ويدا له أن عينيها أدركتا ماكان يفكر فيه ، فحول ناظريه عنها .

وقالت هى : «الأحمر يريدك أن تكون له صديقا» .

وعاد اجزوما ينظر إليها ، ومرة أخرى بدا أنها أدركت كل مايدور بخاطره . وفى أثناء ماكان يتطلع إليها كانت الابتسامة تفرش وجهها ببطء .

وقال اجزوما : «إنه أبيض» .

وهنا تلاشت البسمة من وجهها ويدا الحزن فى عينيها . وفجأة أحس اجزوما بأسى ، وأدهشه أن يشعر بذلك تجاه إنسان أبيض . ولم يكن ثمة سبب لذلك .

وقالت : «ولهذا لايمكن أن تكونا صديقين» وكان فى عينيها نفس النظرة التى رآها مرات كثيرة فى عيني الأحمر .

وأقبل بادی بالطعام ، وشعر اجزوما بالارتباك . لكن بادی ودى راحا يتحدثان دون أن يلتفتا إليه . وسرعان ما نسى ارتبাকে وراح يتناول الطعام . وحين فرغوا من طعامهم تَجَرَّعُوا مزيدا من الخمر . وأخذ اجزوما وبادی يتحدثان عن المناجم والأمور المضحكة التى تحدث

هناك ، وسرعان ما أخذوا جميعا يضحكون . ونسى اجزوما في الحال
أنهما من البيض ، وأنه يتحدث مع المرأة . ثم قام بادی بحمل
الصحون وبقايا الطعام خارج الغرفة . ونظر اجزوما إلى المرأة ، وفجأة
أحس برغبة في أن يحكى لها عن اليزا . لكنه لم يدر من أين يبدأ .
وناولته سيجارة ، وتناولت هي سيجارة أخرى . . واليزا تدخن كذلك
 . ونظر اجزوما إلى دى وابتسم .

- فيم ابتسامتك ؟ .

- فتأتى تدخن كذلك .

- وما العيب في ذلك ؟ .

وصمت اجزوما .

- ما اسمها ؟ .

- اليزا . وأراد أن يحكى لها عندئذ ، لكن الكلمات تعثرت على
لسانه .

وقالت : دى «احك لى» .

- عما أحكى ؟ .

- عما تريد أن تحكى لى . الأحمر سيعود حالا ، وأنا أدري أنك
لا تريده أن يسمع .

- إنك تعرفين كل شئ .

- لا . . لكنى لا أعرف هذا . احك لى .

وحدق اجزوما فيها النظر ، فبادلته النظرات وابتسمت .

- أنت إنسانة ممتازة .

- شكرا لك . أنا صديقة لك فاحك لى .

- إنها مدرسة وتريد أن تكون كالبيض . تود مكانا كهذا المكان
وملابس كملايسك . وتريد أن تفعل كل ما تفعلونه . وكل هذا
حماقة بكل معنى الكلمة ، لأنها ليست بيضاء . ولكنها لاتستطيع
السيطرة على نفسها ، وهذا مايجعلها تعيسة أحيانا .

- وأنت ؟ .

- ويتعسنى كذلك ، لأنها تريدنى ولا تريدنى ، بيد أنه أمر يتسم
بالسخر .

- إنه ليس سخر يا زوما .

- إنها لا تستطيع امتلاك أشياءكم .

- ولكن أليس القلب هو نفس القلب يا زوما ؟ .

- كلا . . إننى أهتم فحسب بينى جلدتى .

- لا يا زوما .

- بل إنه لكذلك ، ثم أين يوجد الخير فى التمنى ؟ .

- اسمع يا زوما . . إننى بيضاء وفتاتك سوداء ، لكننا من داخلنا
سواء . إنها تود الحصول على الأشياء التى ابتغيها ، وأنا أبتغى الأشياء
التي تودها . إننى واليزا سواء فيما تنطوى عليه نفوسنا . فتاة سوداء

وفتاة بيضاء . . أما الباطن فسيان .

- نفس الشيء ؟ .

- نفس الشيء .

- لكن هذا خطأ .

- بل صواب ياروما . . أنا أدري .

- كلا .

- نعم .

- لا يمكن أن يكون الأمر كذلك . إنك طيبة ، ولكنه لا يمكن أن يكون كذلك .

- إنه لكذلك . أنت لا تصدقني ، ولكنه كذلك .

ودخل بادي ونظر اجزوما إلى دي ونهض واقفاً وقال :

- يجب أن أنصرف .

فقال بادي : «ليس الآن ياروما ، مازال الوقت مبكراً» .

وقالت : دي «هو فعلاً كذلك ياروما» .

ونظر بادي إلى دي ثم إلى زوما وابتسم قائلاً : «أو تعجبك فتاتي ؟» .

وابتسم اجزوما وقال : «إنها إنسانة ممتارة ، وأنت محظوظ يا أحمر» .

- وقال بادی : «سأنزل معك أوصلك» .
وصافحت دى زوما ونظرت إلى عينيه وابتسمت .
- إننى على صواب .
- ربما .. وإن كنت لا أعتقد ذلك .
وتبع بادی إلى المصعد .

- عاد بادی متمهلاً وأغلق الباب خلفه ، ودى تتابعه بنظراتها .
واتجه إلى الأريكة وجذبها لتجلس إلى جواره ، ولف ذراعه حول
كتفها ، وجلسا هكذا فترة من زمن . وأخيرا سألها :
- ما ظنك به ؟
- ماذا به يستحق منى التفكير ؟ .. إنه مجرد عامل منجم .
- إنه رفيق ممتاز .
- أجل ممتاز .. ولكنه ليس كائنا بشريا بعد .. مجرد عامل
منجم . فتاته إنسانة ، وهو يعجز عن فهمها . إنه لا يستطيع أن يدرك
توقعها إلى الأشياء التى أتوق إليها وأقتنيها . وثمة شئ آخر أنت مخطئ
فيه يا أحمر .. وهو أنه لا يكرهك . إنك فقط لست من نفس عالمه .
- هذا لغو بادی .
- تدبره بنفسك .

- هذا الرفيق لإنسان مثلى .

- كلا يا أحمر ، هو يرضى بما لن ترضى أنت به . وهذا سبب من الأسباب التى تجعله محبوباً جداً بين كل الآخرين من البيض . هو شخص يعتمد عليه ، لكنك لاتستطيع أن تقول نفس الشئ عن رئيس عمال كريس .

- أعتقد أنك مخطئة يادى .

وابتسمت فى مرارة ونظرت إليه وقالت :

- نعم . . أدرى يا أحمر ، فالرجل هو الرجل فى كل هذه الأمور . الرجل هو الرجل فى إصراره على فرض رأيه على الآخرين ، لكن لا يوجد ما يمكن الجزم به فى عامل منجمك . ثمة خلط وارتباك وتسليم ، ولاشئ أكثر من هذا . آه . . هو آدمى . . لا بأس . . فهو يتكلم ، ويتناول الطعام ، ويحس ، ويفكر ، ويشعر بالوحدة ، وهذا كل ما فى الأمر .

- لديه كرامة وكبرياء .

- ولدى الحيوان ذلك يا أحمر . لقد أخطأت فى كل هذا . فالإنسان لم يبرر بعد فى (روماك) هذا ، وهو لذلك يبدو جميلاً وقوياً وكاملاً ولديه كرامة ، وأنت لذلك تقول بأن ذلك هو مواطنك مستقبلاً . وليس هذا صحيحاً .

ونظر إليها بادى وقد تكدر وجهه . وظلا صامتين فترة طويلة من زمن ، ثم نهضت دى وذهبت إلى المطبخ فصاح بادى :

- إنك تعقدين الأمور يا دى ، تجعلينها تبدو وكأنه لا أمل فى أى مكان .

وضحكت دى ، وكان لصوت ضحكاتها حلاوة وقالت :

- لن أعاشر إيرلنديا أبدا مرة أخرى ، فأنت بين لحظة وأخرى تكون على طرفى نقيض .

- كونى جادة يا دى .

وران صمت على المطبخ ، وانتظر ، ثم جاءه صوتها .. وثيلاً متردداً ، ولكنه كان يتسم حقيقة بالواقعية الشديدة .

- لدى كثير من الناس عن يعدون أنفسهم تقديمين أفكارهم الغربية عن المواطن الأصلي ، لكنهم جميعا يشتركون فى شئ واحد . فهم يريدون أن يحددوا من هو المواطن الأصلي الصالح ، ويرغبون فى أن يقوموا من أجله بأشياء حميدة . إنك تدرك ما أعنيه . هم يريدون أن يمسكوا بزمام أمره .. أن يحددوا له مايقوم به .. وأن يفكروا نيابة عنه ، وعليه أن يتقبل أفكارهم . وهم يحبونه أن يعتمد عليهم ، و (زوماك) هذا يشكل مواطنا أصليا صالحا ممتازا للتقدميين .. وهذا سبب حبكم له .

- ليس هذا صحيحا يا دى ، وأراك فى هذا غير منصفة .

- آسفة يا أحمر ، ولكنى أؤمن بذلك بصدق .

- نظريتك الواهنة على أية حال لا تصدق مع روما ، فهو لا يمكن لى ودا .

- أجل ، تلك هي العقبة الوحيدة وإن كانت لا تثبت أى شئ ، علاوة على أنه ليس معاديا لك ، أنتما فقط تنتميان إلى عالمين مختلفين . والمسألة برمتها أن المواطن الأصلي الذى يتوق إلى الأشياء التى يقتنيها البيض مشكوك فى أمره إن لم يطلبها من القيادة .

وعادت دى إلى الغرفة وجلست فى مواجهته فقال لها : « ثم ؟ » .
- ثم لا شئ .

- إن هذا يخلف إلى حد ما وضعاً ميثوساً منه بالنسبة لأصحابك الذين يفترض أنهم تقدميون .

- أجل .. إلى أن يقبلوا حقيقة أن الوطنيين يمكنهم أن يتولوا القيادة ، لا قيادة أنفسهم فحسب ، بل وقيادة البيض كذلك .
- وماذا عن روما ؟ .

- إننى أكثر اهتماماً بفتاته . إنها تحس بالرغبة .. وتشعر بالاستياء ، فهى حيوان اجتماعى ، أما هو فليس كذلك .

- أنت مخطئة يا دى . فالفتاة مأساة بالفعل . أما بالنسبة لروما فمارال ثمة أمل . إنك تترجمين أمانيك إلى حقائق . ولايكفى مجرد الرغبة والاستياء .

- ولكنهما شعوران إنسانيان .

- أجل يا عزيزتى .. إنهما شعوران إنسانيان . ولكن حتى هذا غير كاف . إنك تستطيعين السخرية بشدة كما تحبين ، لكن روما قوى ، والقوة مهمة . والشئ الذى يفوتك أنه إنسان مثل فتاته

أو مثلى أو مثلك ، ولسوف توقظه هذه الإنسانية ذاتها . . اسخرى قدر
ماتشائين من التقدميين أصحابك يادى ، ولكنى استحلفك بالله أن
تؤمنى ببنى البشر . لا يكفى أن تهدمى ، ولكن يجب أن تبنى
كذلك . كونى ذخيرة من الإيمان فى قلبك بالمواطن زوما ، عامل
المنجم ، الذى ليس لديه وعى اجتماعى ، والذى لا يستطيع القراءة أو
الكتابة ، ولا يستطيع إدراك رغبة فتاته فيما ترغبين أنت فيه ،
وسأحكى لك شيئا ياعزيزتى . فى أول يوم وصل فيه إلى المناجم
طلب منه سميد أن يدفع عربة لم يكن يدرى أى شئ عنها . . . » .

شعر اجزوما بالسعادة حين بعد عن الشخصين الأبيضين . لم
يكن الجو هناك مريحا . وكلما حاولا إدخال الاطمئنان إلى نفسه
وتخليصه من الارتباك ، ازداد الأمر صعوبة لديه . بيد أن الأمر مع
المرأة فقط ، لم يكن شديد السوء . فقد كان لديها وعى كبير إلى حد
بعيد ، وحكمة عظيمة . ثم إنه شاهد الأحمر يتسم له هذه المرة فقط .
وعندما كان وحده مع المرأة ، شعر بالارتياح تماما . وتعجب . . ترى
ما الذى دعاه إلى أن يحكى لها عن إلزا . ربما كان ذلك لأنها تعى
وأنها حكيمة إلى حد بعيد . ولكنها لا يمكن أن تكون شديدة الحكمة
. ألم تقل عن رغبة إلزا فى اقتناء الأشياء التى يقتنيها البيض أنها أمر
طيب ؟ . . وهذا سخف ، لأن إلزا لاتستطيع أبدا اقتناء هذه الأشياء
. لكنها أشياء جيدة . لقد شاهدها بعينى رأسه ، وأدرك الآن لم
كانت إلزا تشتهى هذه الأشياء . إنه يعرف الآن ماتريده . وقد أدت
هذه المعرفة إلى جعل الأمور أقل صعوبة على نفسه .

وعبر الشارع واتخذ طريقه منطلقا إلى مالاي كامب . ولم يكن
البرد الآن شديد السوء . وكان الطعام الذي قدماه له جيدا ، ولكنه لم
يكن يحتاج إلى مضغ . لم تكن فيه ذرة مطحونة ، وطعام دون ذرة
مطحونة أو قطع من الخبز لايشبع الإنسان تماما . وابتسم . . كانا
رقيقين . . وقد أضمرنا شعورا رقيقا . وهذا الأحمر محظوظ تماما
لاقتنائه هذه المرأة التي كانت ودودة حتى مع شخص أسود .

وكانت هي ودودة بطريقة مختلفة عن الرجل الأحمر . مع
الرجل الأحمر يشعر الإنسان أنه يريدك أن تثق فيه وأن تلجأ إليه حين
توجد مشكلة . ومن الصعب أن تكون ودودا مع شخص أبيض
كهذا ، وكان الأمر مختلفا مع المرأة . حين تسأل عن أفكار امرأة
لايكون في رأسها شيء تخفيه ، ومن ثم يمكن أن يتحدث معها .

وبالتدريج أحس أنه خلف وراءه سرّة المدينة ، وأن أعداد البيض
تناقصت ، وأنه يرى أبناء جلدته فقط يزدادون كثرة ، وأن شعوره
بالانتباه وتعديل مساره لإفساح الطريق قد زايله أكثر فأكثر . لقد كان
الآن يصطدم بأبناء قومه في أثناء سيره دون أن يفسح الطريق لأحد .
كان يرتطم بهم ويحس بدفئهم ورقتهم . كان الحال هنا على مايرام .
وكان هذا مالاي كامب . وكانت مجموعة البيض القليلة هنا من
السوريين الذين يبيعون الخمر للسود وللملونين . ولم يكن أحد
يعاملهم معاملة البيض . والسبب في هذا هو أن بعض نسائهم كان
لهم معاملات مع السود من الرجال . وكانوا جميعا مأموني الجانب .
وانعطف هابطا إلى شارع جبه . وفي نهاية الشارع وقفت جمهرة من
الناس ، كانوا يتطلعون إلى أعلى . وهبط مسرعا ، وحين وصل

إليهم وقف ورفع بصره ، لكنه لم يشاهد شيئاً . فقال رجلاً
بجواره :

- ماذا هناك ؟ .

فقال الرجل : « لا أدري » .

وابتعد اجزوما وهو لا يزال يتطلع إلى أسطح البيوت ، ثم التقى
بامرأة .

- ماذا هناك ؟ .

فقالت المرأة : « ثمة رجل فوق تطارده الشرطة » .

- أين ؟ .

وأشارت المرأة ، فتطلع بدقة . أجل . . هاهو هناك . وكان
يزحف فوق سطح مائل ، ومن خلفه وعلى مقربة منه شرطى .
وحبس اجزوما أنفاسه . لقد كان السطح ينحدر بشدة ، وأية حركة
خاطئة سوف تهوى بالرجل إلى أسفل ، فيلقى حتفه أو تنكسر عظام
جسده . وكان الشرطى معرضاً لتفكك الخطر . وصدرت عن الجمهور
صرخة فزع . وفقد الرجل السيطرة على نفسه ، وراح يتزلق ببطء
فوق السطح المائل . كان يهبط . . يهبط . . حتى صار الآن عند حافة
السطح . إن لم يستطع أن يتوقف فسوف يسقط على الأرض . هاهى
رجل تدلت . . ثم الرجل الثانية . وهاهو الآخر . . إنه على وشك
السقوط . وحبس اجزوما أنفاسه ، وراح قلبه يخفق بعنف . ثم
أمسك الرجل حافة السطح بكلتا يديه وأخذ يتأرجح . وسادت الناس
موجة من خوف . . وازداد الشرطى اقتراباً من الحافة .

وحدث صخب بين الناس ، وشق رجل نحيل أنيق الملبس طريقه إلى الصفوف الأمامية . وكان يرتدى ملابس كملايس البيض ، ويتصرف فى مسلكه تصرف البيض . لقد دفع الناس بعيدا عن الطريق . ويشعور معاد حول الناس نظرتهم من المتأرجح على ذلك الجانب من السطح إلى ذلك الرجل . وأخذ كل واحد منهم يسأل الآخر «من هو؟» وتسأل آخرون أيضا «وماذا يظن فى نفسه؟» وهمس واحد لآخر «إنه الدكتور . . الدكتور ميني» وسرى الهمس بين الجمهور ، فتطلع اجزوما إلى الدكتور . ورفع الدكتور بصره محمقا فى الرجل المتأرجح .

- من هو ؟ .

ولم يتلق ردا . فتكلم ثانية بصوته الحاد الرفيع :

- ماذا فعل ؟ ألم يشاهد أحد منكم شيئا ؟ .

فقال رجل رث الثياب بغضب : «كان يلعب النرد» .

وصرخت امرأة ، فالشرطى الذى كان يقترب منه لحق به شرطى آخر . كلاهما كانا يشندان قريبا منه بحذر وفى تمهل . بيد أن هذا لم يكن سبب صراخ المرأة ، إذ إنها شاهدت انفلات إحدى يدي الرجل . هو الآن يمسك بيد واحدة فقط ، وتوتر الجمهور . . هذا هو القتل . وبحركة آلية تقدموا إلى الأمام كتلة واحدة ، وكان الدكتور يتقدمهم . واندفع اجزوما إلى الأمام . ثم فك الرجل المعلق بين السماء والأرض قبضته ، كما لو أن التعب حل به . وصدرت عن الجمهور تنهيدات

متوالية . . ففي لحظة كان الرجل فى الفضاء ، ثم سقط فى ارتطام
مكتوم على الأرض . ولبرهة قصيرة ظل الرجل ساكنا فى البقعة التى
سقط فيها . وتسمر الناس فى مكانهم .

ثم تحرك الرجل ، فانفرط عقد الجمهور ثانية . وتقدم الدكتور
مسرعا وجثا بجواره . وضغط الجمهور وهو يتحلق قريبا منهما .

فقال الدكتور «أتيحوا له منفذا للهواء» .

وأزاح اجزوما الجمهور إلى الخلف وهو يردد : «أتيحوا له منفذا
للهواء» .

وتحسس الدكتور جسم الرجل كله ثم قال : «لا بأس به ، فيما
عدا حدوث كسر فقط فى ذراعه . ونظر إلى اجزوما .

وقال الرجل همسا : «أعينونى على الانصراف من هنا» .

وفجأة تفرق الجمهور وتراجع إلى الوراء ، فاندفع بينهم رجال
شرطة ، وصاح من فى المقدمة «تراجعوا إلى الخلف» .

وتراجع اجزوما مع الجمهور إلى الخلف ، ولم يبق سوى
الدكتور .

وقال الشرطى للدكتور : «أنت ! . . ألم تسمع ؟» .

ونفض الدكتور وتطلع إلى الشرطى ، ثم قال : «أنا الدكتور
مينى» .

وضحك الشرطى ، واندفع آخر من ورائه وصفع الدكتور على
وجهه . وكور اجزوما قبضته وأخذ نفسا عميقا .

وقال الدكتور : «سنرى عاقبة هذا» .

ومرة أخرى رفع الشرطى الثانى يده ، فقال شرطى آخر وهو يخطو إلى الأمام :

- من الأفضل ألا تضربه ، فهو دكتور .

ونظر الآخران كلاهما إلى الشرطى الأكبر سنًا ، وقد بدا فى عيونهما عدم التصديق .

فقال الأكبر سنًا : «هذا حقيقى» .

وقال الدكتور وهو ينظر للشرطى الأكبر سنًا «أريد أن أصبح هذا الرجل معى . ذراعه مكسورة على نحو خطير ، وهو فى حاجة إلى رعاية» .

فقال الشرطى الأول : «لا مدعاة لهذا الخوف اللعين . . سيذهب إلى المكان الذى يلائمه . . إلى السجن» .

وأخرج الدكتور بطاقة وناولها للشرطى الأكبر سنًا وقال : «إننى أعمل بالمستشفى العام ، وهذا عنوان بيتى فيما لو أردتنى . سأخذ هذا الرجل معى ، ويمكنك أن تأتى لتأخذه خلال ساعة واحدة من زمن . وحين تأتى أريد أن أشكو هذا الرجل لاعتدائه على» .

ونظر رجال الشرطة إلى بعضهم البعض فى ارتباك . وكان فى عيني الأول نظرة عنيدة ، فى حين بدا الخوف فى عيني الثانى . وبدا الشرطى الأكبر سنًا متعبا ومكدودا . وتناول البطاقة من يد الدكتور وأومأ برأسه . وفغر الشرطى الأول فاه ، وهز الثانى رأسه ، وبقي الأول صامتا .

وقال الدكتور «أما من أحد يعيننى على حمله إلى سيارتى ؟» .

واستدار الشرطى الأول كالبندول وتطلع إلى الجمهور . وكان فى نظراته وعيد ، وأمسك بهراوته مهددا ، فبقى الجمهور فى مكانه . وحاول الدكتور أن يرفع الرجل ولكنه لم يستطع ، فأخذ اجزوما نفسا عميقا وكور قبضتيه وخطا إلى الأمام . فأحكم الشرطى قبضته على هراوته ولوح بها من جانب إلى آخر ، وحملق فى اجزوما بشدة ، فبادله الحملقة وظل يتقدم ، واندفع متجاوزا الشرطى .

ورفع الدكتور ناظريه إليه وابتسم :

- ارفعه ولكن كن حريصا على تلك الذراع .

فقال الشرطى وهو ينخس اجزوما بهراوه : «لحظة واحدة» .

ونفض اجزوما وجسده يتففض ، وقبضتاه مضمومتان وقد تحولتا إلى كرتين صلبتين .

- أين جواز مرورك ؟ .. أرنيه .

وأخرج اجزوما جواز مروره وقدمه إلى الشرطى ، فتطلع إليه فترة طويلة ثم رده إليه . ورفع اجزوما الجريح ، وأفسح الجمهور ممرا تقدم فيه الدكتور ، وتبعه اجزوما ، وفتح الدكتور سيارته وعاون اجزوما على أن يريح الرجل بلطف على المقعد الخلفى .

- أو يمكنك أن تأتى معى لتساعدنى على إدخاله إلى بيتى ؟ .

وأوما اجزوما برأسه .

- ادخل إلى جواره وأمسكه حتى لا ترتطم ذراعه بأى شئ .
- وأغلق الدكتور الباب وجلس هو فى المقعد الأمامى وأدار السيارة .
- وقبل أن تتحرك أدار الدكتور عينيه وراح يتطلع إلى المكان الذى كان يقف فيه الجمهور ، وكذلك فعل اجزوما . وكان الجمهور قد تفرق فى كل اتجاه ، إذ راح الشرطيان يطاردانهم ، وبقي الشرطى الأكبر سناً وحده واقفا فى المكان الذى تركاه فيه . . وقف بتلك النظرة المكدودة البادية على وجهه .
- وتحركت السيارة فى ببطء وحرص . وتناول الدكتور سيجارة وناول اجزوما العلبة وسأله : «ما اسمك ؟» .
- اجزوما .
- فى المدينة من فترة طويلة ؟
- من ثلاثة شهور .
- مفهوم .
- وأَمْضيا بقية الطريق صامتين . وظل اجزوما يدير نظراته بين الرجل الذى بجواره والرجل الذى أمامه . كلاهما من بنى قومه ، ولكنهما مختلفان كثيرا . فالرجل الذى بجواره لا يحظى بكثير من الاحترام ، ومثله كثيرون . إنهم يحتسون الخمر ويتقاتلون ويقامرون . وفى المدينة كثير جداً من مثل هذه الحالات . إنه يشاهدهم . . وهو يعرفهم . ولكن ذلك الآخر مختلف . . مختلف عن كل الذين كانوا يقفون حوله هناك . حتى البيض رأوه مختلفا وعاملوه بأسلوب مختلف . لم يستطع أحد ممن عرفهم اجزوما أن يفعل مثلما فعل ذلك الرجل . ومع ذلك فإن هذا الرجل واحد من بنى جلدته .

وتوقف الدكتور عند الطرف الآخر من مالاى كامب ، وحمل كلاهما الرجل إلى بيت . وعند الباب لقيتهما امرأة ملونة تكاد تكون بيضاء ، وترتدى ملابس البيض ، ويدأ البيت من الداخل أكثر جمالا من مكان الرجل الأحمر ، فقد احتوى كل ماشاهده فى بيت الأحمر ، إن لم يكن أكثر .

وحملا الرجل إلى حجرة العمليات ، وعاونت المرأة الدكتور فى خلع معطفه ، وناولته معطفا آخر رقيقاً أبيض اللون . وفى سرعة وخفة وحرص راح الدكتور يعمل بنجاح فى ذراع الرجل ، وفى أثناء ذلك كله كانت المرأة تناوله أشياء وتساعدته وتحدث معه ، وقد جلس اجزوما على مقعد صغير وراح يتفرج . وظن اجزوما أن المرأة ربما تكون زوجته ، وحين انتهيا من تضميد الرجل وغسل الدكتور يديه وقبلته المرأة ، أيقن اجزوما أنها زوجته .

وقال الدكتور لاجزوما وهو يتسم له : «تمام» .

وابتسمت المرأة كذلك ، وحدث اجزوما نفسه . . «ربما وجب علي أن أنصرف الآن» . ثم دخلت امرأة أخرى سوداء إلى الغرفة تحمل كوبا سقت الجريح شيئا منه . وانتصب الجريح جالسا وقال :

- شكرا لك يادكتور ! . . أو يمكننى أن أنصرف ؟ .

- كلا ، ليس الآن . لقد أبلغت الشرطة أن تأتى خلال ساعة . لا أظن أنهم سيأتون ، ولكن يحسن أن نتظر ونرى . عليك الآن أن ترقد وتسترد شيئا من عافيتك» .

- ولكنهم سيقبضون على .

- لو فعلوا ذلك فسأقاضى الشرطى الذى اعتدى على ، لكنك
لو انصرفت فسأواجه مصاعب . وأدار الجريح عينيه فى الغرفة ولكنه
لم يقل شيئاً .

- ربما انتظرت أنت كذلك يا اجزوما لتكون حيثئذ شاهدى ، فقد
رأيت كل شئ .

وأوماً اجزوما برأسه . وغطت المرأة الملونة الجريح ببطانية . ثم
قال الدكتور لاجزوما :

- هيا يا اجزوما تناول الشاى .

وخرجوا مخلفين وراءهم الجريح وحده . وكان فى الغرفة
الأخرى مدفأة كبيرة ومذياع ونور من ذلك النوع الذى يمكن أن يضاء
بالضغط على شئ صغير فى الحائط . لم يكن ثمة مصباح زيتى ولا
شموع . وأدار اجزوما ناظره فى الغرفة ، وتابع الدكتور حملته
وابتسم .

والتفت إليه اجزوما ورأى الابتسامة ، لقد شعر بمثل ما شعر به فى
بيت الأحمر ، ولو أنه لم يشعر بالانتماء إلى ذلك المكان ، وكان من
الخطأ أن يذهب هناك .

ورأى الدكتور سحابة من حزن تعبر وجهه فسأله : «ماذا بك ؟» .

- بيتك هذا مثل مكان البيض .

فقال الدكتور : «لا يا اجزوما ، ليس كمكان البيض . إنه مجرد
مكان مريح . إنك لا تقلد الرجل الأبيض حين تعيش فى مكان كهذا .

هذا هو نوع المكان الذى ينبغى على الإنسان أن يعيش فيه لأنه مكان صالح له . بغض النظر عما إذا كان أسود أو أبيض ، فمكان كهذا جميل بالنسبة إليه ، أما ما يخص البيض فهى بيوت أخرى . . وأنت تعيش فى الأماكن التى يقيمونها .

- دكتور . . دكتور .

لقد أقبلت المرأة السوداء إلى الغرفة ، وارتسم على وجهها أسى وارتياح .

- ما الأمر يا اميلى ؟

- الرجل الذى كنت تضمده مشى يا دكتور . . خرج من النافذة .

- أوه . . .

وشاهد اجزوما وجه الدكتور . . لبرهة قصيرة ملأه حزن ويأس ، كوجوه الرجال الذين كانوا يعملون فى كومة الرمل الناعم الرطب الأبيض والذى لا ينقص أبدا . كان ذلك لبرهة ، ثم زال عنه ما ألم به ، وعاد وجهه رزينا هادئا ومن الصعب أن تكتشف ما وراءه . ونهض الدكتور وذهب إلى حجرة العمليات ، وتبعته الآخران . وكانت البطانية ملقاة على الأرض ، والنافذة مفتوحة يهب منها نسيم بارد . . لقد ذهب الرجل . وأمسكت المرأة الملونة بذراع الدكتور واتجهت اميلى إلى النافذة وأغلقتها .

وقال الدكتور لاجزوما فى خشونة ودون أن ينظر إليه : «يمكنك أن تنصرف الآن يا اجزوما» .

وشعر اجزوما بالاستياء ، إنه لم يفعل شيئاً . لقد بقى لأن الدكتور طلب منه ذلك . ولأن الرجل الآخر مشى ، فقد تكلم إليه الدكتور بصوت قاس . وشعر بالغضب ، لكن شعوره بالاستياء كان أشد من شعوره بالغضب . واستدار على نحو مفاجئ ومشى ناحية الباب . وتبعته زوجة الدكتور . ومدت إليه يدها وأبتسمت ، ثم قالت :

- شكرا جزيلاً لك .

وتناول يدها .. وكانت ناعمة وصغيرة كيد المرأة البيضاء .

الوقت يمضى لكن اجزوما لا يريد العودة إلى حجرتة . لم يكن هناك شئ يمكن أن يفعله هناك ، اللهم إلا أن يجلس فى البرد أو يدخل إلى فراشه البارد . ولكن هذا أيضا شئ سيئ . كان يعلم أنه لن ينام ، وهو لا يريد أن يرقد يقظا فى فراش بارد . وابتعد عن بيت الدكتور . وتطلع إلى السماء التى بدت شديدة البعد ، والتى كان من الصعب رؤية مافيه من نجوم . ثم رأى واحداً منها لبرهة قصيرة جداً ثم اختفى ثانية . وانعطف إلى ناصية ، فجأة أدرك مالاى كامب . لقد أصبح يعرفه أكثر من أى وقت مضى .

مالاى كامب . . صف من شوارع يتلاقى مع صف آخر . . أغلبها شوارع ضيقة . . شوارع قلدة . . شوارع مظلمة . وصف من بيوت يتلاقى مع صف آخر . . وهكذا يستمر الحال . . شوارع تتلاقى مع شوارع . . وبيوت تتلاقى مع بيوت . . بيوت فقيرة المظهر مظلمة تخفى داخلها الحياة والموت والحب والبغض ، ولا تظهر أى شئ لمن يمر بها من الغرباء . وبرك من ماء قدر ملوث فوق أرصفة رملية . وأطفال صغار يلعبون فى هذه البرك . ومجموعات من أناس يقامرون عند نواصى الشوارع . . ومجموعات من أطفال يسرون عند الأطراف . الدنيا من الشوارع ، يفتشون بدقة قنوات المجارى ويتبارون مع بعضهم البعض فى الانقضاض على القاذورات الصالحة للأكل ، ويتقاتلون من أجلها . والساقطات عند نواصى الشوارع والقوادون يرعون أمورهن .

ومن مكان ما وصل إلى سمعه عويل خفيض رتيب لمعزف معطوب يصدر إيقاعا مكتوما لا يتغير ، وصوت مكتوم لحركة أقدام ترقص على أنغامه . وصيحات وصرخات وسباب . واقتتال وارتكاب سرقات وإفك .

ولكن فضلا عن ذلك كله ، كان مالى كامب الحقيقى . . بدفء هوائه حتى فى الليالى الباردة . . بدفء الأجساد الحية فيه ، بدفء الناس الذين يمارسون فيه حياتهم ، ويتنفسون ، ويتنقلون ، إنه دفء كان أشد قوة من الهواء ومن الأرض والشمس ، أقوى من كل الأشياء . دفء الحياة وهى تنبض ، دفء القلوب وهى تخفق ، دفء السكون والصوت ، دفء النشاط والركود ، دثار الحياة الدافئ السميك الداكن . كان هذا مالى كامب . إنه شئ ما مغمور ومغمم بالحياة . إنه تيار من حياة مظلمة .

وحاول اجزوما أن يفكر بصفاء وأن يرتب أفكاره فى أساليب نموذجية من الكلمات ، لكنه أخفق . فحين تطلع إلى الشوارع والبيوت والناس ، رأى أنها مجرد شوارع وبيوت وناس . وكان الإحساس الذى انتابه يشبه حلما غير واقعى .

وحدث نفسه : « سأذهب إلى مكان لياه » . . وانعطف يخطو فى اتجاه ذلك المكان .

كان ذلك مساء يوم سبت ، وتوقع جمهرة من الناس عند محل لياه . ولكن المكان كان ساكنا حين وصل إليه ، وكانت بوابة الفناء مغلقة من الداخل . فذهب إلى الباب الأمامى ودقه ، وانتظر ثم دق

ثانية . وتذكر تلك الليلة الأولى التى جاء فيها إلى هذا المكان ، وبدأ له أنه قد مضى الآن على ذلك وقت طويل جدا . وكان من الصعب عليه أن يصدق ذلك . لقد وقعت أشياء كثيرة منذ ذلك الوقت . إنه لم يستطع حتى أن يتذكر كيف كان شكله آنذاك . ثم دق مرة أخرى .. وكان صوت الدق أعلى .

وانفتح الباب وأطلت منه الأم بلانك ، واستغرق منها التعرف عليه بعض الوقت . ثم انفجرت تطلق ضحكاتها المجلجلة المتقطعة وجذبه إلى الداخل .

- اجزوما ! أين كنت طوال ذلك الوقت ؟ .. لم تكن تكف عن الحديث عنك أبدا .. ادخل ! ادخل ! .

كان ذلك يشبه العودة إلى موطنه .. وها هى الأم بلانك كما كانت دائما . نفس الشياطين الماكرة فى عينيها التى تنبؤك أنها تدرك الكثير رغم أنها قليلة الكلام .

وقال لها : «المكان ساكن الليلة» .

- الشرطة حول المكان .. وقد قبض على كثير من النسوة فى أثناء البيع .

- وكانت لياه على علم بذلك ؟ .

- لياه تدفع لتعرف .

- وهل حذرتهن ؟ .

ورفعت له الأم بلانك حاجبيها وضحكت فى سخرية وقالت :
«لاتزال أبلها» .

وكان البيت ساكناً كذلك ، مثلما كان عليه الحال حين استيقظ
فى أول صباح له فيه . وتبع الأم بلانك إلى المطبخ . وكان فيه
مدفأة ، وعلي الأرض بالقرب منها استغرق داذى فى نوم مخمور فاغر
الفم ، وسيل من لعاب ينساب على جانب من وجهه .

- أين الآخرون ؟ .

- ذهبوا إلى السينما . . لياه واليزا وميزى ، وجوزيف قبض عليه
منذ أسبوعين ، سيقضى فى السجن ستة أشهر ؛ لم يدفع الغرامة .

- ميزى معهم ؟ .

- ألم تسمعنى ؟ . ونظرت إليه الأم بلانك شزرا .

- أنت تكذبين يا عجوز ! .

فضحكت وجاراها هو فى ضحكها .

- لم أقل شيئاً .

- لم تقولى بلسانك ولكن قلته بعينيك . وقد كذبت .

- آه . . وفيم كذبت ؟ .

- تحسبن أن بينى وبين ميزى شيئاً ما .

- صحيح ؟ .

- نعم . ليس من المفيد جلوسك هنا تقولين كلاماً كهذا
وتحاولين أن تكونى كالنعامة . ولكن للنعامة ريش وأنت امرأة
عجوز .

واهتز خدا الأم بلانك وهى تقهقه ضاحكة . وحاول اجزوما أن يبقى جاداً وأن ينظر إليها فى صرامة . لكن هذا كان شبيها بما يحدث فى موطنه ، وكان من الصعب ألا ينخرط فى ضحك المرأة العجوز المرح ، وحين توقف اهتزاز خديها ومسحت دموع عينيها ربتت على ذراعه ولان وجهها المغضن المتهدل العجوز .

- أهكذا علمتك المدينة أن تتكلم .. هه ؟ هذا أمر طيب . لقد كنت شديد الصمت فى أول قدومك ، ولايصح لرجل أن يكون صامتا .. قل لى ، هل تناولت طعاما ؟ .

- أجل . قابلت رجلى الأبيض واصططحبني إلى مكانه لأكل معه .

- آهاه ... سيد حقيقى الآن ، هيه ؟ . يأكل مع البيض ، ويعتنى بملابسه ! فلا عجب أن يهجرنا . وطرفت عيناها . وقال اجزوما : «أنت عجوز حمقاء ! . وتطلع إلى ملابسه ، ونظر إلى المكدفأة «احكى لى عن إليزا» .

- أما زلت تفكر فيها ؟ . وكان صوت المرأة العجوز رقيقا .
- أجل .

- مازالت كما هى . تبكى أحيانا ، وتتعارك أحيانا ، وتمتنع عن الكلام مع أى أحد أحيانا ، ثم تكون مرة أخرى على ما يرام ، وإن كان ذلك يحدث فى بعض الأحيان .

- وذلك المدرس ؟ .

- لست أدري من تعنى ، فهم كثيرون جدا .. إنهم يأتون وتحس تجاههم بالملل ، ثم يكفون عن المجئ بعد ذلك .

- مفهوم .

- وأنت ؟ .
- أشتغل . . . وهذا كل ما فى الأمر .
- ظننا أنك ربما اتخذت لك خلية .
- لا .
- جوهانز يحكى لنا أنهم يحبونك فى المناجم .
- هل هى تخرج كثيرا ؟
- تخرج أحيانا . وأحيانا تقبع فى البيت طوال الوقت . أنا أدرى ماتخشاه ، لكنى اعتقد أنك مخطئ ، فهى ليست امرأة منحلة ، قد يتعرف عليها إنسان ما ، ثم تعود ثانية دون أن تكون على علاقة بأحد ، ذات مرة كان ثمة رجل ، لكنه راح ومضى . وكان ذلك من فترة طويلة .
- وأنى لك أن تعرفى ؟ .
- لأن لى عينين ، ولست غيورة مثلك . أنتم دائما تقولون عنى أنى (امرأة عجوز) ، لكنى أستطيع أن أدرك الأمور .
- وحملق اجزوما فى المدفأة ، وكان دادى على الأرض ينخر ويرفس برجليه وهو نائم . ومن فمه كانت تتدفق الشتائم . ثم استدار لينام على جنبه وبدأ يتبول . وتكونت على الأرض بركة ماء ، وشاهدها اجزوما فارتسمت على وجهه علامات التقزز .
- ونخر دادى ثانية ثم تدحرج إلى البركة التى كونها .
- أنت تحتقره يا اجزوما . . هيه ؟ .
- وباغته صوت الأم بلانك .
- إنه إنسان ولكن انظرى ماذا يفعل .

- لقد رأيت يا اجزوما ، بل رأيت حتى ماهو أسوأ من ذلك .
وتنهدت .

وظل اجزوما مركزا بصره على المدفأة .

- إنك تحتقره .. هيه ؟ . رغم أنه حين قدم إلى المدينة لأول مرة كان نعم الرجال . كان قويا ومهابا ومحترما . ربما تظن أنني امرأة عجوز ولكن اسمع يا اجزوما ، لقد كان رجلا من ذلك النوع الذى لم أر له مثيلا أبدا .

وابتسمت الأم بلانك وهى غارقة فى تفكيرها وتطلعت إلى المدفأة ،
وحين عاودت الكلام كان فى صوتها مرارة «حين كان يهبط إلى الشارع تتوقف النسوة وتتطلع إليه ويحييه الرجال . كل إنسان احترم حكمته .. وكانوا يلجأون إليه حين تواجههم المشكلات ، فكان يعينهم . حتى البيض كانوا يحترمونه ، وأنت الآن تحتقره . كان لديه يومذاك المال والأصدقاء الكثيرون ، وكان الرجال يرون فى صداقته شرفا لهم ، وتاقت إليه النساء . وحين تقع مشكلة تتعلق بجوازات المرور كان يتقدم صفوف الناس ويتحدث إلى المئات منهم ، فخشيته الشرطة . كان على وعى فقاتل من أجل بنى قومه ، وحين اشتد وعيه أشقاه هذا الوعى وجعله مثل اليزا ، ولكنه كان يكافح فحسب .
اسمع يا اجزوما .. هذا الشخص الراقد هناك فى بوله أكثر حكمة من اليزا ؛ فى إمكانه أن يقرأ ويكتب أفضل حتى من اليزا . لقد عثر على لياه فى الشارع ورعاها . أجل يا اجزوما .. أنت تحتقره . ولكنى أقول لك إنه كان رجلا من ذلك النوع الذى لم أر له مثيلا أبدا .. » .

ونظر اجزوما إلى الأم بلانك . كانت عيناها مبتلتين ، تنحدر دموعهما على وجتتيها دون انتباه . بيد أن عينيها كان فيها بريق غريب ، كما لو أنها مازالت ترى الرجل الذى كان موضع احترام الناس جذاباً .

ونظر إلى دادى . . وكانت ملابسه قد امتصت البركة التى كونها . وأراد اجزوما أن يقول شيئاً ، بيد أنه لم يكن لديه ما يقوله ، ونظرت إليه الأم بلانك من خلال دموعها . فربت يدها على نحو أخرق وحدث فى إحدى أركان الغرفة ، ونهضت الأم بلانك وقالت :

- ساعد الشاى .

ونظر اجزوما إلى دادى وكان نائماً نوم مخمور غارقاً فى بوله ، وحاول أن يتصوره رجلاً مفيقاً يحترمه الناس ويتبعونه ولكن كيف أصبح كذلك ؟ . إنه لم ير دادى أبداً مفيقاً . . لم يره أبداً يقف معتدلاً دون أن يترنح من جانب لآخر . ومع ذلك قالت عنه الأم بلانك إنه كان رجلاً من ذلك النوع الذى لم تر له مثيلاً أبداً . وكان ذلك أمراً حقيقياً ، لأن صوتها كانت فيه رنة صدق ، كما كان فى عينيها شعاع صدق . وهامو الآن ملقى على الأرض هناك منقوعاً فى بوله . ولكن كيف يمكن أن يحدث ذلك ؟ وهنا أعلنت الأم بلانك :

- لقد عاد الآخرون . . أستطيع سماع أصواتهم .

وتنصت اجزوما لوقع الأقدام . . لقد كانوا يقتربون . ترى هل ستسر اليزا لرؤيته ؟ . . وماذا ستقول لياه ؟ والآخرى . . هل مازالت عيناها تضحكان ؟ . وانفتح الباب . . ورفع ناظريه . وكانت لياه أول من دخل . فارتفع حاجباها وارتسمت ابتسامة على طرف فمها حين

رأته . وكان هذا كل ما حدث . ثم أقبلت اليزا فنظرت إليه ، وكان في عينيها شعاع غريب ، ثم أشاحت عنه بوجهها . ثم دخلت ميزى والضحك يشع من عينيها ، وحين رأته غطى الضحك كل وجهها . وكانت هي الوحيدة التي حيته . وشعر اجزوما بالاستياء . لقد تصرف لياء واليزا وكأنه كان موجودا معهما طوال ذلك الوقت . وكان ذلك أمرا عاديا جدا . وكنتم في نفسه بهجة الترحاب التي كانت تغمر القلب .

ومضت لياه ووقفت على رأس دادى ، ثم انحنت والتقطته كما يلتقط الإنسان طفلاً ، وحملته وخرجت به من الغرفة فى يسر وبمقدرة تنم عن القوة . أما اليزا فقد خلعت معطفها وحلت الوشاح الذى كان حول رأسها ، ثم جلست ومدت يديها إلى المدفأة . ونظر اجزوما إلى اليدين . . كانتا ناعمتين . أحس بنعومتها دون أن يلمسهما . . تماما كيدى المرأة البيضاء . . ويدى زوجة الدكتور . وراح يتطلع إلى الذراعين والكتفين ، إلى ارتفاع الصدر وهبوطه ، إلى الاستدارة التى تتصل عندها جيدها ووجهها ، إلى نعومة وجهها الأملس ، إلى سواد عينيها ، فاشتعلت لديه الرغبة .

وكانت الأم بلانك قد أعدت الشاى ، فراحت تقدم لكل منهم قدحا ، ولم يكن فى الغرفة أحد سواهما . لم يكن وجود الآخرين مهما . . وهم فى حقيقة الأمر لم يكونوا موجودين . . هو وهى فحسب كانا فى الغرفة .

وتحت تأثير حدة نظراته رفعت عينيها وتطلعت إليه . . كان الظلام يحيط بهما . ولم يستطع أن يرى سوى طيف وجهها وبريق عينيها . وكان الأمر بالنسبة إليها كذلك . كل شئ تلاشى إلا هو وهى فحسب . . كانا هناك وحدهما فى هذا العالم . . وحدهما فى كل مكان .

وراحت ميزى تدبر بصرها بين اجزوما واليزا ، ثم إلى الأم بلانك ، وبحركة بسيطة أومأت الأم بلانك برأسها فأشاحت ميزى بوجهها ، ثم عادت لياها ، وهى تتطلع إلى اجزوما «حسن» . مرة أخرى كانوا كلهم هناك . . الأم بلانك وميزى والمدفأة والغرفة والنافذة وصوت الشارع . وفى مقدمتهم جميعا . . لياها . . ورفع اجزوما ناظره إليها .

فسألت لياها : «كيف حالك» ؟ .

وأجاب اجزوما مبتسما : «كالمعتاد» .

وقدمت الأم بلانك قدح شاي إلى لياها .

- مضى وقت طويل . قالت ذلك وأدارت ناظرها بينه وبين

اليزا .

وفكر اجزوما . . إنها تفهم كل شئ . . كالعادة دائما وقال :

«نفس الحال» .

وطأطأت رأسها وحدثت فى المدفأة . ثم رفعت بصرها وركزت

عينها على ميزى .

- هذا الشخص اشتاق إليك .

وتطلع اجزوما إلى ميزى . لم يكن فى عينها ذلك الضحك

وهى تنظر إلى وجهه مباشرة ، وضحكت لياها برقة ؛ وغطت دفقة

احمرار بشرة ميزى الممتعة ، وغضت من بصرها ، وحين رفعته ثانية

كانت الضحكة قد عادت إلى عينها . وكانت دفقة الاحمرار

والضحكة جذابتين تماما ، وشاهد اجزوما وسامتها . لقد بدت هذه

الوسامة فى عينيه وكأنها تعويذة سحرية .

ودارت عينا اليزا بين اجزوما وميزى ، ثم انتقلتا إلى لياها ،

وفجأة نهضت واقفة وغادرت الغرفة ، فضحكت لياها ثانية برقة .

- مارالت كما هي ، لكنها لم تنسك .. وأنت ؟ . وكان في صوتها تهكم وخشونة وحدة .

ونظرت الأم بلانك بحدة إلى لياه ، وأتت ميزى حركة عصبية برأسها وضحكت ، وبدا ضحكها مصطنعا . ونظر اجزوما إلى لياه ، وكانت عيناها جامدتين شاردتين وقد تركزتا على وهج المدفأة الأحمر وقالت ميزى في تردد : «التقيت بعامل من المناجم وسألته عنك» . وقال اجزوما بلا اهتمام : «نعم» .

وقالت ميزى : «لكنه لم يكن من منجمك» .

وقال اجزوما : «لياه» .

ورفعت لياه بصرها ، وكان صوته أجشًا صارمًا فهزها .

- نعم ؟ .

هل تريدني أن أنصرف ؟ .

- أجل .

ونفض اجزوما واقفاً .

وقالت الأم بلانك وميزى معا : «ولكن يالياه ...» .

فقالت لياه : «اخرسا» .

فقال اجزوما : «طابت ليلتك» وانصرف .

ونفضت ميزى وهرعت إلى الباب ، فصرخت لياه : «عودي» فترددت ميزى ، ثم عادت إلى مقعدها . وراحت لياه تراقبها . وقد

عادت إلى جانب وجهها البسمة الملتوية ، وكانت عيناها صارمتين
وشاردتين ، ثم فجأة خرجت من الغرفة . وأرادت مى أن تلحق بها
لكن الأم بلانك أشارت إليها بأن تعود إلى مقعدها .

وأسرعت لىاه تهبط الشارع وراء اجزوما ، فلاحقت به عند
الناصية ونادته : «اجزوما» .

توقف وانتظر . لم يستدر وكانت هى الآن قريبة منه . وتوقفت
ونظرت إلى ظهره : «اجزوما» .

- نعم .

وسادت لحظة صمت طويلة . كان يعلم أنها تريد منه أن يستدير ،
ولكنه لم يقو على ذلك ، لم يكن يدرى أهو يريد ذلك أو لا يريد .
لكنه فقط لم يستطع .

- اجزوما . . وكان صوتها رقيقا وفيه رجاء .

وقفز قلبه فرحا . . كان صوت لىاه رقيقا وفيه رجاء . .
واستدار . . وكانت قريبة منه وفى عينيها دموع ، وسلمت عليه
وفعلت يداها فعل السحر . . وانطلق تيار من الدفء مجهول إلى
جسده . . وابتسمت من خلال دموعها . ثم أمسكت به بسرعة
واحتضنته ، وأسندت رأسها على صدره ، وراح جسدها يهتز من
النشيج . ولف ذراعه حولها واحتضنها بشدة . وأخذ المارة يتفرجون
عليهما . ثم وبالسريعة التى أمسكت به دفعته بعيداً عنها . ومرة
أخرى عادت صلبة وقوية . ثم جففت الدموع من عينيها وابتسمت
وقالت :

- يتلبسنى الليلة شيطان . هيا ، ستمشى قليلا قبل أن نعود إلى البيت .. هيه ؟ .

وانعظفا عند الناصية ومشيا صامتين .. وكان من حولهما أناس .. أناس صاعدون وأناس هابطون .. بعضهم متمهلون ، والبعض مسرعون . ومن حولهما ، ومن حول الناس ، ومن حولهم جميعا ، كان ضجيج المدينة .

لقد خلقت دمدمة الترام والقطارات وضجيج السيارات وأصوات الناس ووقع الأقدام ، خلق كل هذا ضجة انسلخت فى آن واحد عن أسبابها وكان لها خصوصيتها المتفردة .. دمدمة واضحة مميزة تتردد من باطن الأرض ومن أفواه الناس وقلوبهم ومن الآلات ، وترتفع ، وترتفع عاليا فوق مسياتها . ومرا بعمود إنارة مقوس . وكان تحته رجل وفتاته متشابكين فى حضن دافئ . وتكلمت لياه : «ألقوا القبض على جوزيف . اعتقد أن ثمة واحد يشى بى ، ولا أستطيع اكتشافه ، إننى أشعر بذلك وتطلعت إليه ، ثم أشاحت عنه بوجهها .

وسألها : «أغاضبة أنت منى ؟» .

وضحكت : «أنت إنسان بسيط يا اجزوما . وساذج مع الناس» .
وابتسم اجزوما . كان ثمة سلام غريب فى قلبه . كان يعجبه أن تقول عنه إنه ساذج مع الناس . إنه لا يؤمن بأن هذا صحيح ، ولكنه يعجبه . وإنه لشيء طيب للغاية أن يتمشى معها .. كأنه فى موطنه فى الريف ثانية . يتمشى فقط فى هدوء .. هكذا كان يتمشى مع أمه .. وهكذا كانت أمه تؤنبه ، وكان فى جو مالاى كامب وداعة .. ربما كانت موجودة طوال الوقت ، ولكنه لم يلحظها إلا الآن فقط .

وكان هذا يشبه الليلة الأولى حين التقى بلياه . إنهما لم يتحدثا كثيرا ، ولكنهما تفاهما . أدركت أنه إنسان يدعو إلى الاطمئنان بمجرد النظر إليه . وهو نفس ما يحدث مع الناس في الريف . إنهم يتفاهمون ويتعارفون . . وكان الموقف الآن شبيها بذلك مرة أخرى .

وقال لها وهو يتأبط ذراعها : «أنت إنسانة طيبة» .

وتركته يتأبط ذراعها بعضاً من الوقت ثم انتزعتها منه وقالت : «يجب أن نرجع» . وراحت النعومة عن صوتها . لم يكن صوتها ينم عن شخصيتها ، كان خالياً من العاطفة مرة أخرى . وحين عادا كانت اليزا قد ارتدت إلى المطبخ وجلست تقرأ أمام المدفأة . لم ترفع ناظرها حين دخلا ، في حين نظرت إليهما الأم بلانك وميزى . وولى الضحك عن عيني ميزى وإن كان كامناً فيهما ، يلوح من خلف الأستار ، على استعداد لأن ينفجر ثانية ، وكانت الأم بلانك كما هي دائماً ، ترى كل شيء ولا تقول شيئاً .

وقالت لياه لاجزوما : «ستنام هنا . . هيا الآن فالوقت متأخر» .

وتساءلت الأم بلانك : «أين سينام ؟» .

- في الغرفة الصغيرة . يمكن لميزى أن تنام معي ، ويمكن لاليزا أن تنام في غرفتها .

وقالت اليزا وهي توجه بصرها إلى اجزوما : «سأقرأ لك» .

وقالت لياه وعيناها على اليزا : «الوقت متأخر» .

وقالت ميزى : «طابت ليلتكم» ومضت .

وقالت الأم بلانك : «دعيتها تقرأ» واتجهت ناحية الباب .

هزت لياها كتفيها استهجاناً ، وتغضن جانب فمها الأيسر ، ثم
لحقت بالأم بلانك ، وخفق ضوء الشمعة حين انغلق الباب خلفهما .

ورفعت إليه اليزا عينيها وابتسمت .

- هل أقرأ ؟

- أجل .

وفتحت الكتاب وراحت تقرأ . وكان الكتاب يضم قصة حروب
الزولو . والزولو لغة جميلة ونابضة بالحياة ، وكان صوت اليزا
رقيقاً ، وظلت العبارات تتدفق حتى وقع اجزوما في سحرها . ومرة
أخرى كانت جماعات كبيرة من الزولو متاهبة للهجوم على الرجل
الأبيض الذي سيسلب أراضيهم . وفقد الكثيرون حياتهم ، ولكن من
تقدم للقتال كانوا أكثر ، بيد أنهم هزموا في النهاية ، وانتزعت منهم
أراضيهم ، لأن الرجل الأبيض كان أقوى . واشتد الأسى في قلب
اجزوما لأنهم خسروا الحرب وبدأ ذلك في عينيهِ . وأغلقت اليزا
الكتاب .

فقال لها : «جميل ، ولكن من المحزن أننا خسرنا» .

- أجل .

واحترقت الشمعة وتوهجت منها آخر ومضة ثم خمدت . وجلسا
في وهج ضوء المدفأة ، ومالت اليزا إلى الأمام وأشعلت سيجارة من
المدفأة ، وذكره ذلك بخليطة الأحمر البيضاء .

وقال لها : «لقد شاهدت مقتنيات الرجل الأبيض» .

- نعم . . ولم يكن فى صوتها ماينم عن الاهتمام .

فقال لها سأذهب الآن لأنام .

فنظرت إليه ولكنها لم تنفوه بشئ . وخرج إلى الفناء وهبط إلى غرفة عند الناحية البعيدة . وكانت الغرفة كما هى تماما عندما تركها . لم يتغير فيها شئ ، فخلع ملابسه ودخل الفراش وأطفأ الشمعة .

لقد كان يحس بأن هذا بيت حين لم يكن فيه سوى الأم بلانك ودادى ، ولكن الوضع اختلف حين قدم الآخرون ، فلم يكن الوضع كما كان قبل أن يغادر المكان . حتى لياه تغيرت .

وانفتح الباب فدخلت اليزا وأسنانها تصطك . وأحس هو بطوق محكم حول قلبه ، وتذكر تلك الليلة السابقة فقال لها :

- دعينى .

- كلا .

وأشاح بوجهه عنها فدخلت الفراش ، وكانت مقرورة . شعر هو بذلك . وارتجف بدننها وتحسست يده فانتزعها بعيدا . واسترخت هى ، وكفت أسنانها عن الاصطكاك ، وتوقفت رجفة بدننها ، ورقدت ساكنة تماما ، لا تحاول أن تلمسه أو تتزحزح بعيدا عنه .

وأحس اجزوما بجنون الرغبة يثور داخله ، وأنه سيفتك به فى الحال ، فكرر القول :

- دعينى .

واستدارت على جنبها وضغطت بجسدها عليه مرغمة إياه على
أن يشعر بقربها منه ، وقالت له : «أحبك» .

فما كان منه إلا أن عصر جسدها الناعم الدافئ تحت جسده
فالتصقت به فقال لها : «أحبك» .

وحين انطفأ اللهب من جسديهما وفرغا من إشباع رغبتهما
استلقت في غور كتفه تتحسس عضلات ذراعه ، فجذبها إليه برفق
وحنان كما يمسك الإنسان زهرة .

وسأله : «لم أقمت بعيدا عن هنا ؟» .

- لم تكن بك رغبة في .

- ليس هذا صحيحا . لقد آلتك في تلك المرة الأولى .

- لم يكن شيئا ذا بال .

- آلتك . وحين عدت لم تدرك مدى رغبتى فى أن تستحوذ

على .

- أنت رغبت فى ذلك . . لماذا ؟ .

وضحكت برقة : «لياه على صواب . . أنت ساذج مع الناس» .

- لماذا جئت لأستحوذ عليك ؟ .

- أوه أيها الأحمق ! كنت أرغب فيك أنت فحسب .

- إننى أحبك .

- أعرف .

- أحببتك منذ البداية .
- ورسمت دائرة على صدره .
- هل عرفت ذلك ؟ .
- أنا لست ملائمة لك يا اجزوما .
- هراء .
- هذا صحيح . بداخلي شيطان يريد أشياء لا أستطيع الحصول عليها .
- أنت جميلة .
- شيء طيب أن تقول هذا .
- إنها الحقيقة .
- إنني أحبك يا اجزوما .
- قالت ذلك والتصقت به واستسلمت للنوم .

استيقظ اجزوما من نومه العميق الهادئ فى تراخ وعلى كره منه ،
ومد يده يتحسس اليزا ، وكان طوال الليل يحس بوجودها بجواره . .
بكل حركة . . بكل تنهيدة . . بكل غمغمات طفولية فى أثناء نومها
. . باستكانتها لصيقة به . لقد فرضت كل هذه الأشياء البسيطة فى
أثناء نومه وجود اليزا وجعلت نومه هذا عميقاً وهنيئاً .

استيقظ مرة فى الليل وراح ينصت إلى انتظام تنفسها ، فاستولى
على قلبه حنان شديد وإحساس كبير بحمايتها . وعندئذ وبلمسة واثقة
رقية غطاها ، كما تغطى الأم طفلاً لا يقيه شئ .

وتحسس الوسادة فقط . . فانتصب جالساً شديد اليقظة على نحو
مفاجئ . لم تكن موجودة ، لا فى الفراش ولا فى الغرفة . وفكر
. . ربما راحت تعد الشاى . ولكنه أدرك أن الأمر ليس كذلك . كان
موضع نومها بارداً ؛ لا بد أنها خرجت منذ فترة طويلة . وأدرك دون
أن يدري سبباً لذلك أنها مضت ولن تعود إلى الغرفة . فنهض وارتدى
ملابسه .

كانت الشمس فى الخارج مشرقة ، بيد أنها كانت باردة غير مؤثرة
لاستطيع تبديد برودة الجو القارس .

وصاحت الأم بلانك : «صباح الخير يا اجزوما ، هل نمت نوما
هنيئاً ؟» .

فقال اجزوما : «هنيئاً جداً . . وأنت ؟» .

ومن نافذة المطبخ صاحت ميزى «كنت على وشك أن أحضر لك القهوة» .

فقال اجزوما : «شكرا لك ، سأتى وأتناولها منك» .

واغتسل تحت صنوبر ماء فى الفناء ، ولسعه الماء البارد .

وقالت ميزى : «يوجد هنا ماء ساخن» .

فرد : «لقد اغتسلت» .

وضحكت ميزى ، وكان فى صوتها بهجة صباح صيفى ، فابتسم اجزوما وذهب إلى المطبخ ، فقالت له ميزى وعيناها تضحكان فى وجهه : «يبدو أنك فى حالة جيدة» .

فقال : «أشعر أنى كذلك» .

وتساءلت الأم بلانك : «ما الذى جد عليك ؟ .. فى الليلة الماضية كنت نكداً متجهماً ، والآن تبدو كمن استطاع الوثب فوق الشمس ، هيه ؟» .

- ربما استطعت ذلك .

وبنظرة طويلة متأنية قدمت له ميزى قدح القهوة وقالت : «أجل ، ربما أنه استطاع» .

- أين الآخرون ؟

فقالت ميزى : «اليزا فى غرفتها» .

وقالت الأم بلانك : «ولياه ذهبت تبحث عن ذلك الذى يشى بنا» .

واحتسى اجزوما قدح القهوة بكامله ثم نحاه جانبا ، فسأله
ميزى : «المزيد ؟» .

- كلا .

- أهى نائمة ؟ .

- كلا .

وعبر اجزوما الغرفة فقالت ميزى : «لاتذهب» .

أمال اجزوما رأسه وابتسم ، فأدارت له ظهرها وأطلت من النافذة .
وانطلق اجزوما ودق باب اليزا ، فلم يتلق رداً ، فدق ثانية ثم دخل .
وأدارت اليزا رأسها الذى كان يواجه الحائط ونظرت إليه ، فقال لها :
«أهلاً» وأراد أن يضمها بين ذراعيه فدفعته وابتعدت عنه .

- لا يا اجزوما .

وتوقف اجزوما وراح يتطلع إليها .

- ماذا دهاك ؟ .. أمعتلة أنت يا حبيبتى ؟ .

- كلا ! لا أريدك أن تلمسنى .

- لكنك يا اليزا فى الليلة الماضية فقط

- كنت حمقاء فى الليلة الماضية . اتركنى أرجوك .

- ولكن ...

- امش من فضلك .

- لو أنك تبتغين مقتنيات البيض فلا بأس . سوف ندخر مالا ونحصل عليها ، هيه ؟ .

- امش من فضلك يا اجزوما ! .

وحاول اجزوما أن يتكلم ثانية فأشارت إلى الباب : « اخرج من فضلك » .

وكور اجزوما قبضتيه ومضى ، ودفت اليزا وجهها فى الوسادة وهز النسيج جسدها كله من رأسها إلى أخمص قدميها .

وراح اجزوما إلى الفناء ولحقت به ميزى وقالت له : « آسفة » .

- ليس ثمة ما يدعو للأسف .

وتطلع إلى السماء ، وكانت الشمس تغطيها سحابة .

- حاولت أن أحذرك . ودست يدها فى يده وضغطت عليها .

وأحس بصلاية يدها الصغيرة . لم تكن رقيقة كيد المرأة البيضاء ، أو زوجة الدكتور أو يد اليزا ، لكنها أراحتة . فضغط هو الآخر على يدها وقال لها : « أنت شفوقة » .

- لست شفوقة .

وصاحت الأم بلانك : « الطعام جاهز » .

ودخلا ، وكانت لياه قد عادت ، وبدا وجهها ذابلا من البرد ، ورغم ذلك بدت أقوى من ذى قبل .

وسألتها الأم بلانك : « هل عثرت على أى شئ ؟ » .

- كلا ، يوجد شخص ما يشى بى ، هذا أمر يقينى ، ولقد رأيت الشخص الذى يحذرنى . استجوبوه بدقة ، وهو خائف حتى من أن يتكلم معى . نعم ا ثمة شخص ما يشى بى ، ولكن لا يستطيع أحد أن يخبرنى من هو ذلك الشخص . ولقد لقيت المفتش فى أثناء عودتى وأبلغنى أنه سوف يقبض على .

فقالت الأم بلانك : «توقى إذن عن البيع فترة قصيرة» .

ونخرت لياه : «وأظن أن السماء ستمطر علينا نقودا . يجب أن أبدأ فى الحال ، ولكن يجب قبل ذلك اصطياذ الخنزير الذى يخوننى ، لو اصطدته ...» وفردت كفيها ثم كورتها بعنف .

- ولكن كيف تكتشفينه ؟ .

- إنه نفس الشخص الذى خان رجلى والذى خان جوزيف . هذا ما أوقن به الآن ...

وانغلق الباب الأمامى بعنف .

وقالت الأم بلانك : «اليزا» .

ووثب اجزوما وهرع إلى الباب الأمامى ، فرأى اليزا تسرع فى هبوط الشارع ، فناداها ولكنها مضت فى طريقها دون أن تلتفت إليه . ورجع إلى المطبخ ، والتفت عيناه بعينى ميزى ، وقال : «لقد خرجت» .

وتحولت بهجة الليل إلى مرارة فى نفسه وكان توقه إليها أكثر من أى وقت مضى ، لأنه خبرها ووجد لها دافئة جدا ، وجذابة جدا .

والآن .. كل شئ قاتم ومؤلم .

ويقوة أمرته الأم بلانك : « كل ! » وإن بدت الشفقة فى عينيها .

واردادت ميزى منه اقترابا وقالت : « أنا ذاهبة إلى بعض صديقاتى ، فلن أعمل اليوم . تعال معى ، ولسوف يعينك هذا على السلوان . إنهم أناس طيبون ، ولسوف يكون فى هذا خير لك . » وكان صوتها رقيقا يحاول استمالته .

وقالت الأم بلانك : « تناولى طعامك يالياه » .

وتساءلت لياه : « أين دادى ؟ .. هل أحضرت له شرابا ؟ » .

- أجل ! وهو على مايرام . إنه لا يستطيع أن يتحرك الآن ، لكن الشراب سينعشه فى الحال ، وسيأتى ليأكل .

وقالت لياه وهى مستغرقة فى التفكير : « سوف أنصب فخا » .

وقالت الأم بلانك : « لعلها تكون تلك المرأة الصفراء .. ليزا السكرية » .

- كلا .

- وأنا على يقين من أنه لن يكون جوهانز أو لينا .

- ليسا هما بالطبع .

وقالت ميزى تستميل اجزوما : « خير لك أن تأتى معى » .

وقال لها : « أنت حمقاء لانشغالك بى . وأنا أحقق لرغبتى فى اليزا ، تلك المرأة ، وإنك لحمقاء بقلقك على » .

- أعلم أنى لست حمقاء . هل ستأتى معى ؟ . وكان فى صوتها وعينيها استجداء له .

إن رغبة إنسان ما فيه بعد المعاملة التى لقيها من اليزا جعلته يحس بشعور أفضل . وكان من الأمور الطيبة إدراكه أن شخصاً ما يهتم بأمره

وقالت مى : «أعرف أنها كانت معك طوال الليلة الماضية» .

ونظر إليها . . لقد عرفت ، ورغم ذلك تريده أن يخرج معها ، فقال لها : «أنت إنسانة غريبة» .

وابتسمت . . وكان ثمة شئ ما قائم يختفى وراء ضحكات عينيها . كانت تريد أن تخبره أن اليزا لاتصلح له ، ولكنها تدرك أن ذلك سيكون أمراً مميتاً . كانت تعلم أن الشئ الوحيد الذى يجب تجنبه هو الحديث عن اليزا .

- هل ستأتى ؟ . . المسافة بعيدة جداً ويجب أن ندرك الحافلة حالاً . ستعجبك . . ستشعر هناك وكأنك فى الريف . هناك عشب فى الأرض وأشجار ، وهناك نهر وهناك أبقار ومزارع . هل ستأتى ؟ .

وضحك . . أدرك من طريقة وصفها للمكان أنها تحس بالغربة حين تبعد عن المدينة .

- لماذا تضحك ؟ .

- ألم تذهبي أبداً إلى المزارع ؟ .

- أجل . لم أذهب .

- هذا هو سبب ضحكى . حين تتكلمين عنها يمكن للمرء أن يدرك أنها غريبة عنك .

وقالت لياه للأم بلانك : «نعم ! سوف أنصب لهذا الكلب فخا» .

ونفضت ميزى وذهبت إلى غرفة أخرى . وحين عادت كانت ترتدى قبعتها وسترتها . ورجته عيناها أن يأتى . فقال فجأة :
- نعم ! سأتى معك .

وخرجت ميزى وأحضرت قبعته وسترته وعاونته فى ارتدائهما .
ثم قالت لياه : «إنى ذاهبة إلى هوبفلاى ، واجزوما ذاهب معى كذلك» .

وقالت لياه فى شرود : «وهو كذلك» .

وقامت الأم بلانك بتوصيلهما حتى الباب . وخرج دادى من إحدى الغرف يزرر فتحة بنظلولونه . لقد كان فى أولى مراحل سكره .

وقالت الأم بلانك : «لياه قلقة» ثم ابتسمت لهما وواصلت «لاتكونا شديدى الفحش» وربت على عجيذة ميزى .

وقال اجزوما : «كفى عن هذا يا عجوز» ، وضحك .

وقالت الأم بلانك «اسمعى ما يقول» ودارت حول نفسها ببراعة وضربت بكف يدها فى نفس الوقت عجيزتها بصوت مدو . «وهو يعبرنى بأنى عجوز . . إننى أستطيع أن أؤدى أفضل مما تؤديه كثير من

الفتيات الصغيرات . وإذا شككت فى هذا يا اجزوما فى أى وقت
فتعال واكتشف ذلك بنفسك» ودفعتهما إلى الخارج ووقفت فى الشرفة
تضحك .

ونظر اجزوما إلى ميزى وابتسم قائلاً : «إنها امرأة فكهة» .

- هى تتهكم ، لكنها طيبة وحكيمة جدا . فهى لا تتفوه بشئ ،
وإن كانت تشاهد كثيرا من الأمور .

وتوقفا عند الناصية ولوحا لها فلوحت لهما ، وكان دادى يقف
بعجوارها .

وهرعا إلى محطة الحافلات ، فشاهدا حافلة هوبفلاى تتحرك فى
التو ، فعدت ميزى خلفها بأقصى سرعة وتبعها اجزوما وقفزا إليها
فألفياها مزدحمة ، لكنهما وجدا مكانا فى المؤخرة . وجلسا متلاصقين
يضغط كل منهما الآخر . وكان ذراع اجزوما مدفوسا فى جنب ميزى
فاستله ووضعته حول كتفها . ورنّت إليه ببصرها فسرى إليه ما فى
عينها من ضحك ، وضحكا بلا سبب .

وقالت ميزى شيئاً ، لكن الجلبة كانت من الشدة بحيث لم
يستطع معها اجزوما أن يسمع ما قالت . وأحنى رأسه وكررت هى
المحاولة ولكنه ظل عاجزا عن سماعها ففتحت حقيبتها وأخرجت منها
علبة سجائر ، وتناولت منها واحدة ووضعتهما بين شفتيه وأشعلتها ،
ثم أغلقت بعدها عينها ، واستسلمت للنوم على كتفه . وفجأة شعر
اجزوما بالغبطة كالشعور الذى انتابه فى تلك الليلة التى أخذته ليشارك
فى حلبة الرقص ، هذه الإنسانية تعرف كيف تسعد نفسها ، وتعرف

كيف تضحك . وجميل جدا أن تجعل الآخرين يضحكون ويسعدون
كذلك .

وبعد مضي ساعتين استيقظت ميري التي نامت نوماً متقطعاً ،
وراحت تتلفت حولها لتحدد اتجاههما ثم قالت :

- نحن في المكان تقريبا . سوف نسلك طريقاً صغيراً ، ثم نمشي
هابطين . المكان مبهج وسيعجبك .

وسارا ميلين بعد ذلك . وأخذت ميري يده وسارت به في ممر
ضيق . لقد كانا في منطقة ريفية متسعة تكاد تخلو من المباني ، ذكرته
باتساع موطنه . . يسكونه وطمأنيتته وثره الطيب . لم تكن الطرق
صلبة مرصوفة بالحصى ، لكنها كانت تراباً متماسكاً رقيقاً .

وقالت ميري : «انظر الآن» .

ووصلا إلى منعطف ، ومن تحتها قام الوادي ، الذي استقرت
في أحضانه هويلاي - وادي الرجاء - في جوفه مجموعة من بيوت ،
وبعض من الشوارع ، ومن ورائه كان النهر يجري .

وقال اجزوما : «الجو جميل» وأخذ نفساً عميقاً .

وقالت ميري : «كنت واثقة أنه سيعجبك» .

وقال اجزوما : «إنها الأرض الزراعية والتربة . كل شيء جميل» .

وقالت ميري : «هيا» . وجرت هابطة الممر الضيق .

لقد جرت برشاقة ويسر ، تثب فوق الأحجار وتتفادى الحواف
الصخرية الناتئة . وتبعتها اجزوما فى حركة أكثر بطئا ، يمتص الهواء
النقى ويتطلع حواليه بعيون نهمة . لقد كان شوقه إلى الأرض الزراعية
أشد عما كان يتصور ، ها هى الآن ، بمساحاتها المتسعة . ومرة أخرى ،
كانت السماء تقترب من التربة .

وصاحت ميزى : «تقدم» .

فصاح فى مرح : «وهو كذلك» .

وسرت إليه عدوى ضحكها الصافى البهيج .. أجل ، كان الجو
يشبه موطنه . وجرى هابطا الممر الضيق المنحدر . وحين أصبح على
بعد عدة ياردات منها اندفعت بعيداً عنه وصاحت : «حاول أن تمسك
بى» .

واندفع اجزوما وراءها وأمسك بها ، ولكنها أفلتت منه ، ووثبت
متجاوزة إياه وهى تضحك .

- أمسك بى .

- سأفعل .

وكان يشعر بمثل ما شعر به فى تلك الليلة التى راحا فيها
يرقصان . شعر بأنه متحرر تماما وسعيد . وأخذا يعدوان يطاردا
أحدهما الآخر وهما يهبطان الممر الضيق المنحدر ، ميزى فى المقدمة
وهو فى أعقابها وقريبا منها . وكانت ميزى تعدو فى سهولة وسرعة .
وما من مرة يدنو منها ويمد يده ليمسك بها ، إلا وتروغ منه ، ويسمع
رنات ضحكها المرح .

وخفف اجزوما من سرعته وكذلك فعلت ميزى ذلك أيضا ، ثم انطلق فجأة وأمسك بها من خصرها ، وهوى كلاهما يتمرغان فوق العشب ورقدا يلهثان ويضحكان ، يلفهما دفء لم يشعر معه ببرودة الجو .

وقالت له : «خدعتنى» .

- عجباً ! ولكنك تستطيعين الهرب .

ووثبت ميزى واقفة وقالت : «يجب أن تمضى الآن . سيرى أصدقائى الحافلة ، وسيظنون أننى لست قادمة إليهم . هيا بنا» .

وسارا منحدرين بجوار النهر . وراح اجزوما يقذف فيه حصوات ، وميزى تتراقص قريبا منه ويعيدا عنه كما فعلت فى تلك الليلة التى ذهبا فيها للرقص . وكان اجزوما سعيدا . . وأدركت هى ذلك ، فهى التى أسعدته . إنه ربما يسجى وراء إيزا ، ولكنه كان معها مرتين ، وفى المرتين كان سعيداً ، ولسوف يتذكر ذلك . . فهكذا هم الرجال .

وقال اجزوما : «كأنه الموطن ، وهو كذلك لأننى معك ، وأنت تعرفين الأشياء التى تجعل الإنسان سعيداً» .

ورمقته ميزى بنظرة سريعة . . وكان هو ينظر إلى الأرض ، وفى عينيه خواء وطمأنينة . وتطلعت هى إلى مصب النهر ، وأسرعت من خطوها وأبطأ اجزوما من سيره ، وراح ينصت إلى اندفاع الماء الرقراق فوق الحصى ، ويشاهد الدوامات التى تنشأ عن اعتراض صخرة ناتئة تدفق الماء ، أو بسبب فرع صفصاف يتدلى فى الماء . وكانت السماء صافية ونائية ، ومع ذلك كانت جزءا من الشرى والعشب الأخضر

الذى يمشى فوقه . لو أن اليزا فحسب كانت معه ، لو أنها كانت موجودة لتسير بجواره ، وربما لتلمس يده ، لو تم ذلك ، لاكتمل كل شئ ، لكنها أبت أن تكلمه فى ذلك الصباح ومضت عنه خارج البيت ، وميزى هى الإنسانية الصالحة . . لقد فهمته . ونظر إليها ، وكانت تسبقه على الطريق ، وقد خلعت سترتها وحملته على ذراعها . وأطارت نسمة باردة رداءها فوضحت معالم جسدها . هذه إنسانة طيبة ، إنسانة تفهم . . ثم إنها الإنسانية التى رغبت فيه . لم لا تكون هى ؟ . . لماذا اليزا ؟ . إنها لن تسبب له ألما كما فعلت اليزا . وهى تعرف ما يطيب له من أمور وتهيئة له .

- ميزى !

وانتظرت ، وقد بدت شديدة الصغر شديدة الاشتها ، وضيء الضحك يشع من عينيها . ونظر إلى عينيها فضحكتا فى وجهه ، فابتسم . وقال لها : «أنت طيبة» ولف ذراعه حول خصرها ومال ناحيتها فتراجعت برأسها إلى الوراء وتطلعت إلى وجهه وقد خبا الضحك من عينيها وهزت رأسها فى تودة وقالت :

- لا يا اجزوما . إنك تفكر فيها وليس فى أنا .

وتملصت من ذراعه ومشت بعيداً عنه وعيناها تفحصان العشب . وأراد اجزوما أن يقول لها إن الأمر لم يكن كذلك ، ولكنه أدرك أنها ستعرف أنه يكذب ، ثم راح يتبعها .

هما الآن قرب مستوطنة السود والملونين الصغيرة ، وأمكنهما أن يريا المساكن بوضوح ، وأن يريا الناس يتنقلون فى الأفنية ويجوار

اليوت ، وكان معظم الناس فى هذا الجانب من المستعمرة من الملونين ، وكان الوطنيون فى الجانب الآخر . وهوبقلاى مغامرة أخرى من مغامرات الرجل الأبيض فى إبعاد الوطنيين والملونين عن المدن . ولم يكن الوطنيون يحبون المستوطنات ، فضلا عن أنها مزدحمة ، ولذلك بدأ الرجل الأبيض فى إقامة المستوطنات فى ضاحية متاخمة لجوهانسبرج على أمل القضاء على فريديدورب ومالاي كامب ، وبهذا تم القضاء على كثير من الأماكن . وقد يبقى مالاي كامب خلال خمس سنوات أو عشر مجرد اسم فقط . حتى فريديدورب ، قلب سود المدينة الخفاق ، قد يصبح حلما يراه طفل نائم لا يتذكر منه عندما يستيقظ سوى نفث غامضة . إنه قد يصبح كذلك خلال خمس سنوات من عمر الزمن .

وسارا يمران بيوت ويعمال من الرجال والنساء وبأطفال يلعبون ، وساد الضمت بينهما ، ومن قبل كان يسود بينهما صمت ، ولكنه كان صمتا ينطوى على تفاهم . أما هذا فكان صمت الغرباء . لقد شعر اجزوما أنه أساء إليها ولم يدر كيف يمحو هذه الإساءة . وهنا أحس بالاستياء .

وبصوت عال قالت ميزى : «انظر ا» .

وجرت إلى جواره وأمسكت بذراعه وأشارت . وكان على الجانب الآخر من النهر صبي بلا قميص يسوق قطيعا من بقر . وضحك اجزوما وقال : «ينبغى أن تتنمى إلى المزارع» .

- ألسن معجبا بها ؟ .

- فقال بصوت ضاحك : «إنها جميلة جدا» .

ورنت إليه ببصرها . وكان الضحك الذى بدا مع صوته يبين فى عينيه أيضا . لقد عاد الضحك إلى عينيه .

أوشك الليل أن يتصف ، وكانت آخر سيارة أجرة مزدحمة ، واضطرت ميزى إلى الجلوس على حجر اجزوما . وكان فى المقعد الخلفى للسيارة ثمانية ، وكان يتعذر على أى منهم أن يتحرك .

لقد ولى اليوم بسرعة كبيرة ، وقبل أن يدركا ذلك كان موعد آخر حافلة قد حان ؛ ومن ثم فاتفهما الحافلة . وكان أصدقاء ميزى أناسا أفاضل ، إذ كانوا ضحوكين بشدة مثل ميزى ، وسرعان ما شعر اجزوما أنه يعرفهم طوال حياته . لقد تصرفوا معه وكأنه رجل ميزى ، وكانت هى تحط عينيه عليه تنتظر منه أن ينكر ذلك ، ولكنه لم يقل شيئا . وقدموا له جعة ليست كتلك التى تصنع فى المدينة ، ولكنها كانت كتلك التى تصنع فى المزارع . وتحادثوا ، وظلت ميزى طوال الوقت لصيقة به . ونسى هو اليزا ولياه ودادى والأم بلانك والمناجم وكل مايربطه بالمدينة . وبدت ميزى وكأنها لا صلة لها بالمدينة . وامتلا الجو بالضحك والتحرر والسعادة ، تماما كالأيام الخوالى بالمزارع

ولقد تحدثوا كثيرا عن المزارع لأن خليل صديقه ميزى قدم من المزارع ، وأحب المزارع كثيرا ، وتحدث عن العودة إلى المزارع حين

يتجمع لديه مال يشتري به قطعة أرض . ولكنه حين قال ذلك نظرت إليه خيلته كما ينظر المرء إلى طفل يلعب في الماء .

وتحت تأثير دفء صداقتهم ، وحرية الكلام التي أتاحها له الجمعة ، راح يتحدث ويده على كتف ميزى عن موطنه وأهله . . عن جمال الصباح فوق منطقة الهايفيلد العشبية عندما ترتفع الشمس وتغنى الطيور وتساق القطعان إلى المراعى . . وتحدث عن عذوبة أمه وقوة أبيه الضخمة حين كان هو وأخوه صغيرين . . وكيف اعتادوا صيد الأرانب . لقد حكم لهم كل شئ كان يعمل في طفولته وفي صباه .

ثم أقبل أناس آخرون وتدفق المزيد من الجمعة . وكان ثمة غناء وضحك كثير ورقص ، فرقص مع أناس لم يكن يعرفهم ، وتكلم معهم وتكلموا معه . وألقت صديقة ميزى بيدها حول رقبتة وأجبرته على أن يحملها ، وضحكت ميزى وألقت بذراعيها حول رقبة رجل صديقتها ، وصفق الجميع وضحكوا . وحمل الرجال النساء بين أذرعهم ، وكونوا حلقة وأخذوا يدورون في الغرفة إلى أن ضاقت بهم كثيرا فخرجوا إلى الفناء ، وهناك كونوا حلقة ، وراحت امرأة تغنى ، والناس في الحلقة يصفقون ويدبدبون بأقدامهم ، ودخل رجل وامرأة وسط الحلقة وأخذوا يرقصان ، وحين أصابهما الإجهاد تدفق المزيد من الجمعة ، فراحا يرقصان ثانية . وجاء رجل بجيتار وجاء آخر بآلة كونسيرتينا ، وأقبل أناس من كل جهة ، وأحضرت النسوة طعاما وجعة ، وكان هناك وفرة من الطعام والشراب . ومن خلال كل هذا أضاء وجه ميزى الضاحك وعيناها الومضاتان . وكانت هي بجانبه ، مفعمة بالسرور مغمورة بالسعادة ، وكانت تفيض بهذا كله عليه .

ووسط كل هذا أخذها من يدها وسارا معا إلى النهر تحت ضوء القمر . وبلا سبب انخرطا في الضحك . . واسترسلا في ضحكهما حتى دوى على طول النهر . ثم أقبل الآخرون يبحثون عنهما فاختبأ ، واستغرقوا وقتا طويلا في العثور عليهما . وحين وجدوهما حملوهما على الأكتاف إلى البيت يغنون .

وعادت الجمعة تتدفق ثانية . وكانت الدنيا جميلة لأن الجمعة كانت من المزارع . . لم تكن كسم المدينة التي تسكرك فحسب ، ولا تؤدي بك إلى الشعور بالسعادة .

ثم جذبته ميزى وهزته وقالت له إن وقت الحافلة قد حان ، وارتدى كل منهما سترته ، واصطحبهما الآخرون جميعا إلى محطة الحافلة . لكن الحافلة كانت قد غادرت ، ولن تكون هناك حافلة أخرى حتى الصباح . وعرضت صديقة ميزى عليهما أن يبيتا عندها . لكن ميزى رفضت وبررت رفضها بأنه لا بد أن يكون في المنجم في الصباح الباكر ، أما هو فقال أن ليس في الأمر شئ . . كان يود البقاء . لكن ميزى كانت حاسمة وقالت إنه مخمور ، ذلك أنهما احتسيا كثيرا من الجمعة .

ثم وجدا سيارة أجرة .

وفي سيارة الأجرة المزدحمة جلست ميزى على حجره . وأحس هو بالأسى لانتهاء الليلة . لقد كانت ليلة جميلة ، وكان يريد أن تستمر . ووضعت ميزى ذراعها حول عنقه ، فلطف هذا من أحاسيسه . وانطلقت السيارة مندفعة بأقصى سرعة وسط الليل متجهة إلى

جوهانسبرج . ولم تستغرق الرحلة هذه المرة سوى ساعة واحدة ،
و حين خرجا من السيارة لم يدر اجزوما أين هو ، لكنه لم يعبأ بذلك .
وقال لميزى : «أنا سكران» .

ف قالت له وهى تمسك بذراعه : «سأعنى بك» .

وابتسم . . فمع ميزى وعنايتها به لن يصيبه ضرر . . وكان هو
على يقين من ذلك .

وبعد برهة قصيرة قادت خطاه إلى عمر ضيق ، وتركته ينتظر إلى
أن فتحت باباً . ثم جذبته إلى غرفة صغيرة وأغلقت الباب وأضاءت
المصباح وتطلع هو إلى المصباح الكهربى . . ضوء الرجل الأبيض .
- ما هذا المكان ؟ .

- غرفتى . . وهذا هو المكان الذى أعمل فيه . ويحسن أن تبيت
هنا ، فأنا أستطيع إيقاظك صباحاً فى الوقت المحدد .

ومضى إلى السرير وجلس فوقه ، وراح يتطلع إلى كل أركان
الغرفة ، فرآها تشبه غرفة الرجل الأبيض ، ولكنه لم يكن واثقاً . ولم
يستطع أن يرى الأشياء بشكل مباشر . . كل شئ كان يدور . . وبدا
وكأن رأسه يدور . . فأمسكها بكلتا يديه ، محاولاً أن يبقيا ثابتة . .
لكنها ظلت تدور لا تريد أن تتوقف .

وقالت له ميزى : «استلق على الفراش» .

وأطاعها ورقد ، وكان ذلك أفضل ، فلم تعد الأشياء تدور كثيراً

. لكنه كان من الصعب الآن إبقاء عينيه مفتوحتين .

- ميري .

هيه ؟ .

- تعالى هنا .

وذهبت إليه ، فمد إليها يده . وأمسكت بها وراحت تربت عليها .

- أنت لن تركيني .

- أجل .

- سوق تعنين بي .

- نعم ، سأعني بك .

فقال : « هذا أمر طيب » واستغرقه النوم .

وخلعت ميري له ملابسه ، وهيأت لنفسها فراشاً على الأرض .
وللحظات وقفت تتأمله ، ثم أطفأت النور .

- استيقظ ! اجزوما ! استيقظ ! .

وتقلب فى فراشه وفتح عينيه وقال فى تدمير : « مازالت الدنيا مظلمة » .

فقالت ميزى : « يجب أن تذهب إلى العمل » .

ونفض اجزوما ودعك عينيه ، فتذكر الليلة الماضية . أنه فى غرفة ميزى . وكان معها فى نزهة طوال الأمس . فى رأسه صدى بسيط ، لكن الجعة كانت جيدة ولم تكن رديئة .

وقالت ميزى : « ارتد ملابسك ، وسوف أحضر لك الطعام » ثم خرجت .

وارتدى ملابس وأخذ يتفحص الغرفة . كانت جميلة . . غرفة امرأة . ورأى الفراش على الأرض . ثم دخلت ميزى ومعها قده ينبعث منه البخار ، وخبز ولحم فى صحن .

وسألها وهو يشير إلى الفراش المبسوط على الأرض : « هل نمت على هذا الفراش ؟ » .

فأومأت برأسها ثم قالت له : « يجب أن تسرع » .

- كم الساعة الآن ؟ .

- الخامسة . . . يجب أن تذهب إلى حجرتك لتحضر ملابس العمل . . وأوما برأسه ولم يكن قد فكر فى ذلك .

- لماذا نمت على الأرض ؟ .

- لا تجلس هكذا تتكلم .. أسرع .

وكانت قد أحضرت إلى الغرفة وعاء ماء ، فاغتسل ثم راح يأكل . وحين فرغ من طعامه نهض ووقف يتطلع إليها ، وكان من الصعب أن يفهمها . لقد كانت ترغب فيه ، وحين نالته نامت على الأرض .

وقال لها : « كانت كريمة معي » .

فقالت : « هيا » .

وتبعها خلال الممر الضيق ، وكان اليوم بارداً ، لكن القهوة أدفأت معدته بطريقة أشعرته بالراحة .

- سر في هذا الطريق إلى أن ينعطف يساراً ، امض في المنعطف ، ولسوف يؤدي بك إلى مالاى كامب .

لم يكن يريد أن ينصرف .. ونظر إلى وجه ميزى التى لم تكن تنظر إليه طوال هذا الوقت ، فرفعت ناظرها إليه والبسمة فى عينيها امتزج بالنعاس .

فقال لها وقد أمسك بيدها : « كان الأمس يوماً جميلاً » .

- أنا مسرورة .

- أنت إنسانة جميلة ، أيمكن أن نذهب هناك ثانية ، هيه ؟ .

- لو أردت .

- أريد بشدة .

- امض الآن وإلا تأخرت .

وكانت يدها باردة . وأحس من يدها أن بدننها يرتجف ، فهى لم تتناول قهوة .

وقال لها : « وداعا » .

- وداعا .

ولكنه كان يشق عليه أن يتركها بهذه الطريقة . شيء آخر كان لابد أن يحدث ، لكنه لم يكن يدرى ماهو ذلك الشيء . ثم سحبت يدها من يده .

- امش .

ومشى بضع ياردات ثم توقف ، والتفت وراءه لكنها كانت قد دخلت ، فأسرع يهبط إلى الطريق الواسع المحفوف بصفين من الأشجار . كانت برودة الهواء لاسعة فدس يديه في جيوبه بعد أن رفع ياقة معطفة . سيكون الوضع حسنا تحت الأرض في يوم كهذا ، لكن الأفضل من ذلك الجلوس أمام نار متقدة كتلك التي ستكون في بيت لياه اليوم .

وفي حجرته بدل ملابسه ثم انطلق إلى المناجم . وعند بواباتها التقى بجوهانز .

- هانت . . اجزوما الخسيس .

وابتسم اجزوما . . جوهانز مازال مخمورا . لم يكن شديد السكر ، لكنه ليس مفيقا .

- كيف الحال معك يا جوهانز ؟ .

- أنا جيده . ب . وليامسن ، أنا ! . قوى كالشور وسأقتحم سجنهم . . ولسوف ترى ! .

وتأبط اجزوما ذراعه وعبرا البوابة .

- ماذا يسوءك ؟ .
- إنه عار يأخى اجزوما . .
- أخبرنى . . ماذا عندك ؟ .
- لقد أخذو المرأة صاحبتى .
- أخذو خليلتك - لينا ؟ .
- نعم ، رجال الشرطة الأنجاس - سوف أقتل واحدا منهم .
لماذا ؟ .
- سبعة أيام أو جنيه .
- لماذا أخذوها ؟
- مخمورة وكثيرة الضوضاء .
- لا تبال ، سنحاول الحصول على النقود لنطلق سراحها . وربما
تقرضك إياها لياه . سأطلب منها ذلك ، ويمكنك أن تسدها فيما
بعد . هيه ؟ .
- فقال جوهانز صاخبا : « لا » .
- فقال اجزوما : « لاتصرخ » .
- سيكون هذا لصالح الخسيصة . دعها تشتغل مقابل هذه الأيام
السبعة ! .
- لماذا تريد اقتحام السجن إذن ؟ .
- فألقى جوهانز بذراعه حول كتف اجزوما وابتسم . ثم قال
هامساً :

- لست أدري يا أخى .

وأخذه اجزوما إلى صنبور الماء وطلب منه أن يغسل وجهه ،
واعترض جوهانز لأن الماء كان شديد البرودة ، لكن اجزوما أجبره ،
ووسط أيمانات مغلظة غسل جوهانز وجهه .

وحول المنعطف جاء طابور من عمال المنجم فى مشية سكرية ،
يقودهم ويحيط بهم رجال الاندونا . أقدامهم ضجيجا رتيا ، ومن
ورائهم تخلف ذيل من غبار ناعم .

وخرج بادی ورجل أبيض من الكوخ الذى يستريح فيه الأبيض
ويحتسون الشاي ، فرأى اجزوما فناداه ، وهنا ترك اجزوما جوهانز
عند الصنبور وذهب إلى الكوخ .

- اهلا يا اجزوما ! .

- اهلا يا أحمر .

- كيف حالك ؟ .

- جيد .

- أراك تعين اجزوما على أن يفيق . أهو شديد السكر ؟ .

وصمت اجزوما ، وبقي هكذا صامتا ، فابتسم بادی وناول
سيجارة .

- أنصت إلى يا اجزوما ، سوف نعمل إلى أن يحين وقت تناول
الطعام ، وعندئذ سنصعد ولن نعمل حتى منتصف الليل . وبعد
سوف نشتغل فى الليل فقط . وسيسرى هذا لمدة شهر ، واضح ؟ .

- واضح .
- حسن ، ستبلغ عمالك بذلك .
- واستدر اجزوما ومضى .
- اسمع يا اجزوما !
- فالتفت وراءه ليجد أن المنادى هو كريس ، الذى كان قد خرج لتوه من الكوخ .
- نعم ؟
- بلغ جوهانز أننا لن نهبط إلا عندما يحين وقت صعودكم أنتم ، وشرح له نوبات العمل الجديدة ، أو ستفعل ؟
- ومن اليمين سار صف من رجال ، مشوا خارج البوابة وحول المنعطف فى طريقهم إلى المجمع السكنى . وكان جوهانز مازال واقفا ورأسه تحت الماء البارد . ودمدمت الآلات وصاح رجال الاندونا يطلقون الأوامر . . ووقفت جماعة من الرجال عند مدخل المصاعد التى سوف تنطلق هابطة بهم إلى باطن الأرض بحثا عن الذهب .
- وذهب اجزوما مباشرة إلى جوهانز .
- رجلك الأبيض يقول إنكم لن تعملوا إلا بعد أن يحين وقت تناول الطعام .
- وكان جوهانز بسبيله إلى الإفاقسة ، وبدا أقل شبها بشخصية جيه . ب . وليامسن . وتأبط اجزوما ذراعه .
- نوبات جديدة ؟

- أجل .

- كيف تسير ؟ .

وشرح له اجزوما الأمر .

فقال جوهانز : « إذن سوف أذهب لأنام قليلا » .

وسأله اجزوما : « هل موضوع خليلتك حقيقى ؟ » .

- أجل .

- سنحاول إذن الحصول على النقود من لياه .

- لا . . . إننى مدين لكثير جدا من الناس . ومازالت مديناً كذلك

للياه ببعض النقود .

وبدا جوهانز نخجلا من نفسه ، نخجلا من سكره ، من حجمه

الضخم ، من استدانته من الناس . وقال له اجزوما « اذهب إلى

حجرتى وهاهو المفتاح . نم حتى يحين موعد عودتك ، ستجد خبزا

وعلبة سردين . كله . فإنه سيفيدك » .

وقضم جوهانز شفته السفلى وأشاح بوجهه . . لم يكن اجزوما

فى المناجم إلا منذ فترة قصيرة فقط ، لكن لديه غرفة خاصة به وطعام

وملابس لا يدين لأحد بأية نقود .

ونظر اجزوما إلى جوهانز وأدرك ماكن يدور برأسه ، فلكم

صدره وقال له :

- ألسنا أصدقاء ؟ .

فقال جوهانز : « شكرا لك » ومضى .

وكان رجال اجزوما ينتظرونه ، لقد ارتفع المصعد ، وحين وقت الهبوط . وكان جوهانز قد سار مسافة قصيرة ثم توقف وعاد أدراجه وقال :

- رأيت دلادلا . كان معه نقود كثيرة ، وكان ثملاً ومتبجحاً . وقال إن لياه ستندم بسبب ما فعلته معه . وقال إن رجلها وجوزيف أحسا بالندم ، ولسوف تندم هي كذلك . لعله يشى بها لدى الشرطة ، فحذرهما حين تراهما . فقال اجزوما : « سأفعل » .

إذن كان هو دلادلا . لماذا لم يفكروا فى ذلك ؟ وقال جوهانز كما لو أنه كان يعتذر : « لقد طرحته أرضاً بلكمة نام بعدها » .

- خيراً ما فعلت .

وناداه واحد من الاندونا ، فأسرع اجزوما إلى المصعد المنتظر . وكان الرجال فى انتظاره ، فحيوه حين جاء . فقال : - حسن .

واصطف الرجال داخل المصعد ، . فقال اجزوما :

- كفى ثم صباح . . تحركوا .

وتحرك المصعد هابطاً فى بطن ، وحل مكانه مصعد آخر .

- حسن .

واصطف فيه رجال كثيرون .

- كفى ! .. تحركوا ! ..

كان اجزوما هنا هو الرئيس الأمر الذى يعنى بكل الرجال ، وكان معتدا بنفسه ، معتدا بقوته ، واثقاً من سيطرته على الرجال ، واثقاً من احترامهم له .

وبالقرب منه وقفت جماعة من البيض يرقبونه . وكان اجزوما أفضل عامل فى ذلك المنجم . وأصبح فريقه تحت رياسته الفريق الأفضل ، ومعنى هذا أن مال بادی قد نما . ولهذا كان البيض يراقبونه باحترام . وقال أحدهم لبادی :

- محظوظ أنت ياملعون .

وأوما بادی برأسه .

وقال آخر : « ينبغى أن تعطيه منحة أسبوعية » .

وامتلاً المصعد الثالث وانتظر اجزوما بادی الذى تقدم مسرعاً . وكان اجزوما - وفقاً لما ينبغى أن يتبع - آخر من يركب المصعد . لقد كان على رئيس العمال أن يعى بكل فرد ويتأكد أن كل واحد فى المصعد آمن ، ثم يعطى الإشارة ، ويقفز بعدها إلى المصعد حين يبدأ فى الهبوط . وكان هذا هو واجب رئيس عمال المنجم .

وانطلق المصعد بسرعة يهبط .. ويهبط .. ويهبط . وران الصمت على الرجال . وكان الوضع هكذا « دوما » . فالهبوط إلى باطن الأرض يفرض الصمت عليهم . وكانت قلوبهم تخفق بشدة . ومع أن الكثيرين منهم كانوا يهبطون يوماً وراء يوم طوال شهور ،

فإنهم لم يتعودوا على ذلك . دائما ما كان يحدث خفقان شديد في القلوب ، وانسداد في الحلق وإحساس مصحوب بالمر في المعدة . وكان هذا الإحساس الذي يتتاب عامل المنجم . . وهو إحساس يعرفه الجميع .

بيد أنهم لم يكونوا متأكدين أن ذلك يحدث للرجل الأبيض ؛ ذلك أن الرجل الأبيض لم يكن يظهر أى شيء على الإطلاق . لم يكن يبدى خوفا أبدا . ولم يكن قلقا أبدا . كان يلقي بأوامر ، ويكون في المقدمة مع رئيس العمال . وإذا ما وجد رئيس عمال جيد ، كاجزوما أو جوهانز ، فإن هذا الرئيس كذلك لا يبدى خوفا أبدا ، ولا يتتابه القلق أبدا ، ويصدر الأوامر . وكان الحال هكذا أيضا . وكان هذا أيضا ما يعرفه الجميع .

وهبطت المصاعد مندفعة ، وأخذت تهبط وتهبط . وراحت مصابيحها تومض وتخبو . وكان ثمة صفير حاد يتخلل الهواء في أثناء انطلاق المصاعد هابطة في أعماق باطن الأرض . وكان الضوء الوحيد هو الضوء المنبعث من مصابيحها . وأصبح الهواء أكثر دفئا وبدا التنفس صعبا . . وكان هذا ما يحدث أيضا دوما .

وتباطأت المصاعد في هبوطها ، وقفز منها الرجال ، وفي مكان قريب وقفوا جماعات ينتظرون . ومشى اجزوما بجوار بادي ، الذي راح ينظر في دفتره الصغير . . ومضيا سويا يفحصان المكان الذي يتويان العمل فيه ، وبقي الآخرون ينتظرون قريبا من المصاعد ، فلقد كان من واجب الرجل الأبيض ورئيس العمال استكشاف ما إذا كان العمل لا ينطوى على مخاطر . والتيقن من أن كل شيء منظم .

ووصل مصعد آخر ، وكان فيه أربعة من البيض ، وقفوا على بعد قليل من الآخرين ينتظرون بادی واجزوما . وفى أثناء سيرهما معا فحص اجزوما جوانب النفق وسقفه . ففى المكان الذى يفضى فيه النفق إلى الجدار الذى يتوجب العمل عنده أقيمت دعائم تشبه الهيكل الذى يشيد للبوابات ، وكان سقف هذا المكان قد هبط . ولفترة طويلة راح اجزوما يفحصه ، ثم زجع بادی الذى كان قد سار قدما ، ووقف بجانبه .

وسأله : « ماذا ترى ؟ » .

وأجاب اجزوما : « ربما لا يكون فى الأمر شيء . ولكنى أرى أنه من الواجب إقامة عمودين أقوى على كل جانب » .

وأوما بادی وقال : « أجل . وربما نقيم عمودا مستعرضا تحت السقف ، هيه ؟ » .

- تمام .

- ألك رأى خلاف ذلك ؟

- ماتراه صحيح تماما .

وانتجه بادی إلى تليفون عمتد فى كل المكان حتى يكون هناك اتصال بسطح الأرض .

وصاح فى بوق التليفون : « كل شيء على مايرام بالنسبة لطاقة العمل » .

وهبط اجزوما النفق واستدعى الآخرين . ومشى الرجال البيض

قدما ، ومروا باجزوما . وجاء العمال الوطنيون ووقفوا أمامه . وبعد أن تفحصهم انتقى أقوى أربعة منهم ، وقال لهم :

- ستحضرون أعمدة وتقيمون هذا المكان .

ومضوا ليحضروا الأعمدة .

وقال اجزوما للآخرين : « هيا » وهبط بهم متجها إلى المكان الذى كان فيه بادی ، الذى قام بتوزيع البيض الأربعة على أماكنهم ليعملوا فيها . بينما قام اجزوما بتصنيف العمال ، وقدم عشرة منهم لكل رجل أبيض . وأحضر العمال الأربعة الأعمدة وبدأوا فى تدعيم الجانب الضعيف من النفق .

وقال بادی : « تمام » وابتسم لاجزوما .

وصاح اجزوما : « إلى العمل » وراح ينتقل بين الرجال ، يساعد واحدا هنا ، ويرى واحدا آخر أفضل وسيلة للحفر . وفى مكان آخر راح يبين لواحد أفضل طريقة لوضع صخرة على السير المتحرك . كما راح بادی ينتقل بين رجل أبيض وآخر ، يراقبهم وهم يثقبون الأرض ويعلمون الأماكن التى من الممكن أن تكون شبيهة بعروق الذهب .

وطنت المشاقب وقرعت المطارق . . كان هسيس وأزيز وطنين . وكان رنين المعاول وصرير الجواريف . ورويدا رويدا التأم وقع سير العمل . وابتسم اجزوما ، كان يعرف هذا الإيقاع ، وكان هو الذى يضبطه - . وكان هو الذى يبقيه مطردا . كان هو مع الأحمر سيد هذه البقعة ، هو الذى يصدر الأوامر ، وكان يعلم أن الأحمر لن يعارضه ، لأنه خبر حكمة ما يصدره من أوامر .

وأخذ بادی مثقبا وأداره وثبته جانب الجدار الصخرى . ومع طنين المثقب راحت عضلات ذراعيه وصدره تتماوج . وانتزع اجزوما نفسه من بين جماعة العمال وتناول مثقبا آخر ، وخطا بجوار بادی ووضع المثقب إلى جوار الجدار الصخرى . وتماوجت كذلك عضلات ذراعيه وصدره مع طنين المثقب ، وعملا معا كتفا لكتف . . رجلان قويان . . رجل أبيض وآخر أسود .

وأر السير المتحرك ، وهوت المعاول ، وحفرت الجواريف وطنت المثاقب . وفى كل مكان كان الرجال يعملون ، وأجسادهم تتصبب عرقاً . . . لم يكن فى رأس اجزوما مكان لأى شىء سوى عمله . وبدون أن يتوقف كان يلتفت ينادى واحدا من العمال أن يؤدى هذا أو ذلك ، أو يحذر واحدا يتباطأ ، أو يقول لأحد أن يترك ما يعمل فيه ليؤدى عملا آخر . وربما كان يرفع بصره فتلتقى عيناه بعيني بادی ، وتبدو من بين أسنان الأحمر ابتسامة ، فى حين يقوم كل منهما بشق الجدار الصخرى . وعلى الدوام ينقل إلى السطح سيل متزايد من صخور وبلورات متلألئة وغبار ناعم ، لينخل ويصحن ويصنف إلى معدن أصفر رقيق يحبه الناس ويسمونه ذهباً . . .

وحدث أن واحدا من العمال الذين كانوا يقيمون الأعمدة فى البقعة الضعيفة فى النفق ، ربت على كتف اجزوما ، فتوقف عن المثقب واستدار ، وصاح الرجل : « يوجد ماء يتسرب خلال الصخر » .

وتبعه اجزوما إلى المكان وأخذ يتطلع . كان ثمة بلل ونخيط رفيع من ماء يتسرب فى الداخل .

واستدعى اجزوما بادی وأراه المكان . وفحصه بادی لبرهة قصيرة
ثم راح إلى التليفون وصاح يطلب مجيء مهندس ليفحص البقعة .

وهبط المهندس وراح يتطلع إلى المكان ويفحصه ، ثم قال إنه
لاوجه للخطورة . ونظر بادی إلى وجهه اجزوما ، ورأى الشك في
عينيه ، فسأل المهندس عما إذا كان واثقاً مما قال ، وكان المهندس
شديد اليقين . فعاد كل منهما إلى عمله وتدفق غبار الذهب مرتفعاً
إلى الأعلى ، ليجعل الناس موسرين وأقوياء .

وعندما حانت ساعة الطعام طوح الرجال مابأيديهم من أدوات
جانبا ، ووقفوا قريبين والإجهاد باد على وجوههم العرق يتصبب من
أبدانهم . واستدعاهم اجزوما معاً وبلغهم بالنوبات الجديدة ، ثم
اندفعوا نحو المصاعد دون اهتمام فيما يبدو بما قيل . وسعل رجل
بالقرب من اجزوما ، فتدفق من فمه سيل رقيق من بصاق أحمر سقط
عند قدمي اجزوما الذي حلق فيه لقد سمع من قبل عن مرض
الرئتين وكيف أنه يذوى عود الرجل ، ولكنه لم ير أبداً إنساناً مصاباً
به ونظر إلى الرجل الذي التمعت عيناه في صفاء وارتجف خيشوماه .
لقد كان رجلاً مسناً .

وقال له اجزوما : « تعال هنا » .

وخطا الرجل إلى الأمام ، وانتظر الآخرون جميعاً والخوف يملأ
عيونهم . وأحس اجزوما بخوف يسرى فشى بدنه ، فالرجل الذي
يقف أمامه مازال بشراً . ولكن العلامات كانت بادية عليه بالفعل .
كان نحيلاً . . وكان رجلاً من ذلك النوع الذي كان قويا وضخماً يوماً
ما . وقد بدا هذا من نحوه .

وقال اجزوما للآخرين : « يمكنكم أن تنصرفوا » .
فمشوا متمهلين وعلى كره منهم . وعندما ولوا أخذ اجزوما
يتحدث إلى الرجل :

- كم مضى عليك من وقت وأنت مصاب بهذا ؟ .

وأجاب الرجل : « شهران حتى الآن » .

- هل زرت الطبيب ؟ .

فقال الرجل وقد طرق برأسه : « لا » .

- ولم لا ؟ .

ونظر الرجل إلى الأرض وتلمل في عصبية بدت في حركة
يديه .

- اسمع يا اجزوما ، أنا رجل لدى زوجة وطفلان وقد استنفدت
كل شيء . لدينا مزرعة صغيرة وأنا أدين لرجل أبيض بثمانية
جنيهات ، وسيستولى على المزرعة إن لم أرد إليه نقوده . وإذا استولى
عليها ، فأين تذهب زوجتي وطفلاي ؟ لقد استنفدت كل شيء
يا اجزوما ، استنفدته حقيقة . إننى أقوم بالادخار منذ أربعة أشهر ،
وإذا ما ادخرت لمدة ثلاثة أشهر أخرى فستكون معى الجنيهات الثمانية ،
وبذلك أضمن ماوى لزوجتي وطفلى ، وأرجو منك أن تبقينى ولا تبلغ
البيض . الآخرون لن يبلغوا ، فهم يعرفون . أنا مدرك أننى
سأموت ، ولكن إذا كان لزوجتى وطفلى بيت فساكون سعيدا .

- وهذا هو السبب فى أنك لم تبلغ عن مرضك ؟ .

- هذا هو السبب .
وشعر اجزوما بالخوف يدق قلبه .
- ما هذا يا اجزوما ؟
وكان المتحدث هو بادی ، وكان يقف على بعد ياردات قليلة .
وبقى اجزوما صامتا ، لهذا اقترب بادی ، وتطلع إلى الرجل عن كثب .
وكان على ناحية من فمه دم . وأخذ الرجل يسعل في ألم فأوماً
بأدى برأسه .
- لابد أن تذهب إلى الطبيب .
فقال الرجل : « لا » .
وقال اجزوما للرجل : « احك له » .
وحكى الرجل لبأدى عن زوجته وطفليه والجنيهات الثمانية ، وما
إن انتهى حتى استدار بادی ومشى إلى المكان الذى كانوا يعملون فيه ،
ثم عاد بعد فترة وجيزة .
- ألم يخبرك الرجل الذى استخدمك أن نقودا ستدفع لك
لو أصبت بمرض الصدر ؟
- أجل لم يخبرنى .
فقال بادی : « هو ذلك » .
ونظر الرجل إلى اجزوما . . وكانت لهفته تدعو إلى الرثاء .
- أهو كذلك ؟

ولم يكن اجزوما على علم بهذا ، فنظر إلى بادی وفي تردد أوما برأسه .

- نعم .. هو كذلك .

فقال الرجل : « هذا شيء طيب .. الآن سيكون لديهم بيت . هذا شيء طيب » .

وقال بادی : « اذهب إلى الطبيب . سوف تأتي وسيكون كل شيء على مايرام » .

ومشى الرجل ، فنظر اجزوما إلى بادی « هل سيحصل على نقود حقا ؟ » وكان الشك باديا في صوته .

- نعم .. هذا صحيح .. تعال وسترى .

ومضيا في أعقاب الرجل ولحقا به في المصعد الأخير . وانطلق المصعد يعلو ويعلو ويعلو ، وكانت النوبة الأخرى جاهزة في انتظارهم . ورد جوهانز إلى اجزوما مفتاحه . وكان مفيقا تماما . وإن بدت حلقات داكنة أسفل عينيه ، كما كانت يدها ترتجفان .

ووقف بادی يتكلم مع كريس لحظات ثم نادى اجزوما واتجهها مع الرجل إلى المستشفى . وهناك وقف اجزوما في الخارج مع الرجل ، في حين دخل بادی وتحدث مع الطبيب . ثم استدعاهما الطبيب وقام بفحص الرجل ، ولم يدم الفحص طويلاً . فلم يكن ثمة شك فيما عند الرجل . وكتب الطبيب قصاصة ورق أعطاها لبادی .

ومرة أخرى تبع اجزوما والرجل بادی ، حيث ذهب إلى مكتب

مدير المنجم . وانتظرا بالخارج . وبدا الانتظار طويلا ثم خرج المدير مع بادی وأبدى تدمره من أن الأمر مخالف للقواعد ، لكنه وقع قطعة من ورق ناولها لبادی .

وصاح بادی « تفضل . . . ستذهب الآن للحصول على النقود ، ويمكنك حيثئذ أن تذهب إلى البيت » .

وارتجفت شفتا الرجل حين ابتسم . ثم حصلوا على النقود من الصراف . . وكانت عشرة جنيهاً وثلاثة أخرى وخمس شلنات أجر شهر كامل ، فكان المجموع بذلك عشر جنيهاً وخمس شلنات . وقد حصلوا كذلك على ترخيص بالسفر بالسكة الحديد إلى موطن الرجل ، وجواز مرور يبين أنه ليس هارباً من المناجم . وقدم بادی للرجل كل هذا ، ثم قال له :

- الطبيب يريدك أن تذهب إلى المستشفى ، ولكنك حر في الذهاب إلى موطنك .

- في أى وقت .

- حتى اليوم ؟

- نعم ، حتى اليوم .

وكور الرجل قبضتيه ليصلب عوده ، ونظر إلى بادی ثم اجزوما وابتسم وتألقت عيناه :

- أنت رجل خير يا أحمر ، وأنت كذلك يا اجزوما . . إنك أخ حقيقى . ولسوف يرعاك الإله الواحد العظيم . . الآن سيكون لزوجتى وطفلى بيت ، ولسوف أكون معهم لفترة قصيرة . هذا شىء طيب .

وحياهما الرجل ومضى ، وكان بقية العمال فى انتظاره ، فبلغهم بهذه الأنباء الطيبة ، ولبهجته دفع صدره إلى الأمام واطلق صيحة معركة انتهت بسعال مؤلم يمزق رئتيه ، انضم بعدها هو وأصدقائه إلى الطابور المتجه إلى المجمع السكنى . وكان هذا آخر سيره معهم ، فعمما قريب سيكون مع زوجته وأولاده ، وعمما قريب سيسدد الدين . .

وقال اجزوما لبادى : « ماقت به كان عملا صالحا » .

فقال بادي بأسى : « عمل صالح » .

وفجأة ابتعد تاركا اجزوما واقفا وحده ، وظل هكذا واقفا فترة قصيرة ثم مضى إلى مكان الاغتسال ، وفى آخر الطريق كانت نهاية طابور الرجال فى مشيتهم العسكرية تختفى عند المنعطف .

بدل اجزوما ملابسه وراح يتطلع فى أرجاء الغرفة وابتسم . جوهانز هذا شخص غريب . من كان يتصور أنه سيرتب السرير ويكنس الأرض ويترك كل شىء نظيفا ومرتباً . . إنسان غريب . . أجل . والرجل الأحمر قام اليوم بعمل عظيم جدا مع المريض . ثم خرج من الغرفة وأغلق الباب خلفه . كان أمامه اليوم بكامله . . بعد الظهيرة بطوله . ولم يكن يشعر على الإطلاق بالإجهاد أو برغبة فى النوم . ربما يغفو فيما بعد قليلا ، أما الآن فإنه يريد الانطلاق .

وساءل نفسه عما إذا كان عليه أن يمضى إلى محل لياه ، لكنه لوذهب فسيوجب عليه أن يحكى لياه عن دلادلا . وهو قد شاهد يدى لياه تتفتحان وتنقبضان والنظرة على وجهها وهى تتحدث عن

الشخص الذى يقوم بإفشاء سرها . وأحس بعدم الرغبة فى أن يبلغ لياه عن دلادلا ، وقال لنفسه : « سأذهب إلى ميزى » .

ودارت برأسه الظنون فى أنها قد تكون مشغولة و ، وقد تشعر بالخوف فيما لو رآه أناسها البيض . لكنه كان يشعر بالحزن ، ويدرك أن ميزى هى الوحيدة التى تستطيع إدخال البهجة على نفسه .

لياه سوف تدرك الموقف ، لكنها لاتستطيع أن تسرى عنه ، وميزى وحدها القادرة على ذلك لأنها تدرى كيف السبيل إلى هذه البهجة .

وعندما وصل إلى شارع عريض تصطف الأشجار على جانبيه ، لم يكن واثقاً من معرفة البيت ، فهو لم يتطلع بدقة إليه ذاك الصباح . وصمم أنه فى مكان ما هنا ، وكان يوجد عمر . . لكن لكل البيوت الأخرى ممرات ، وكلها تبدو متشابهة ، وأبطأ من خطوه خارج البيت الذى بدا له أنه هو . . كيف يعثر عليه ؟ . لا يصح أن يذهب واحد إلى أماكن البيض ويسأل عما إذا كانت ميزى تعمل لديهم .

وخرج من الممر صبي صغير يجرى . . بعض من هؤلاء الصبيان يتصفون بالشقاوة ، ولو صاح هذا الصبي فسيسبب له المتاعب .

وقال الصبي : « أهلا » .

وابتسم اجزوما . . هذا صبي صغير طيب . . ويمكن أن يسأله ، ورد قائلا : « أهلا » .

وسأله الصبي : « ما اسمك ؟ » .

- اجزوما .

- ماذا ؟ .

اجزوما .

- إنه اسم مضحك .

وارتفع من الفناء صوت ينادى : « جونى » .

فقال جونى : « هذه ميزى » تريدنى أن أتناول الشاى ، لكنى لاأريد تناوله . أو تريد تناول الشاى ؟ .

بلم يدر اجزوما ماذا يقول ، ولهذا ابتسم . هنا إذن مكان ميزى .

- تعال ياجونى وكان هذا صوتاً آخر هذ المرة .

فقال جونى : « هذه أمى . . تريدنى أن أتناول الشاى . أو تريد أنت تناول الشاى ؟ » .

وابتسم اجزوما ثانية ، وفكر فيما يمكن عليه هو هذه المرأة البيضاء التى تعمل ميزى لديها . وانفتحت البوابة ، وخرجت سيدة ميزى البيضاء ومن خلفها ميزى .

وصاحت ميزى فى دهشة حين رآته : « اجزوما . . ألم تذهب إلى المناجم ؟ » وبدا أنها لم تأبه بالمرأة البيضاء .

- كلا . ذهبت وانتهيت من عمل اليوم . وسأستأنفه ثانية عند منتصف الليل .

- مفهوم .

وقالت المرأة البيضاء للطفل : « تعالى ياجونى وتناول شايك » .

- فقال الطفل : « لأريد شايا » .
- وسأله المرأة : « أتريد أن تكبر مثل صديق ميزى ؟ » .
- فأجاب الطفل « أوو .. أجل » .
- إذن يجب أن تتناول الشاي .
- وسأل الطفل اجزوما : « الديك شاي ؟ » .
- فقال اجزوما وهو يوميء بشدة : « نعم » .
- فقالت المرأة : « ألم أقل لك ؟ وستقدم ميزى الشاي لصديقها أيضا » .
- فسأل الطفل ميزى : « استقدمين له الشاي ؟ » .
- نعم .
- وبعضها من كعك أمي ؟ .
- فقالت أمه : « بالطبع » .
- فقال الطفل : « حسن » وتبع أمه .
- وقال اجزوما : « لم أكن متأكدا أن هذا مكانك » .
- فقالت ميزى : « إننى سعيدة بمجيئك » .
- وسيدتك البيضاء ؟ .
- إنها إنسانة طيبة . ادخل .
- وتبعها اجزوما إلى الغرفة الصغيرة التى بات فيها الليلة الماضية .
- وسأله ميزى : « هل أكلت ؟ » .

- أجل .

- ستناول الشاي ؟

- أجل .

وذهبت ميزى لإحضار الشاي ، وجلس هو على السرير .
وأحس فعلا أنه أحسن حالا . وهكذا الأمر مع ميزى . إنها تفهمه
وتجعله يشعر أنه أفضل حالا . لكنه لم يستطيع أن يتزع من رأسه منظر
الرجل الذى بصق دما . إنه مازال يسمع سعاله ، ويرى النظرة التى
كانت فى عينيه . وعادت ميزى بالشاي ويعض كعك الأم .

وقالت : « المرأة البيضاء ترسل إليك هذا » « وابتسمت » .

ويادلها اجزوما الابتسامة . وهكذا الحال مع ميزى عندما
تضحك ، لابد للمرء أن يبادلها الضحك ، وحين تبسم ، لابد للمرء
أن يبادلها الابتسامة كذلك . فيها دفء يبين فى ضحكات عينيها
ويشيع فى الآخرين ، وقدمت له ميزى قدحا من الشاي .

ماذا بك ؟ إنك تبدو حزينا .

فقال لها : « شاهدت إنسانا يبصق دما » وحكى لها عن الرجل
الذى له زوجة وطفلان ويدين بثمانية جنيهات .

- ويجعلك هذا حزينا ؟

- لأدرى . الرجل سيموت ، وكان سعيداً لحصوله على نقود
يسددها من أجل بيت زوجته وطفليه .

فسأله ثانية : « ويجعلكم هذا حزينا ؟ » .

ونظر إليها دون أن يدري ماذا يقول لها .

فقلت برقة وقد ثبت ناظرها عليه : « أنت إنسان طيب جدا
ياجزوما ، وأنا شديدة الإعجاب بك » .

ورأى اجزوما الرقة فى عينيها ، فأشاح بوجهه .

- وأنا معجب أيضا ياميزى .. معجب بك كثيرا جدا ،
ولكن ..

وابتسمت ميزى : « نعم ، أدرى » .

- كلات أنت لاتدرين ! / أنت تظنين أننى أريد أن أحبها ،
ولكن الأمر ليس كذلك . إنها لاتصلح لى .. أنا أدرى ولكنى
لأملك أمر نفسى . كأنها شيطان يتلبسنى . ولق أقيمت بعيدا لأننى
أعلم أنها كشيطان يقبع داخلى .

- وأساليب البيض تشبه شيطانا يسرى فى عروقها .

- أجل .

- آسفة ياجزوما .

- لكننى معجب بك حقا ياميزى . أنت الوحيدة التى تجعلنى
أضحك .. حين أكون مهموما آتى إليك .. أنت الإنسانية الطيبة ،
أعلم ذلك . ولكن لو ابتسمت تلك الإنسانية لى لذبت شوقا إليها .

وأطلت ميزى من النافذة .

- إنك متعب ياجزوما ... استلق على الفراش .

وتمدد اجزوما فوق السرير وأغمض عينيهِ .. وأحسن أنه أفضل
حالا لأنه يتحدث مع ميزى .

ولم يعد إحساسه الآن بأنه يخدعها قوياً كم كان . وساد بينهما صمت لفترة طويلة ، إذ جلست میزی تحديق من النافذة ، أما هو فكان راقداً مغمض العينين ، يغمره إحساس قوى بالطمأنينة .

ثم تذكر دلادلا فقال دون أن يفتح عينيه :

- دلادلا يغدر بلياه .

- دلادلا ؟ كيف عرفت ؟

- أبلغنى بذلك جوهانز . كان ثملاً فى الليلة الماضية ، وكان يتبجح على جوهانز .

- اتعلم لياه بذلك ؟

- كلا .

ثم امتدت فترة صمت أخرى بينهما ، ونهضت میزی من مكانها بالقرب من النافذة واتجهت ناحية السرير ، ووقفت تنظر إليه من عل . وفتح عينيه وتطلع إليها .

- سوف أسرع بإنهاء عملى ثم نذهب لنحذر لياه .

- أنت شاهدتها وهى تقسم أنها ستنال من ذلك الذى يغدر بها ؟

يجب أن نبلغها . . أغمض الآن عينيك وحاول أن تنام . يجب أن تستريح وإلا ستجد نفسك متعباً الليلة حين تبدأ عملك .

ومست میزی بأصابع باردة رقيقة . وتباطأت ثانية واحدة أو ما يقرب من ذلك ، ثم جذبتها بعيداً عنه ، ثم كررت قولها ثانية : « نم » وخرجت وأغلقت الباب خلفها .

عند الغسق وفي ليلة كانا يسيران وسط الشوارع المظلمة في طريقهما إلى مالاى كامب لتحذير لياى . لم يتبادلا من الكلمات إلا القليل . وكانت ميزى هادئة رقيقة كعادتها ، ولم يبد عليها المرح والضحك اللذان يلازمانها دائما ، ومشى اجزوما إلى جوارها .

و حين اقتربا من المكان أخذت اليزا تحتل تفكيره ثانية . وكانت قد توارت عن فكره منذ أن ذهب مع ميزى صباح الأحد إلى هوبفلاى ، وأحس آنذاك أنه مطمئن وسعيد ، وإن شعر أن هذه السعادة كان ينقصها شيء ما . وهو يدرى الآن أنه آمن فى قرارة نفسه أن ميزى هى التى منحته هذه السعادة وليست اليزا وتمنى أن لو كانت هى اليزا ، اليزا ذلك هى التى يبتغيها . لو أن اليزا فقط تضحك كما تضحك ميزى ، وترقص مثلما ترقص ميزى ، وتخرج معه كما تفعل ميزى ، لكان سعيدا ، ولبذل جهدا شاقا فى العمل ليحصل على الأشياء التى تجعل المكان الذى يعيشان فيه يشبه مكان الرجل الأبيض . لكنها ليست مثل ميزى ، فهى لاتضحك ، ولا ترقص ، وتمنى لو أنه لم يحبها هكذا . ونظر إلى ميزى وتمنى لو أنه عشقها . ولكنها اليزا هى التى تعلق قلبه بها ، وهى التى يتوق إليها .

- ميزى .

نعم ؟ .

- لماذا يكون الأمر على هذه الصورة عندما تحبين إنسانا ما ؟

فقلت میزی وهی تشیخ بوجهها عنه « ربما لأنک أخطأت فیمن
أحبته » .

قد لاتستطیعین أن تتمالکی نفسک .

- أدری . . . لاأستطیع أن أتمالك نفسی . . . وهی ؟ .

- لاأدری .

- لماذا لاتحدثها ؟ .

- صعب . . . معک أستطیع أن اتحدث ، وليس الأمر معها
كذلك .

- لقد جاءت إلیک فی تلك الليلة . . . أعنی . . . هل أنت الذى
طلبت منها المجیء ؟ .

- لم أطلب منها ذلك . . . هی التى جاءت .

- إنها تحبك یااجزوما .

فسألها وهو ينظر إلیها بحدة : «كيف یمكن أن یحدث ذلك ؟» .

- هكذا الناس یااجزوما .

- أنت لست كذلك .

- أنا لست الیزا . . . وأنت لست عاشقا لى .

- وأنت ؟ .

ورفعت میزی ناظریها إلی وجهه . وانشق قمها عن ابتسامة مرة
، وإن یلاً الضحك فی عینیها ، وهزت رأسها ببطء .

وسأل أنجزوما بإصرار : « أنت تحبيننى حقا ؟ » .

- وماذا يعنى هذا لك ؟ .

وراح اجزوما يشاهد أضواء النيون وإعلاناتها بألوانها المتعددة
تومض وتنطفئ عن بعد ثم قال :

- إنه يعنى الكثير .. يعنى لى الكثير لأنك إنسانة طيبة ،
وأستطيع أن أفهمك وأتحدث إليك .

- وماذا عنى ؟ أيطيب لى أن أشاهدك وأنت تجرى وراءها ؟
أيطيب لى أن أراك تأتى إلى فقط عندما تهرب منك ؟ وأنت تقول لى
إن من الخير أن أحبك .. سر فى طريقك يا اجزوما .

وعبرت ميزى الطريق وأسرعت تهبط إلى شارع جانبى . وحاول
اجزوما اللحاق بها ، ولكن حركة المرور وتدفق الناس حالا دون
ذلك ، أيضا فوقف على حافة الرصيف برهة من الوقت . اليزا
تغضب منه دائما وميزى الآن غاضبة أيضا . وهز كتفيه استهجانا ،
واتخذ طريقه على مهل إلى مكان لياه . وكانت لياه وحدها ، وكانت
ثملة بعض الشيء ، تلالأ عيناها فى سعادة . تلبس رداء أزرق
زاهيا بزهور حمراء وبيضاء ، وحول رأسها منديل كثير الألوان ،
ووجهها يضوى من الدهان الذى دعكته به بعد غسله . ومن كل
أذن تدلى قرط زجاجى طويل ، وحول جيدها القوى الجميل خيط
من حبات زجاجية صغيرة . وكانت وسيمة وهى تقف فى الشرفة ،
بل أكثر وسامة من أية مرة أخرى رآها فيها اجزوما . وكانت تقف
هناك حتى يشاهد كل واحد جمالها الشريد . وتوقف اجزوما وراح
يحملق فيها بإعجاب .

- ياسلام ! ولكنك جميلة إلى الحد الذى يحتم التطلع إليك .
وضحكت لياه .. ضحكة عميقة .. قوية .. تغلفها السعادة .
وسأله متباهية : « هل رأيت حذائى ؟ » .
- كلا ، أرنيه .

ونخطت إلى الطور وراحت تستعرضه ، وكان أسود لامعاً قصير
الكعبين جديداً .

- جميل ؟

- أجل .

وقالت امرأة عبر الطريق : « دعينى أره يالياه » .

ونخطت لياه إلى الشارع .

فقال المرأة : « تعالوا وتفرجوا على ملابس لياه الجديدة » .

وخرج أناس ودعوا آخرين . لقد خرج الناس الذين يسكنون كل
البيوت القريبة من بيت لياه ليتفرجوا على ملابسها الجديدة . ولكى
تتيح لهم رؤية أفضل ، أخذت تمشى فى الشارع بتمهل جيئة وذهاباً
محاكية سيدات جوهانسبرج الأنثى من البيض ، وتهز ردفها وتحاول
التزحلق . وصخب الناس فى غبطة ، وبأسلوب أنيق وضعت يسراها
على ردفها ، وأمسكت بيمنها مبسم سجائر وهمى ، وراحت تنفض
رماداً وهمياً ، وتبتسم ابتسامة البيض فى تشامخ وخرج دادى العجوز
السكير إلى الشارع يتدحرج ، ورأى لياه ، فانفتحت عيناه فى دهشة ،

ثم أضاءتا فجأة ، فشد قامته وبدأ شديدا الغطرسه ، وفرد ربطة عنق وهمية ، وخبط نفسه بقفاز وهمى ، وأدار فى يده عصا وهمية . والتفت يمنة ويسرة وتنحنح وسار فى خط مستقيم بعض الشيء وصعد إلى لياه وانحنى بطريقة أوبرالية . وأومأت لياه التى كانت لاتزال تنفض سيجارة وهمية ، إيماءة واضحة ، وبتؤدة مدت له يدها ، ومع كثير من الحركات المسرحية ، هبط على ركبتيه وقبل اليد الممدودة . ومع انتصابه واقفا فضحت الجعة نبالته ، إذا انكفاً على وجهه فى الشارع ، فضحك الناس وصفقوا ، وأمسك اجزوما جانبيه من شدة الضحك وانسابت الدموع من عينيه . وبعيدا من كل هذا ، جلست ميزى بلا حول عند قناة الصرف وكانت قد وصلت فى التو .

ودون أن تتحرك خلجة من خلجات وجه لياه ، راحت ترقب دادى بانتباه ، ويدها لاتزال ممدودة . كل بوصة فيها تشير إلى أنها سيدة متغطرسه . ونهض دادى وفرد ربطة عنق شبحية ، وخبط نفسه بقفاز غير مرأى ، وأدار فى يده عصا ، ولاوجود لها ، ثم انحنى ثانية انحناءة تامة .

ثم وبوقار متناه تناولت لياه يده ، ورفع قبعة لاوجود لها ، وسار الهوينى فى الشارع جيئة وذهابا ، تتأبط السيدة ذراعه ، وتنفض سيجارتها ، ويدير السيد عصاه ، محاولا بطريقة ما أن يتحكم فى اتزان مشيته . وضحك الناس وصاحوا وصفقوا ، لكن السيدة العظيمة والسيد لم يلتفتا إليهم . وكانا يديان ابتسامات جافة متعالية ويؤديان دورهما بحركات مسرحية بسيطة ، فتنفض السيدة سيجارتها ، ويدير

السيد عصاه . وبعدئذ ووسط عاصفة من التصفيق ، ذهبا إلى البيت . . وما زالت هي السيدة وهو السيد . وبعد دقائق معدودات خرجت لياها إلى الناس وأبلغتهم أن السيدة والسيد رحلا ، ودعت كل فرد منهم إلى حفل . ، وأطرى الناس الدعوة فى صخب ، ومضى كل منهم إلى بيته ليرتدى أفضل ما عنده من ثياب .

ونفضت ميزى وراحت إلى اجزوما وسألته :

- هل حكيت لها عن دلادلا ؟ .

- كلا .

- أنا التى سأحكى لها .

. وتطلع اجزوما إلى نهاية الشارع ، وكانت اليزا قد انعطفت فى التو من الناصية . وتابعت ميزى نظراته ورأتها ، فاستدارت فجأة ودخلت البيت . وبقي اجزوما فى الشرفة يشاهد اليزا وهى تصاعد مع الشارع . وأراد أن يذهب للقائها ولكنه لم يجرؤ . كانت جميلة وهى تصعد على هذا النحو . . رأسها مرتفع ، وجسدها يتمايل قليلا مع تحركها . هى كل شىء يريد فى امرأته (خليلته) التى يتمناها لنفسه . وكان بمقدوره أن يقف هناك ويشاهدها إلى الأبد لو أنها تتحرك دوما على هذه الصورة . بمقدوره أن يشاهد نهديها النافرين وساقياها القويتين طوال حياته .

ورأتها اليزا ولوحت له ، فلم يصدق عينيه ، أمر لا يمكن أن يكون حقيقيا ، ولكنها لوحت له فوثب من الشرفة وابتسامة شوق ترتسم

على شفتيه ، ولكنه لم يمض إليها وانتظر ، ولوحت له ثانية . .
أجل أكان التلويح له . وتقدم مسرعا ، فابتسمت له ، فتناول يدها .

- أهلا يا جزوما . . جميل أن أراك . أنت لن تحقق على من
الآن فصاعدا . . أو ليس كذلك ؟ . وكان صوتها رقيقا عذبا . . وكان
شيئا جميلا أن ينظرز إلى عينيها ويرى مافيها من دفء تجاهه ،
وأجاب :

- لست حائقا .

- تسببت في تعاستك .

فقال : « لم يكن شيئا ذا بال ، دعيني أحمل حقيبتك » .

وتناول منها الحقيبة فابتسمت ، وتأبطت ذراعه ، ومالت
عليه قليلا وتطلعت إليه . وكان في عينيها دفء وعشق ، وكان
سعيدا ، وقد نسي كل شيء آخر . . فإلذا كانت لصديقة به تتكىء
على ذراعه ، فأحس بدفء جسدها وكان في صوتها نعومة . لا يهمه
الآن أنها آلتة في الماضي ، فهي الآن بصحبته ، تميل عليه ، وعلى
شفتيها ابتسامة ، والضياء يشع من عينيها . هذا كل مايهمه الآن ، لا
الأمس ولا كل ما حدث بالأمس .

وبشدة كرر ما قاله : « لم يكن شيئا ذا بال » .

وربت اليزا على يده وقالت : « كان شيئا سيئا » .

فقال : « لا ، لو أحب رجل امرأة فإنه يوله بها . . هذا كل مافي

الأمر . لا وجود لما هو طالح ولا لما هو صالح . .

لا يوجد فقط سوى الحب . . الشيء الوحيد السيء هو أن رجلا يحب امرأة لا تبادله الحب فهذا الشيء السيء . أما لو أحبها وأحبته ، فلا يوجد سوء حيثئذ . وأنا أحببتك ، ولو أحببتنى فلم يكون ذلك أمراً سيئاً .

وتوقف يتطلع إليها فى قلق ، ورقت عيناها حين رأت نظرة القلق فى عينية ، وضغطت ذراعه بيدها . .
- لو أحب رجل امرأة ولم تبادله هى الحب ، فما السوء فى هذا ؟ .

- لأن الرجل عندئذ لن يكون سعيدا .

- ربما كانت المرأة لاتصلح له .

- ربما . . ولكن حين يحب الرجل فهو يحب حقاً .

- وأنت . . ستسعد لو أحببتك ؟ .

وتوقفا خارج البيت . ونظر اجزوما إلى اليزا التى رأت فى عينية الإجابة عن سؤاله . لقد كانت موجودة ، وكانت من القوة بحيث أنها لم تستطيع أن ترفع عينيها فى عينية . وحملتها بعيدا مثلما حملها هو يوم السبت ليلا ، وبدا وكأنهما وحيدان فى هذا العالم . . هما الاثنان فقط فى هذا العالم الفسيح .

- جئت إليك يوم السبت ولم تطلب أنت منى ذلك . . لم كان هذا ؟ . وأتشاجر معك دوما . . لم ؟ . وحين لاتكون موجودا أبتغيك وأحن إليك ، لم ؟ الأمور تكون هكذا دوما بين الرجل

وامراته (خليلته) . وأنت رجل يا جزوما ، وينبغي أن تعرف . اسمع يا جزوما ، أنا خليلتك ، أردت أنا ذلك أو لم أرد ، فهذا هو الوضع ، لست أملك أمر نفسي . . إننى خليلتك بكل مافى الكلمة من معنى ، ولكنك يجب أن تكون شديدا معى لأننى سيئة . وتشبثت بذراعه ، وافترت شفتاها عن ابتسامة مرتعشة ، ولمعت الدموع فى عينيها .

- وهذه الأشياء التى تبتغيها ، ماذا عنها ؟ . أشياء الرجل الأبيض ، ورجل يستطيع قراءة الكتب ، ويتكلم معك بلغة الرجل الأبيض ؟ . الأشياء ، ربما استطعت أن أوفرها لك لو إننى عملت بجد . لكننى لأستطيع قراءة الكتب وأتكلم بلسان الرجل الأبيض . . هيه ؟ .

فقلت وهى تطاطبىء رأسها : « جنون . . إنه جنونى ووحين يحل لاتدعنى أسبب لك ألماً . اتركنى وحدى ، وعندما يزول ساكون بخير مرة أخرى . حين يحل بى ، عليك فقط ان تباعد عنى ، وعندما تعود سيكون قد ولى عنى . أحبك حقاً يا جزوما . . إننى إمرأتك (خليلتك) . وأنا أريد ذلك » . وكان صوتها نحيب .

وحين تطلعت إليه ثانية عاد إلى عينيها الصفاء . لقد اختفت الدموع ، وولت الأطياف ، وأكدت له العينان أنها تحبه ، واحتواها بين ذراعيه وضمها بشدة .

- جميل . لقد قال ذلك بقوة رجل مزهو بانتصاره ، وابتسم فى وجهها ، فبادلته الابتسامة .

وكان المارة بالشارع يتطلعون إليهما وهما واقفان يميل كل منهما

على الآخر ، وينظر كل منهما فى عين الآخر فيغض المارة من
أبصارهم ويومئون برؤسهم بطريقة توحى بالفهم ، ويمضون لحال
سبلهم .

وقال اجزوما : « الحياة جميلة » . وأراد أن يصيح بها بأعلى
صوته ليقول لكل إنسان فى كل مكان أن الحياة جميلة .

وقالت اليزا : « أجل » .

وقال لها : « أنت جميلة » .

فقالت : « كلا » وغضت من بصرها .

وقال بإصرار : « ولكن هذا صحيح .. حين رأيتك أول مرة
تطلعت إليك وقلت لنفسى إنها جميلة هذه حقيقة » .

فقالت : « عينا المحب لاتصدقان القول » .

فقال : « هذا مثل غير صادق » .

وضحكا ، وأدرك أن هذه هى المرة الأولى التى يسمع فيها اليزا
تضحك ، وأن ضحكها هذا جميل ، شبيه برنين عدد كبير جدا من
النواقيس الرقيقة الشجية .

وقالت ميزى : « يجب أن ندخل » ونظرت إلى الشارع . فقد
وقف صبيان صغيران يراقبانها ، ترتسم على وجهيهما إمارات التسلية
والاستهزاء .

وخرجت ميزى ، فالتقطت عيناها كل شىء بنظرة خاطفة ،
وقالت :

- الطعام جاهز .

فتبعها اجزوما واليزا إلى البيت .

وكان الآخرون قد جلسوا إلى المائدة ، فقد أعدت وجبة سريعة للناس الذين بدأوا بالفعل في المجيء لحضور الحفل . ونظرت لياه إلى اجزوما وأطلقت ضحكة ممزوجة بنخير عال وفظ .

- هكذا ! وأخيرا أقبلا سويا - الكلب والكلبة ، هذا شيء طيب . لقد انتهى الأمر الآن ، وكنت على وشك أن يصيبني منه الملل . حسن ! فيم وقوفكما هناك ؟ تناولا الطعام ! لا يكن حبكما سبباً يدعو إلى تعطيل حفلاتي .

وجذبت اليزا اجزوما إلى إحدى الدكك ، وقالت :

- نيتها سليمة ، لا يزعجك لسانها .

فقال اجزوما : « أعرف » .

ونفضت لياه ونظرت إلى ميزى ، ورقت نظراتها عينيها لبرهة قصيرة ، ثم اختفت الرقة ولفت ذراعها حول كتفى ميزى ، وأمسكت بها في تعاطف وقالت برقة :

- هيا ياميسزى ، لدينا عمل ولدينا لهو كثير . وستأسين أنت الحفل ، وستوجهين الراقصات ، ستبدأين الحفل ، وكل الأوامر أوامرك أنت .. هيه ؟ .

فقالت الأم بلانك : « سيكون هذا شيئاً جميلاً للغاية » .

وقالت اليزا : « ولكنى أريد أن أبدأ أنا الحفل » .

فقلت لياه بخشونة : « اعتنى أنت بخيلك يامعلمة » وتوجهت
بميزى إلى الفناء ، حيث وقف الناس يضحكون ويتحدثون وحيث كان
تنغيم آلات الموسيقى .

وقالت لياه لميزى : « يجب أن تسعدى الليلة » .

فقلت ميزى : « إننى سعيدة » وعانقتها .

- امض إذن وابدأى الرقص ، واضحكى ياطفلتى لأن ضحكك
جميلة ، وستجعل الآخرين أيضا يضحكون . امض ! .

وتقدمت ميزى ورفعت يديها ، فتوقف الناس عن الكلام ،
وهدأت الموسيقى . وكانت هى تقف تحت مصباح مربوط فى جبل
غسيل ، وقالت لهم عليهم أن ينسوا متاعبهم وأن يسعدوا ، لأن
السعادة شىء جميل . ثم راحت تشدو بأغنية عن السعادة ، يصحبها
الجيتار والتا التانجو والكونسيرتينا . ودندن الناس معها . وكانت
الموسيقى دافئة منعشة ، وكان صوتها دافئا فيه بهجة . وشع
الضحك من عينيها ثانية وهى تغنى ، وسرى الضحك إلى صوتها
.. إلى يديها .. إلى طريقة وقوفها .. إلى الطريقة التى كانت
تفتح بها فمها .. إلى الطريقة تتطلع بها إلى الناس . وأحس الجميع
بذلك ، فبان على وجوههم ، وفى عيونهم ، وفى الابتسامات
المرتسة على شفاههم .

وصاحت ميزى : « الآن إلى الرقص » وجذبت إليها فتى وسيما .

وارتسمت على جانب فم لياه ابتسامتها المعهودة ، وبسرعة
كفكت دمة أطلت .

- هذه الإنسانة جميلة .
- أجل ! إنسانة جميلة جدا . ذلك الإجزوما مغفل .
- واستدارت لياه حوله . لم تكن تدري أن الأم بلانك قريبة منها .
- لم أكن أتكلم معك أيتها العجوز .
- وابتسمت الأم بلانك .
- أعرف .. لقد كنت تحدثين نفسك ، لكنى سمعتك .
- والحقيقة أنه مغفل .
- اليزا جميلة .
- أدري ، ولكنه مغفل .
- ليس مغفلا من يستحوذ على المرأة التى يبتغيها ياعجوز .
- ولكن كل الرجال الذين يتغنون النسوة اللاتى يستحوذون عليهن ، مغفلون .
- أنت غبية أيتها الأم بلانك . إنك لاتستطيعين أن تتقدمى إلى رجل وتقولين له « هذه المرأة لك فأحبها » . يقع الرجل فى حب امرأة ويكون الحب هو كل شىء بالنسبة له .
- أدري ياطفلتى ، ألم يكن الأمر كذلك مع دادى .
- وهنا ضغطت لياه على يد المرأة العجوز .
- فقالت الأم بلانك : « إنه هكذا دوما » ثم تشاءبت .
- وتقدمت امرأة عجوز وجرجرت الأم بلانك بعيدا . ووقف لياه

وحدها فترة تشاهد الحفل . لقد بدأ بداية حسنة ، ولسوف يكون حفلا جميلا . ثم فيما بعد ، وفي غضون أيام قليلة سوف تتصرف مع دلادلا ، الذى كانت هذه الحفلة من أجله ، والتى كانت احتفاء باكتشافها خيائته .

واشتغلت وسط الفناء نار ضخمة كانت تدفئ المكان ، وراح الناس يخلعون ستراتهم . ونادت لياه شاين وطلبت منهما أن يبدأ فى إشعال مواقد صغيرة فى أماكن أخرى من الفناء . وكانت أرضية الفناء قد تم تسقيتها بخليط من الأسمت والسماد الطبيعى ثم دكها ثم تلميعها بحجر ، فكانت الآن شبيهة بأرضية صالة رقص . وسرعان ماأشاعت المواقد الدفء فى الفناء كله ، وأصبح كل شىء جميلا .

وفى ركن بعيد من الفناء ، قامت جماعة من المسنات بالسهر على الطعام ، فسار كل شىء كما ينبغى أن يكون عليه .

ودخلت لياه البيت ، وكان اجزوما واليزا هناك وقد تناولا الطعام فى تودة . فقالت لياه :

- هكذا . . . وابتسمت لهما .

وأفسح اجزوما مكانا لها على الدكة واتجهت إلى دكة أخرى قبالتهما . وأدركت أن اجزوما سعيد ، وكذلك اليزا . كما رأت أنها مختلفة . كان فى عينيها رقة غير مألوفة جعلتها أكثر جمالا ، واختفت الصرامة عن فمها ، وبدت أكثر وهناً . ، لم يكن جسدها مشدودا ومنتصباً . وكانت يدها تعبث بجوارها وتتحنن بعضها من أعضاء اجزوما .

وهزت لياه رأسها .. هكذا الحال دوما مع المحبين . تعثر المرأة على رجل فيصبح العالم مكانا جديدا . وتذهب عنها صلابة المقاومة في جسدها . ويتوقف عناد رأسها ولن تعود تفكر بعقلها بعد ذلك ، ولكنها ستحس بقلبها . أجل .. الأمر هكذا أبدا .. ومع الرجل ، نفس الحال أيضا ، الكتفان تستقيمان ، والبسمة لاتفارق شفتيه ، وتمتلىء النفس ثقة من جديد .. أجل ، كان الحال هكذا أبدا ، وسيكون كذلك أبدا حين يقع في الحب رجل وامرأة .

وسألتها لياه : « أنت الآن سعيدة ؟ »

وأجابت اليزا : « أجل يالياه » .

ورقت نظرة عيني لياه ، وتراقصت ابتسامة شفتيها .

- جميل . فلتحدث إذن والحديث بيني وبينك ياجزوما .

قال اجزوما : « هذا شيء طيب » .

- استمعي ياليزا ، ولكن تذكرى أن الحديث ليس موجهها إليك .

وأومأت اليزا ومالت على اجزوما ، فأحاطها بيده .

وفي الخارج ازداد جو الحفل دفئاً وحرارة .. وكان صوت الموسيقى أكثر ارتفاعا ، ووصل ضحك الناس وصياحهم إلى الغرفة . وكان صوت ميزى بين الفينة والفينة فوق أصوات الآخرين .

- هذه الإنسانية أحيانا ما يصيبها الحمق ياجزوما .. أنا أدري لقد رعيتها طوال الوقت ، وراقبتها ورأيت الأفعال التي كانت تأتيها .. إنها أحيانا ماتكون حمقاء ، هيه ؟ .

- أجل .

سيتابها الجنون أحيانا ، فدعها لجنونها . إنه جنون المدينة ..
ولو كانت صنفا آخر من الرجال لقلت لك خلصها منه . لكنك أنت
أيضا أحق ، لذلك عليك أن تدعها لجنونها . هل هذا حديث
طيب ؟ .

- هو كذلك .

- حسن . وأنت رجل طيب يا جزوما ، وستعنى بها الآن ،
فدورى سينتهى معها . هى الآن امرأتك (خليلتك) ، وإذا لقيت
متاعب فتعال إلى لياه لأنى أحبك ، وأحبها ، ولسوف أساعدك ..
هذا كل مافى الأمر . وقد انتهى الإندابا (الحديث) معك يا جزوما

..

وحولت لياه عيناها إلى اليزا .

- حديثى الآن معك . بالنسبة لك ثمة شىء واحد ، وهو أن
تصدقينى القول .. أتحين اجزوما أم هى حالة الجنون التى تتابك
أحيانا ؟ .

وكان فى الخارج انفجار من ضحك مرتفع وممتد ، وبدا كما لو
أن داذى يمارس بعضا من جنونه ثانية .

ونظرت اليزا إلى لياه ، وكان مافى عينى لياه يجعل من الصعب
على اليزا أن تشيح عنها بوجهها ، فقالت :
- أحبه .

فقلت لياه : « هذا شيء جيد ، لوأحبت امرأة رجلا ، فإنها تعمل مافيه خير له . ولك عندي هدية .. الأشياء التى بالغرفة الصغيرة هى لكليكما حين تريدان أن تشرعا فى تكوين بيتكما ..
والآن ، أخرج يااجزوما وابحث عن ميزى وراقصها .. سيكون ذلك أمرا طيبا ، اخرج ! » .

وتردد اجزوما ثم خرج .

فقلت لياه لاليزا : « إنه رجل جيد » .

وأومات اليزا وشرعت ترفع الصحون .. وجلست لياه تراقبها ، وفجأة تركت اليزا الأشياء وهبطت إلى الأرض على ركبتيها أمام لياه ، ودفنت وجهها فى حجرها وتشبثت .

وجد اجزوما ميزى وسط جماعة من الشبان فشق طريق إليها . وكانت ميزى تضحك ، ومن فمها المفتوح ، لمعت أسناتها الجميلة . ورغب الشبان فى أن تختار هى واحدا منهم يرافقها طوال الليل .

وقال واحد منهم : « سأرقص معك أنت فقط » .

وأعلن آخر : « أنا أرقص رقصا جيدا » .

وقال ثالث : « أنا الأقوى » .

وقال آخر : « لن أتخلى عنك » .

وعرض آخر أكثر من ذلك : « سأخذك إلى البيت » .

وتناول أحدهم يدها وأطرى جمالها ، ولكن ميزى رفضتهم جميعا بضحكة مرحة وبهزة من رأسها .

وقال اجزوما : « أو يمكن أن أرقص معك ؟ » .
والتفتت إليه وكفت عن الضحك ، وتطلع إليه الشبان .
وقالت میزی : « أجل » وخطت بالقرب منه .
ونذب الشبان حظهم وسأل بعضهم بعضا عما يكون ذلك الرفيق
المحظوظ . ورقص اجزوما ومیزی في صمت . وكان حولهما آخرون
أزواجا أزواجا يتدافعون وينادون على أصدقائهم وجيرانهم .
وسرح اجزوما بفكره في اليزا وابتمس .. اليزا ، عشقته ! وحبها
قوى ومبهج كحبه .

وقال لمیزی : « إنها تحبني » .
فقالت میزی : « أنا سعيدة من أجلك » .
فقال لها : « أنت صديقة طيبة » .
فقالت : « يحب أن تتذكر موعد الذهاب إلى العمل » .
فقال : « سأتذكر » .

وتوقفت الموسيقى ، وذهب إلى حيث توجد المسنات السلاتي
جلسن مع الطعام ، وكن يوزعن بتقشير قطعاً صغيرة من اللحم
والخبز . ووقف اجزوما ومیزی وجها لوجه ، ولم يكن لديهما سوى
القليل من الكلمات التي يمكن أن يتبادلاها . ولحقت اليزا خارج
الغرفة ولفت ذراعها حول ياجزوما وقالت في سعادة :

- أهلا يامیزی .

فقالت میزی : « تبدين سعيدة » .

فقلت اليزا : « إننى سعيدة » وسلمت عليها .

وقالت ميزى : « اجزوما يجب أن يكون فى العمل فى الثانية عشرة ، ذكرىه » .

أومات اليزا وأطلت فى ساعتها ، ومشت ميزى وكان الشبان فى انتظارها ، فرحبوا بها بابتهاج . وعزفت الموسيقى ثانية ، ورقص اجزوما مع اليزا ، وانتابه شعور جميل يراقصها ، كانت كالريشة بين ذراعيه . . خفيفة ، مطواعة ، سريعة ، وكانت الموسيقى تناسب فى عروقهما ، فلم يلحظا الجمع الراقص حولهما . كان كل منهما يتطلع إلى عيني صاحبه ويمسك به بشدة .

وتوقفت الموسيقى ، فجذبت اليزا إلى ركن هادئ ، وجلسا على بعض الأكلمة بالقرب من نيران ، وكان بالقرب منهما المسنون الذين يتفرجون على الرقص . وتركته اليزا يريح رأسه فى حجرها . وقدمت امرأة عجوز شيئا من طعام لاليزا ، فراحت تطعم منه اجزوما ، تلقمه قطعا صغيرة ، وتداعب بشعره . ومن حولهما كان الناس يتضحكون ويغنون ويرقصون ويرون الحكايات ، أما هما فكانا وحدهما وكانا سعيدين اليزا ترسم على جبهته أشكالا بإصبعها ، وتتبع معالم وجهه ، وفى كل مرة تقترب يدها من فمه ، كان يطبقه عليها . وحين فرغا من الطعام راح اجزوما يحكى لها عن موطنه وعن أهله وعن الأشياء التى كان يفعلها وتلك التى كان يود أن يفعلها حين كان صبيا صغيرا . وقال لها بشيء من الزهو إنه كان أقوى صبي فى قريته ، وحدثها عن أمه التى توفيت ، وأبيه العجوز وأخيه الصغير وأنهى حديثه بقوله :

- سوف تعجبين بهما وستعجبين بالمكان أيضا .

وقالت : « أجل إنه جميل . ويجب أن نزرورهما . . هيه ؟ » .

فأكد : « سنفعل ! . ولكن يجب أولا أن نكون بيتا وندبر مالا ، حتى نستطيع أن نأخذ لهما هدايا حين نذهب إليهما » .

ثم أخذت هى تحكى له عن نفسها . لم تعرف أبويها ، فقد توفيا حين كانت شديدة الصغر ، فرعتها لياه . وكانت لياه كريمة معها ، فأرسلتها إلى المدرسة . وحكت له عما كانت عليه المدرسة ، وماذا كان الناس يفعلون فى المدارس . وحاولت أن تحدثه عن حالة الجنون التى تتأبها فى بعض الأحيان . . ذلك الجنون الذى يجعلها تبغض نفسها بسبب سواد جلدها ، وتبغض البيض لبياض جلودهم ، وتكره أهلها لأنهم لا يشتهون أشياء البيض . لكنه كان يشق عليها أن تتكلم عن ذلك لأن الكلمات كانت تتأبى عليها . وكان يشق عليها أن تشرح الخواء الذى كانت تشعر به فى قلبها أحيانا ، والإحساس الذى يؤدى بها إلى الرغبة فى قتل الناس . . كان يشق عليها أن تجد الكلمات التى تعبر بها عن كل هذا .

وعقب هذا قالت فى بساطة .

- إنه جنون المدينة الذى يكمن داخلى .

فطلب منها ألا تتحدث عن هذا ، ومن ثم راحا ويداهما متماسكتان يشاهدان فى صمت رقص الناس وغناءهم وضحكاتهم ، وكانا سعيدين . وكانت إراحة رأسه فى حجرها بالنسبة له شيئا لطيفا . كما كان شيئا جميلا بالنسبة لها أن يريح رأسه فى حجرها

وكانت أصابعها تعبت بمعالم وجهه ، وحين تمسك أسنانه بها ،
تتعامل معها برفق .

وراحت تقول له مرارا وتكرار إنها تعشقه ، كما راح يقول لها
مرارا وتكرار إنه يعشقها وكلما باح أحدهما للآخر بحبه بدا هذا البوح
دائما وكأنه شيء جديد .

ومرت بهما لياه وابتسمت . وقالت لنفسها . . هكذا الحال دائما
مع المحبين . وتذكرت كيف كان رجلها - خليلها يغازلها . وتطلعت
إلى ساعته ، وكانت قد اقتربت من الحادية عشرة فقالت :
- حان وقت الانصراف .

لكن اجزوما لم يتحرك ، ومن ثم أجبرته على النهوض .
وتوقفت الموسيقى وكون الناس حلقة وراحوا يصفقون بأيديهم ويدقون
الأرض بأقدامهم . وكانت هذه رقصة الرجل والمرأة . . الرقصة التي
يتجه فيها الرجل والمرأة إلى وسط الحلقة ويتحادثان بأيديهما
وجسديهما وليس بشفاهما . وتذكر اجزوما المرة الأولى التي أدى
فيها تلك الرقصة . . لقد كانت مع ميري عند ناصية الشارع وتحت
مصباحه . وقال :

- هيا بنا نرقص . وأمسك بيدها .

وكانت ميري هي مغنية الرقصة . وارتفع صوتها فوق دق الأقدام
وتصفيق الأيدي ، ودخل اجزوما وإيزا وسط الحلقة ، ودعا اجزوما
إيزا إليه بيديه ، لكنها لم تأت . وكان في رفضها ألم ، وارتجف
جسدها وتلوى وجهها مع الألم الذي صاحب الرفض . وتعاطف
النسوة معها بصوت مسموع ، وشجع الرجال اجزوما .

وعلا فوق هذا كله صوت ميزى ، الذى تبدى فيه شىء من ألم من جراء رقص اليزا .

ومرة أخرى دعا اجزوما اليزا بحركة رقيقة فيها استجداء ، فتحركت تقترب منه . . خطوة . . خطوتين . . ثم لم تسطع أن تتحرك أكثر من ذلك . ورقصت فى نفس البقعة . ورغم شدة المحاولة ، فإنها لم تستطع أن تتحرك أبعد من ذلك باتجاهه . ورقص اجزوما بعيدا مغتما يائسا . وفجأة تحررت اليزا . استطاعت أن تتحرك قدما ، وراحت تتوسل إليه يديها ، وتدعوه بحركة من رأسها لكنه لم يكن بقادر على سماعها وكان يائسا محبطا . وتعاطف معه الرجال ، وشجعت النسوة اليزا على أن تدعوه بصخب أشد . وازداد إيقاع رقصها ارتفاعا ، وازداد توسلا ، وأصبح أسرع ، وراحت تلف وتدور ، تتوسل يديها ، تأمر برأسها ، تطالب بتقديمها ، وتلف وتدور ، أسرع فأسرع ، ومازال هو يرقص بعيدا يائسا ومغتما .

وتباطأت سرعة رقص اليزا . . صار رقيقا وهادئا . وازداد صوت ميزى نعومة وهدوءا .

وبشىء من الحياء ، وبشىء من اللهفة ، راحت اليزا ترقص قريبا منه إلى أن واجهته . ثم ، وبفيض من الحب مع كل حركة ، طلبت الزواج . لم تتوسل ، ولم تأمر ، طلبت الزواج فحسب . وزال عنه غمه . ورقص كل منهما للآخر . ثم تماسكا بالأيدى وراحا يلفان فى دائرة ، فى حركة نشيطة قوية تتم عن الانتصار ، انتصار الحب .

وانتهى الرقص ، وفى صخب أعلن الناس موافقتهم . وتشبثت اليزا باجزوما لاهثة الأنفاس ، وفى لهاثها قالت له : « يجب أن ننصرف » .

وربت الناس على ظهريهما وهما منصرفان ، وذهب بها إلى حجرته ، حيث بدل ملابسه . ودارت اليزا فى الغرفة كلها ، وأخذت تلمس كل شىء . ثم سارت معه إلى البقعة التى كانا فيها يوم السبت الأول ، وخفتت ضجة مالاي كامب وصارت طنينا بعيدا . وكانت النجوم ساطعة وبعيدة . وكان بإمكانهما رؤية كثنان المنجم عن بعد . . أشكالا غير محددة المعالم تعلو فى السماء .

وتذكر اجزوما المرة الأولى التى كان فيها معها فى تلك البقعة . لقد حاول أن يقبلها يومذاك لكنها قاومته . وخيل إليه أن ذلك حدث منذ زمن طويل . وكان يومها لايعلم شيئا عن المناجم . وهو الآن رئيس عمال ويعرف كثيرا جدا عن كل شىء على وجه التقريب . وسأله : « تتذكر تلك الليلة الأولى » ؟ .

- أجل .

- لم تكن تعرفنى ، ولكنك أردت تقبلى .

- وأنت لم تسمحى لى بذلك .

- خفت منك .

- والآن ؟ .

- والآن خوفى منك أكثر لأنى أحبك .

فقال لها : « يجب أن تعودى الآن » .

فقالت : « وهو كذلك » .

- كونى حريصة .

وأبقاها لصيقة به بضع دقائق ، ثم دفعها بعيدا عنه ، وأسرع هابطاً
الممر الضيق الذى يؤدى إلى اتجاه طريق المناجم . واستدار مرة
ولوح ، وظلت اليزا تراقبه إلى أن غطته طبقة باهته من ظلام .
ثم استدارت واتخذت طريقها عائدة في تمهل إلى مالاى كامب .

وصل إلى رأسه صوت طائر يشدو . بسأم كان يشدو . . ربما ،
لأنه كان متعبا . وتقلب على جنبه لكن شدو الطائر كان ما زال
موجودا . كان واضحا وكان يأتي من مكان على بعد كبير جدا .
وتنهذ اجزوما في أثناء نومه . وهدده الطائر بالإيقاظ من النوم . ربما
استمع إليه . وأنصت ، وهدده شدو الطائر فارتد ثانية إلى نوم
عميق .

وكان قد عاد إلى حجراته حين كانت الشمس الشاحبة الواهنة
تعلو في الأفق . لقد قصد أن يذهب إلى بيت لياه ، وكان يعلم أن
الوقت مازال مبكرا جدا على عودة اليزا ووجودها هناك . لكنه قصد
الذهاب هناك وانتظارها ، بحيث تجده في استقبالها حين تعود من
المدرسة . ولكن إرهاقا شديدا أُلجأ إلى الفراش ، وها هو الآن طائر
يشدو .

ونام ثانية نوما عميقا وتضاءل صوت الطائر وخبا تدريجيا ليتمتزج
بحلم عن اليزا والليله الماضية والحفل .

وكان العمل في نوبة الليل يختلف عن العمل في النهار . كان
الوقت يمضى أشد بطئا ، وكان العمل أشق . وكان من الصعب أن
يبقى الإنسان مستيقظا .

وعاد صوت الطائر ، واقترب فى إصرار ممل . وتأوه اجزوما
وتقلب على ظهره . وهنا ظهرت ضوضاء أخرى إلى جانب صوت
الطائر ، وحاول أن يصددها عنه ولكنها لم تبتعد . ثم كان ثمة خرير
ماء وحفيف أوراق شجر . وقد أكرهه كل هذا على أن يبقى مفتوح
العينين . وتبدل صوت الطائر بصوت إنسان يترنم . وفتح عينيه وراح
يحملق فى السقف . وكان ضوء النهار قد تسلل إلى الغرفة . ولم
يكن الجو فيها بارداً كما كان من قبل حين دخولها ، وتذكر أنه ألقى
بنفسه فوق فرش السرير ، لكن الفرش الآن يغطيه ، كما انتزع حذاؤه
كذلك من قدميه .

وأدار رأسه ، فإذا بنار مشتعلة تتوهج وسط الغرفة ، أما حفيف
أوراق الشجر فلم يكون سوى صوت قلى فى مقلاة موضوعة فوق
النار ، بيد أن الغرفة لم يكن بها أحد . وكان قد سمع ترنيما ولكنه
اختفى ، ثم عاد ثانية يسمع هذا الترنيم . . كان يصل إليه من خارج
الغرفة . . واقترب من الباب الذى انفتح لتدخل منه اليزا تحمل رغيفا
من خبز وبعض لفائف من ورق . .

وتوقفت عن الترنيم وابتسمت حين رآته مستيقظا ، وذهل حين
رآها ، لكنه شعر بالحمق لذهوله . إنه لم يكن يتوقع أن تيجئ إلى
الغرفة وأن تشعل نارا وأن تطهو له . ميزى قد تفعل ذلك - ولكن
اليزا ! لم يخطر ذلك بباله أبدا .

ووضعت هى الأشياء التى كانت تحملها على منضدة صغيرة ،
وأطلت على المقلاة ، ثم راحت لتجلس على حافة سريرة ، فصر
الهيكل الحديدى ، وبرقة قبلته .

- هل نمت نوما جيدا ؟

وأوما برأسه . . كان من الصعب عليه أن يصدق أن هذه الإنسانية التي أقبلت إلى غرفته وطهت له طعامه وأضفت البهجة على غرفته هي اليزا نفسها التي عرفها فيما مضى ، وأشرقت عيناها بنفس الضحكة التي كانت في عيني ميزى . . كان فيهما رقة ودفء وهما تتطلعان إليه ، وقالت له :

- لست سعيدا لرؤيتي .

- إننى سعيد ، سعيد ! المسألة فحسب - أننى لم أكن أظن
وضحك ، وكان ضحكها يشبه رنين أجراس متعددة .

- لم تكن تظن أننى سأتى وأؤدى لك هذه الأشياء . . هيه ؟

وتناول أجزوما يدها وتطلع إليها وقال : « أجل » .

- أحيانا ما تكون غيبا يا اجزوما . وعانقته ثم راحت إلى المقلاة وقلبت شريحة اللحم ، وغلى الماء ، فصنعت الشاى وقطعت الخبز .

وقالت : يظن الإنسان « وأدارت رأسها إليه » يظن الإنسان أن هذه أولى المرات التي تحب فيها واحدة من الناس .

- ربما يكون الأمر كذلك .

- ليس ذلك صحيحا .

وأوحت إليه عيناها بأنها تريد أن يكون رده صادقا فقال : « ربما يكون الأمر كذلك . »

- ألم تعرف امرأة أخرى ؟

- وحملق اجزوما فى السقف وابتسم .
- بلى عرفت نسوة أخريات ولكنى لم أوله بهن .
- كثيرات ؟ . وكان صوتها هادئا وجادا .
- ربما اثنتين وربما ثلاثا .
- هل كن جميلات ؟ .
- لا يمكن أن أتذكر .
- سوف تقول نفس الشئ حين تملىنى .
- كلا . . أنت أهم بك .
- فقالت : " أما أنا فقد عرفت رجلا واحدا فحسب " .
- وأوماً اجزوما . . الأم بلانك كانت قد حكى له .
- هل أحبته ؟ .
- نعم . ولكن ليس كمثلى حبنى لك . آنذاك كنت صغيرة ،
- وأنا الآن إنسانة ناضجة ، وعشق الغرة وعشق الإنسانة الناضجة ،
- عشقان مختلفان .
- ونظر إليها اجزوما وضحك .
- لم تضحك ؟ .
- لست كبيرة السن .
- ولست غرة . . هيا ، ستناول الطعام .
- كم الساعة ؟ .

- السادسة تقريبا .
- فصفر بفمه ونط من فوق الفراش . لم يكن يدري أن الوقت متأخر هكذا .
- نمت فترة طويلة . . لم لم توقظيني ؟ .
- كنت متعبا ، وكان خيرا لك أن تنام .
- وجلس اجزوما على دكة صغيرة منخفضة ، وجلست اليزا على الأرض ، واتخذت من ركبته مسندا ليدها ، ومن آن لآخر كانت ترفع عينيها عن الطعام وتتطلع إليه وتبتسم .
- وجلسا هكذا يتبادلان قليلا من الكلمات ، وياكلان وهما سعيدان . ووجد اجزوما صعوبة في تصديق أن اليزا - خليلته حقيقة . إنها جميلة جدا وهي مدرسة ومع هذا أحبته ، وكانت تميل عليه . ولقد أعدت له طعامه ورتبت غرفته فبدت لطيفة . وهكذا تتصرف المرأة حين تحب رجلا .
- وسأله اليزا " هؤلاء النسوة اللاتي عرفتهن . . هل كن جميلات ؟ " .
- فقال لها : « أنت غيورة » وضحك .
- لست غيورة . يمكنك أن تخرج من ميزى ولن أغار ، مع أنى أعلم أن ميزى تعشقك .
- ميزى طيبة .
- أجل .
- وأخذت صحنه الفارغ ووضعتة جانبا ، ثم أمسكت بيده وراحت تتطلع إلى النيران .
- اجزوما .

- هيه ؟ .
- أتريدنى أن آتى وأعيش هنا ؟ .
- أجل .
- لماذا لم تطلب منى ذلك ؟ .
- ظننت أنك ربما لاتريدين المجئ ، فهى غرفة واحدة فقط .
- واعتقدت أننا ربما اتخذنا فيما بعد غرفتين .
- وإذا لم تكن لى رغبة فى المجئ ؟ .
- أنا لم أطلب منك .
- اطلب الآن .
- وتطلعت إليه وانتظرت . وحاول أن يسألها ولكن الكلمات امتنعت . كانت وكأنها غصص شديدة فى حلقه . وفتح فمه ولكن مازالت الكلمات تتأبى . ونظر إليها وهز رأسه .
- وارتسمت على وجه اليزا ابتسامة حنون . ولبرهة قصيرة راحت عيناها تطوفان بوجهه متمهلة فى رقة ودلال ، ثم حملت فى النار ، ممسكة يده الكبيرة الخشنة بين يديها الرقيقتين الناعمتين .
- وجلسا على هذه الحال فترة طويلة ، يلفهما الصمت والسكينة . ومن آن لآخر كان يصدر عن النار طقطقة ، وبين الحين والحين كان يطفو فى جو الغرفة صوت قادم من الشارع . ولكن هذه الأشياء كانت شديدة البعد ، أشياء وهمية ، كان الشئ الحقيقى فقط هو السكون والهدوء وأنهما هما الاثنى فحسب جالسان يحدقان فى النار . . . صامتين . وكان الحب فقط هو الحقيقة ، وأن اثنين من البشر غارقان فى الحب .

وأظلمت السماء وأخذ الليل يقترب فى ببطء . وهرع أناس من العمل إلى بيوتهم ليقبعوا أمام نيرانهم مع رجالهم ونسائهم . وهرع آخرون منطلقين من بيوتهم إلى أعمالهم . وكان هناك آخرون بلا بيوت ، بلا أحبة ، بلا عمل . وكان بعض من الناس يفارقون الحياة ، وآخرون يولدون . وكان لدى البعض طعام ، بينما تضور آخرون جوعا .

وأظلمت الغرفة وألقى وهج النار بالظلال فى الأركان . وجلس اجزوما واليزا متلاصقين يحدقان فى النار المتوهجة الحمراء . وكركرت الغلاية ، ورفعت اليزا عينيها إلى اجزوما ، فمال ناحيتها ومست شفتاه شفتيها فقالت :

- شئ طيب ومطمئن أن أكون محبوبتك ، ونهضت .

كانت تترنم فى أثناء غسيلها الصحون ، وكان فى صوتها بهجة ومرح ، وكانت حركاتها رقصا . لقد كانت حركاتها مطمئنة طليقة تتسم بالبهجة والسعادة . وكانت جميلة ، وزادها الحب جمالا ، وجعلها ناعمة رشيقة مفعمة بالضحك والموسيقى ، وكانت كلما مرت به ، تعمل على أن تلمسه ، بردائها ، بيدها ، بأصابعها تمررها على شعره ، برجلها تمس ركبته .

وكان اجزوما يراقبها .. شئ جميل أن يكون للإنسان امرأة بجواره .. تحبه وتسعد معه . لقد ولى عنها جنونها وهى الآن مجرد امرأة مثل أية امرأة ، غير أنها أكثر جمالا ، وهو يحبها ، وهو فخور بها .

لقد جعلته يعاونها فى بعض الأمور البسيطة كوضع الأشياء فى أماكنها الصحيحة . وكانت الغرفة الصغيرة الخاوية بأرضيتها العارية والسرير الحديد الوحيد فى ركن منها ، والمنضدة الصغيرة فى ركن آخر ، كانت تمثل له بيتاً جميلاً ومريحاً ، وأضاء اجزوما مصباح الزيت ، وعلقه وسط الغرفة .

وقالت اليزا وعيناها تطوفان فى أنحاء الغرفة : " سوف نجعلها " .
فقال اجزوما : " أجل .. وفيما بعد ، سيكون لدينا غرفتان ، هيه ؟ " .

وأومأت برأسها وألقت على الغرفة كلها نظرة خاطفة .
وفى صمت ، خطت الأم بلانك إلى الغرفة وأغلقت الباب ، دون أن يراها أى منهما . وكانا يقفان قرب النار ويدهما متماسكتان .
وسألت الأم بلانك فى غلظة : " هل يمكننى الدخول ؟ " .
وتقدمت اليزا مسرعة وجذبت المرأة العجوز إلى النيران ، فقد كانت ترتجف من البرد ، وبدا وجهها ذابلاً ، وأعطتها اليزا قدحاً من القهوة .

وقالت الأم بلانك : " لا أستطيع البقاء طويلاً . ثمة مشكلة ، ولياه تريد منك الحضور الآن يا اجزوما " .
فسألتا اليزا : " ما هى ؟ " .

فقالت الأم بلانك : " لقد عثروا على دلادلا " .

- دلادلا ؟ . ونظر اجزوما إلى اليزا .

- عشر رجال الشرطة عليه . . ومضت الأم بلانك تحكى " عشروا عليه تحت سياج شجيرات مدرسة الملونين ، وفي ظهرة ثقب من طعنة سكين " .

وسأل اجزوما: " ميت ؟ " .

وقالت الأم بلانك: " ميت " .

فقال اجزوما: " يجب أن نذهب بسرعة " وارتدى سترته .

وقفت لياه وسط الغرفة ، ذراعها حول خصرها ، وعيناها تدوران بين الجالسين فى أوضاع مختلفة هنا وهناك فى الغرفة . فقد جلست الأم بلانك ويدها فى حجرها . واتكأ دادى على الأم بلانك ، فمه مفتوح بعض الشيء ، وعلى عينيه غشاوة السكارى . وجلست ميسى وحدها قرب الباب . وجلس اجزوما واليزا قريين من بعضهما البعض ، وقريبا من الباب المؤدى إلى واجهة البيت .

وقالت لياه : " شخص ما قتل دلادلا ، وأريد أن أعرف ما إذا كان القاتل واحدا منكم . يجب أن أعرف حتى أتدبر الأمر ، لاتخفوا عنى شيئا ولا تكذبوا . رجال الشرطة سيكونون هنا حالا ، سيأتون هنا لأن د دلادلا كان يغدر بى " .

ومرة أخرى جالت عيناها هنا وهناك فى الغرفة ، واستقرتا على دادى ، وكانت نظرة طويلة متمهلة ، لقد عشقها دادى وهى الوحيدة التى تعلم مقدار هذا الحب .

- هل قتله أنت يادادى ؟ .

وتغضنت قسّمات وجه دادى وبصق . ونظرت لياه إلى الأم
بلانك .

فقلت الأم بلانك بخشونه : « لا ! » .

- مىزى ؟ .

- لم أرتكب هذا الفعل يالياه .

- ونظرت لياه إلى اليزا ، وكانت تعلم أنها لم ترتكبه .

- اليزا ؟ .

- كلا .

ونظرت إلى اجزوما ، ربما كان هو الفاعل . . ولكنه كان مع
اليزا إلى أن اضطر للذهاب إلى العمل . ولو قتله لقرأت ذلك فى
وجهه ، فوجهه كتاب مفتوح .

- اجزوما ؟ . .

- كلا . . وأنت ؟ .

وابتسمت لياه ، ابتسامتها الجانية الساخرة وقالت :

- لم أقتله .

فقال اجزوما : « ربما كان جوهانز هو الذى قتله » .

وهزت لياه رأسها وقالت : « لا . . لقد تحدثت إليه هذا الصباح
. لم يقم هو بذلك ، وجوهانز مثلك ، تستطيع أن تقرأ ما فعله على
وجهه » .

فسأل اجزوما « إذن من ذلك الذى قتله ؟ » .
وهزت لياه كتفيها استنكاراً وأشاحت بوجهها .
واقتربت سيارة فى الخارج ، خرج منها رجال بيض من إدارة
المباحث الجنائية فى ملابس مدنية ، وقرعوا الباب بشدة .
وقالت لياه دون أن تدبر رأسها « هؤلاء رجال الشرطة ، أدخلهم
يا أم بلانك » .

ومرة أخرى قرع الباب بشدة ، فصاحت الأم بلانك :
- اسكت .. إبنى قادمة .

وهرعت إلى الباب الأمامي ، وحدقت لياه من النافذة فى
الفناء ، فبدت امرأة أبلية صلبة قوية فارعة الطول . وظلت میزی
تتطلع إلى اجزوما ثم غضت من بصرها . وجلست اليزا على مقربة
شديدة من اجزوما . ونظر اجزوما إلى ظهر لياه وتعجب . هى هى
نفسها كما كانت دوما . بل إنها أقوى وأكثر استهانة ، مع اعتداد كبير
يبدو فى حركة رأسها .

ودخل رجال الشرطة . وقال رئيسهم : « أهلا يالياه » .
واستدارت لياه ونظرت إليه ، وارتسمت على شفتيها شبح
ابتسامه ودية .

وقال لها : « تبدين بصحة جيدة » .

كان يعرفها معرفة جيدة . وقد حاول مرات كثيرة أن يوقعها فى
شرك ، فهو يعلم أنها فى مقدمة ملكات شراب السكوكيان - وهذا ما
كانوا يطلقونه على النسوة اللاتى كن يتعاملن فى المشروب الكحولى
المحظور .

- فقلت له : « وأنت أيضا تبدو بصحة جيدة . ماذا تريد ؟ » .
- فقال رجل الشرطة : « أنت تدرين أن دلادلا مات » .
- سمعت بذلك .
 - من الذى قتله ؟
 - لم يبلغ ذلك سمعى .
 - أنت تعلمين أنه كان يشى بك لدينا ؟
 - بلغنى هذا .
 - ألم تقتليه من أجل ذلك ؟
 - أجل . لم أقتله .
 - ألم تدفعى أحد لقتله ؟
 - نعم .
 - لقد وشى برجلك ويأخيه . . هل علمت بذلك ؟
 - بلغنى .
 - من ذلك الذى أبلغك ؟
 - صديق .
 - وصاح الرجل فجأة : « ما اسمه ؟ » .
 - وابتسمت لياه : « لست طفلة » .

وبادلها الرجل الابتسامه ، وكان فى عينيه اعتذار . ثم نظر إلى
اجزوما وسأل لياه :

- هل يشتغل لحسابك ؟ .

فقالت لياه : « إنه يعمل فى المناجم » .

ودارت عينا الرجل فى أرجاء الغرفة تفحصان وجوه الناس ، ثم
هز كتفيه استهجانا وابتسم .

- حسن يالياه ، تعالى معنا .

وهب اجزوما على قدميه : « سأتى معك يالياه » .

وهزت لياه رأسها وابتسمت له .

- لا يا اجزوما ، ابق هنا وارع هؤلاء الآخرين ، فأنا أستطيع أن
أعنى بنفسى .

وتشبثت أصابعها بذراعه برهة ثم استرخت ، وفجأة هبت اليزا
على قدميها ، وكانت ترتجف ، تتقبض يداها وترتحيان ، وتتوهج
عيناها ، وتصطك أسنانها من الغضب .

وصاحت : « أخرج من هنا » واندفعت نحو رجل الشرطة الذى
فى الطبيعة .

وأمسك الشرطى بذراعيها بشدة ، واحتجزها جانبا .

فقالت لياه لاجزوما : « خذها » .

فجذبها اجزوما بعيدا عن الشرطى .

وصاحت اليزا : « أنها لم ترتكب شيئا . فدعها لحال سبيلها » .

وحاول اجزوما تهدتها .

فقال الشرطى : « هذه المرأة متوحشة يا اجزوما .. هيه ؟ » .

فقال اجزوما وعيناه تتفجران غضبا : « مالك أنت ؟ » .

فابتسم الشرطى . فقالت له لياه :

- إنه الشباب ، فدعهما وشأنهما .

خطا الرجل جانبا ، فخرجت لياه ، وهو يراقبها بنظرات إعجاب .. شفتاها مضمومتان بشدة ، وفى عينيها صرامة ، وحين دخلت السيارة كانت مرفوعة الرأس مشدودة القامة ، وشاهد الجمهور الذى تجمع حول السيارة ما يحدث فى صمت . ودخل السيارة إلى جوارها الشرطى الأول والذى أهمل مالاى كامب وفريديدورب يلقبونه « بالثعلب » بينما جلس الآخرون فى المقدمة .

وكان « الثعلب » محبوبا من الناس لأنه لم يكن يسلك سلوك رجل أبيض . لم يكن يعبأ بالجلوس بجانب السود أو حتى يحتمس جمعهم حين لا يحاول اصطيادهم . وكانوا يخشونه أكثر من أى شرطى آخر ، لأن « الثعلب » أوقع فى شراكه أناسا أكثر مما فعله أى شرطى آخر .. وفلتت اليزا من يد اجزوما وخرجت تجرى ، وكانت السيارة تتحرك ، فصرخت اليزا فى إشفاق :

- لياه ! لياه ! عودى يالياه ! .

لكن السيارة زادت من سرعتها ، وتوقفت اليزا ، وانسابت الدموع فوق وجنتيها ، وتكورت يداها الصغيرتان بشدة ، وانطلق من

فمها سباب ولعنات ممتدة ومريرة ، واضطر اجزوما إلى حملها داخل البيت ، وهي لاتزال تلعن وتبكي ، ومضت السيارة تحمل لياه ، وفي تمهل راح الناس يتفرقون ويذهبون لحال سبيلهم .

ووضع اجزوما اليزا على سرير لياه ووقف يرقبها باهتمام ، فى حين راح بدننها يهتز مع نشيجها المؤلم ، ولم يكن لديه ما يمكن أن يقوله لها ، كل ما استطاع أن يفعله هو أن يقف بجوارها يرقبها ويلاحظها . وقال لها وهو يشعر باليأس :

- ربما تعود لياه .

ولم يكن ثمة شئ يمكن للإنسان أن يقوم به . لقد جاء الرجل الأبيض وقال « تعالى » .. ولا بد لك أن تمضي معه .. ولم يكن بوسع أولئك الذين بقوا إلا أن يتفرجوا وحسب . ولم يكن بمقدورهم أن يفعلوا شيئا .. فلا أمل .

وأخذ نشيج اليزا يخفت بالتدريج إلى أن رقدت منهوكة القوى تلهث . فتناول اجزوما يدها وراح يدهكها ، وكانت يدها باردة فقال لها :

- إنك لتشعرين بالبرد .. تعالى نذهب بجوار النيران .

فقالت : « اذهب أنت .. وسأتى حالا » .

فقال : « سأنتظرك » .

- لا .. اذهب أنت .

فخرج من الغرفة . وكانت الأم بلانك قد سخنت قدرا من القهوة ، فقالت له :

- سأخذ لها قدحا من القهوة .

وبقيت مع اليزا فى الغرفة فترة طويلة . وجلس اجزوما وميزى بجوار النيران لايتفوهان بكلمة واحدة . وفى أحد الأركان كان دادى يبكى فى خفوت ، وسرعان ما استسلم للنوم . وخرجت الأم بلانك واليزا من غرفة لياه ، وكانت اليزا قد جففت دموعها ، فراحت إلى اجزوما وجلست قريبا منه وأراحت يدها على ركبته . واتجهت الأم بلانك إلى دادى وعدلت من وضعه حتى تستريح رقبته بطريقة أفضل . ثم اتخذت لها هى الأخرى كذلك مقعدا بجوار النيران وجلسوا فى صمت . ثم خمدت النار ، وتوهج رمادها فى لون باهت فألقت به الأم بلانك فى الخارج ، وأحضرت نارا أخرى كانت معدة فى التو . وجلسوا صامتين لايتكلمون . . لا يوجد فى البيت حياة بدون لياه . ومرت ساعة . . وساعة . . بل وساعة أخرى .

وروعتهم فجأة دقة على الباب الأمامى . . لعلها لياه . . لعلهم سمحوا لها بالعودة . واندفعت الأم بلانك وميزى واليزا نحو الباب معا . ولكن لم يكون الطارق سوى جار أراد أن يعرف ما إذا كانوا فى حاجة إلى معاونته . فعادوا إلى مقاعدهم ، وبدا المكان أكثر كآبة .

ومرت ساعة أخرى . ونظر اجزوما إلى نافذه المطبخ ، فتصلب بدنه ، إذ كانت لياه هناك تطل مبتسمة فى النافذة ، فصاح :
- لياه . . . وأشار بيده .

فجذبتها الأم بلانك داخل البيت ، وأثارت حولها ضجة ، وأعطتها قدحا من قهوة ، وقدمت لها طعاما وضحكت وبكت فى آن واحد ، فابتسمت لياه ، واحتضنت المرأة العجوز .

وتناولت میزی يده لياه وراحت تربت عليها ، واستيقظ دادی ورأى لياه فتفجرت دموعه ، ثم مضى ينام ثانية . أما اليزا فقد انفجرت تبكى والتصقت باجزوما ، ووضعت رأسها على كتفه .

لقد أثاروا ضجة حول لياه وكأنها كانت فى رحلة بعيدة ، ولم تكن بين ظهر انيهم فترة طويلة ، وتناولت لياه يد اجزوما وابتسمت فى عينيه ، وأقبل الجيران يحيون لياه ويعربون عن مدى سرورهم بعودتها .. وعاملها كل واحد كما لو أنها عادت من رحلة طويلة ، ورقص الناس خارج البيت ، وسرعان ما تطور الأمر إلى حفلة سمر .

ووسط كل هذا ، انتحت لياه اجزوما جانبا وقالت له : « أتمنى أن أعرف من قتل دلادلا » .

فقال اجزوما : « أجل . وأنا كذلك » .

ولكن قاتل دلادلا لم يكتشف أبدا .

تجمع الشفق سريعا ، ومشى اجزوما واليزا متمهلين فى اتجاههما إلى البيت خلال الغسق المتكاثف ، وكان الحال هكذا خمسة أيام . لقد وقعا فى الحب ، وهما معا طوال الوقت وكان ذلك شيئا جميلا .

وكان اجزوما ما يعود إلى البيت دائما بعد انتهاء العمل وبنام ، ودائما ومثلها حدث فى أول يوم حين أيقظه حضورها وطهورها وتزنيهما ، كان الطائر الشادي يوقظه . وكان هو صوت اليزا ، وكانت تعد له الطعام . وأحيانا ما كانا يتمشيان بعد تناول الطعام فى مكان يسوده الهدوء ويخلو من الناس . وكانا قليلا ما يتكلمان ، إذ لم يكن فى جعبتهما الكثير الذى يمكن أن يقال . كانا يتمشيان فحسب ، متلاصقين ، بعيدين عن الناس ، فى مكان لايزال الثرى فيه موجودا ، وحيث يمكن للنسيم الرقيق أن يلامس وجهيهما ، وهناك يتمشيان ، ويتأملان القمر والنجوم ، وينظران إلى كثران المنجم البعيدة الغائمة . ثم يعودان إلى الغرفة ويجلسان إلى النيران ، إلى أن يحين موعد عودة اجزوما إلى العمل . ثم تذهب اليزا معه إلى البقعة التى كانا فيهما معا فى تلك الليلة الأولى ، والتى غالبا ما يذهبان إليها الآن ، هناك يتركها ثم يسرع الخطى ماضيا عنها فى نشاط ، وحينذاك ، تقف هى تراقبه . . تراقبه إلى أن تغطيه غلالة من ظلام .

ثم تعود إلى الغرفة ، وتبيت فيها ، ذلك أن النوم على فراش خليلك شئ جميل ، حتى لو لم يكن موجودا لينام معك .

وفى مرات أخرى كانا يذهبان إلى بيت لياه بعد تناول الطعام ،
وهناك يتحادثان ويساعدان فى البيع ، ذلك أن دلادلا الآن وقد مات ،
لم يعد هناك من يشى بلياه ، وكان البيع مأمونا . ثم إن لياه كانت
دائما تقول إن البيع يعنى النقود ، والنقود تعنى القوة . وفى أوقات
أخرى كانا يتضمنان ثانية إلى جمهور الناس ويرقصان معهم عند
نواصى الشارع ، لأن ذلك كان أيضا شيئا جميلا حين يؤديانه سويا .
لقد كانت الحياة جميلة ، وكان الحب شيئا رائعا .

وأحيانا ما كان اجزوما يلاحظ أن اليزا هادئة ، مستغرقة بعمق
فى تفكيرها الكئيب . وكانت غريزته تنبؤه بوقت حدوث هذا . وفى
هذه الحالة ، كان يخرج ويتمشى ما يقرب من نصف ساعة ، وحين
يعود تكون اليزا قد أصبحت على ما يرام ثانية . ثم إنها عقب مثل
هذه الأوقات تكون لطيفة ، وتعمل على أن يمارس الجنس معها ،
وعندئذ تكون الرغبة التى تعتمل داخلها قوية ، ويعجب اجزوما لهذه
الرغبة الشديدة التى يملكها مثل هذه الجسد الصغير .

وأحيانا ما كان يلتقيان بميزى فى بيت لياه . . ومع ميزى كانت
الضحكة القديمة دائما تطل من عينيها وترسم على شفيتها ، الأمر
الذى جعله يفكر فى أنه لم يكن يحلم حين ظن أن ميزى كانت
تبتغيه . فأحيانا ، فقط عندما لا يكون متجها إليها بعينه ، كانت هى
تنظر إليه ، تتفحصه ، بعينين غريبتين ، لا أثر فيهما للضحك .
ولكن اجزوما لم يكن يدرى ذلك ، ولأن حياة اجزوما كانت
جميلة ، فقد راح يفكر فيها وفى الأيام الخمسة التى كانت فيها

- بصحبتة ، وفي جمال حبها . وابتسم في سعادة وهما عائدان إلى البيت تحت الشفق المتكاثف .
- وقالت اليزا دون أن تلتفت إليه : « أراك تبتسم » .
- أجل .. فالحياة جميلة ، وجميل أن أكون معك ، فهذا يغمرنى بساعدة ، تعجز الكلمات عن وصفها .
- فقالت اليزا : « هذا شيء جميل » .
- أنت مكتئبة ؟
- كلا .
- أحس الاكتئاب في صوتك .
- كلا .
- بل فيه اكتئاب .
- متى تنتهى نوبتك الليلية ؟
- لم أنت مكتئبة ؟
- لا تكن أحرق يا اجزوما وأخبرنى عن نوبتك الليلية ، فلا يصح لامرأة أن تنام وحدها كل ليلة . هيا أخبرنى .
- وابتسم اجزوما : « أسبوعان آخران » .
- لن تكون هناك إذن نوبة ليلية بعدهما ؟
- لن تكون هناك نوبة ليلية .
- وحتى متى ؟
- لأدري .
- وخيم الصمت عليهما ، وأنعطفا إلى ناصية . كانا قريين من الغرفة ، وكانت المرأة التى تسكن فى الغرفة المقابلة تقف فى الشرفة ، وحين رأتها لاحت لهما بيدها .

فقال اجزوما : « إنها تريدنا » .

وأسرعا خطاهما . وسأل اجزوما : « ما الحكاية ؟ » .

وأجابت المرأة: « جاءت هنا امرأة مسنة وقالت لى بلغيهما أن الأم بلانك كانت هناك ، وأن عليكما الذهاب بسرعة إلى بيت لياه » .

وسألت اليزا : « ما الخطب ؟ » .

وهزت المرأة رأسها « لم تقل شيئا ، ولكن عينيها كانتا دامعتين ، ويبدو أن ثمة متاعب » .

فقال اجزوما : « ربما قبضوا على لياه » .

وقالت اليزا : « هيا بنا » .

وأسرعا يهبطان الشارع . وحينما وصلا هناك ، أدخلتهما الأم بلانك .

وسألت اليزا : « أهى لياه ؟ .. هل قبضوا عليها ؟ » .

فهزت الأم بلانك رأسها وقالت : « كلا .. الأمر يتعلق بدادى » .

وسأل اجزوما : « ماذا به ؟ » .

وقضمت الأم بلانك شفثها السفلى وأشاحت بوجهها .

وانهمرت الدموع على وجهها ، فوضعت اليزا ذراعها حول المرأة المسنة .

- صدمته سيارة .

لم تعد المرأة العجوزة بقادرة على أن تكبح مشاعرها . وظلت تبكى حتى انهارت قواها ، وأخذتها اليزا إلى مقعد وراحت تواسيها . . واتجه اجزوما إلى غرفة لياه ، وكان دادى راقدأ على فراش لياه يئن ، فى حين جلست لياه على حافة السرير وفى حجرها رأس دادى . وعند الطرف الأدنى من السرير وقف الدكتور ميني والذي كان اجزوما قد عاون على الرجل الذى وثب من السطح وانكسر ذراعه . وعرف الطبيب اجزوما وحياء بعينه ، وأدرات لياه رأسها ونظرت إلى اجزوما بعينين غائمتين ، ودار اجزوما حول السرير ونظر إلى دادى الذى بدا كشأنه دوما ، وإن كان ثمة فقاعة دم صغيرة فوق شفثيه . لم توجد خدوش فى أية بقعة من جسد دادى . ونظر اجزوما الى الطبيب :

- كيف حاله ؟ .

وزم الطبيب شفثيه وهز رأسه وكتفه فى شئ من اليأس ، وأوحت حركته بأن الرجل انتهى .

فقال اجزوما : « ولكنك طبيب » .

فقال الطبيب : « إصابته فى الداخل شديدة » .

وأن دادى ، فمرت لياه بيدها فى رفق على جبهته وراحت تهدده لتخفف عنه كما يهدد المرء طفلا ، ووضع اجزوما يده على كتف لياه فأراحتها .

وقال الطبيب : « ليس ثمة شيء يمكن أن يقوم به أى إنسان »
والتقط حقيبته .

ودخلت اليزا وفمها يرتعد ، لكن عينيها كانتا قاسيتين ولا معتين
ونفاذتين . وتكورت يداها فى قبضتين صغيرتين صلبتين واتجهت إلى
لياه ، ونظرت كل منهما للأخرى برهة ، وبدا وكأنهما تحدثتا معا دون
كلام .

وفتح دادى عينية ، وقد انمحت منهما غلالة السكر . كانتا
صافيتين ، حانيتين ، متعاطفتين . وحاول أن يتكلم لكن حلقة غصن
بالدم ، فمسحت لياه الدم عن شفثيه .

وقالت لياه للطبيب وهى ترفع إليه ناظريها : « امض » .

وبرقة لمس الطبيب كتفها وخرج ، وأغمض دادى عينية .
وفتحت ميزى الباب ودخلت ، واتجهت إلى لياه .

وحدث مع ميزى ما حدث مع اليزا ، ونظرت كل منهما للأخرى
وتحدثتا دون أن يتكلما . وسعل دادى فظهر مزيد من الدم ، فأزالته
لياه . وفتح دادى عينية ثانية ، فارتاع اجزوما من اشراق عينية الصافى
وبدا وكأنه يتطلع إلى رجل آخر . . رجل لم يعرفه أبدا من قبل .
حتى الوجه كان مغايرا . وجه رجل طيب وشفوق . . وليس وجه
ذلك الهمل العجور السكير .

وقالت لياه دون أن ترفع ناظريها : « احضروا الأم بلانك » .

وخرج اجزوما وأحضر الأم بلانك . ونظر إليها دادى وبدا أنه
يبتسم ، لكن وجهه لم يتحرك . وابتسمت الأم بلانك وربت يديها
على جبهته ، ومن عينيها شع دفء وحب وتعاطف . ورفع دادى يده
وعاونه ليا ، ثم هبط بها فوق يد الأم بلانك التى كانت على جبهته .
وأغمض دادى عينيه ، وبقي الجميع على هذا الحال فترة من زمن .
ثم فتح عينيه ، وكانت فوق شفثيه ابتسامة بالفعل . ولكن عينيه كانتا
دامعتين وطافيتين فى وقت واحد . وبدا الأمر كما لو أنه لا وجود
لألم عنده . وحطت عيناه طويلا على ميسى ثم انتقلتا إلى اليزا
وتمهلتا عندها برهة ، ثم التفتتا إلى اجزوما . وبدا لاجزوما أن العينين
تضحكان له برقة وتقولان « إذن فأنت اجزوما القادم من الشمال ..
هيه ؟ . يؤسفنى أنك لم تشاهدنى على حقيقتى ، ولكن هكذا حال
الدنيا ، وأنت لن تفهم » . وأصيب اجزوما بغصة فى حلقة .

ثم نظر دادى إلى الأم بلانك ، فابتسمت كما لو أنها كانت
شديدة السعادة ، الأمر الذى جعل وجهها يشبه وجه امرأة فى ريعان
شبابها ، وكانت ليا طول هذا الوقت تجلس هادئة ، تمرض رأسه
فى حجرها ، ولا تنظر لأحد سواه . شفثاها مضمومتان بشدة ،
وفى عينيها ألم مستسلم متشائم ، ولكنها كانت تبدو فى نفس الوقت
أقوى ، وأكثر شموخا وأشد ما تكون صلابة من ذى قبل . إنها ليا
القوية .

وفتح دادى فمه ، فأدنت الأم بلانك أذنها قريبا جدا من فمه .
وتتم : « آسف » .

فقالت الأم بلانك : « أى هراء أحقق هذا ؟ » . وكان صوتها مبتهجا سعيدا ، كصوت فتاة غارقة فى الحب « أى هراء أحقق ! ألم نكن سعداء معا ! ألم تكن إنسانا عجوزا طيبا معى ! كف إذن عن هذا الهراء .

وابتسم دادى ، وبيانت السعادة فى عينيه ، فأغمضهما . وحينما فتحهما ثانية تطلع إلى لياه . ونظر كل منهما للآخر فترة طويلة ، دادى ولياه . نظر كل منهما للآخر بفهم عميق لم يكن فى حاجة إلى كلمات . ثم تنهد دادى وأغمض عينيه .

ثم فجأة وعلى حين غرة ، لم يعد دادى بعد على قيد الحياة . . دادى الذى لم يكن يفيق من السكر منذ أن عرفه اجزوما . . دادى الذى كان يجعل من نفسه أضحوكة كل يوم ، والذى كانت لياه تحترمه مع ذلك كما لم تحترم أى إنسان آخر . . دادى الذى أحب العراق لو قام به آخرون . . ونظر اجزوما ليجد أمامه قوقعة فارغة . وهزه الموت . وفى صمت هبطت الأم بلانك على ركبتيهما . وصرخت ميري مرة واحدة وهدأت . ومشيت اليزا إلى اجزوما وتشبثت بذراعه . لياه فحسب بقيت كما هى . جلست كما كانت جالسة حين كان دادى على قيد الحياة ، تعرض رأسه فى حجرها ، صلبه كالصخرة ومتشامخة .

وقالت لياه : « اتركونا » .

وخرج اجزوما وميري واليزا . وبقيت المرأتان اللتان أحبتا دادى قبل أن يصير رجلا عجوزا سكيرا .

وأنطفأت الأنوار فى فريديدورب وما لاي كامب ، ونام الناس ، وكانت الشوارع هادئة حين انطلق اجزوما إلى العمل وحيدا ، فلم تسر معه اليزا ذلك الجزء من الطريق .

حين عاد اجزوما من العمل فى صباح اليوم التالى ، ذهب هناك مباشرة ليجد لياه كما تركها فى الليلة السابقة . . مازالت تمرض القوقعة الفارغة ، التي كانت دادى من قبل . ولم تذهب كل من ميزى واليزا إلى العمل . . فقد رتبنا فيما بينهما أمر الجنازة ، وقدم الشارع كله يد العون ، وامتأ المكان بالناس . فلقد عرف الشارع دادى ، وأحبه . وكان البعض من أكبر الناس سناً يتذكرون دادى حين كان شاباً ، وحين كان ذلك الرجل الذى لم تعرف له الأم بلانك نظيراً أبداً . وكانوا يتحدثون عنه بحرارة وحب . ثم أخذوا يدخلون الغرفة صفّاً صفّاً ليلقوا عليه النظرة الأخيرة ، وكلما انتهى صف انصرف ليفسح مكاناً لآخرين . . لمئات منهم . وقامت لياه والأم بلانك وحدهما بغسل دادى وإلباسه . ولم يسمحا للآخرين بالاقتراب منه إلا حينما وضع فى النعش . وكانت لياه صامته طوال الوقت جامدة ، لم تكن تتكلم مع أحد سوى الأم بلانك فحسب . ولم يحدث ولو لمرة أن سقطت دمة واحدة من عينيها .

وكانت شمس الربيع تعلو فى الأفق حين دفنوا دادى فى المدفن المحلى فوق التل فيما وراء فريديدورب . وطوال الوقت كانت لينا خليلة جوهانز تبكى ، وكانت قد خرجت من السجن فى ذلك اليوم .

وفى مقدمة القبر وضعوا صليباً صغيراً يحمل رقماً . وتحت الرقم كتبوا اسمه . . وكان الاسم هو (فرانسس ندابولا) .

ولفترة من الوقت سوف يتفجع الناس على دادى ، ثم يأخذون فى نسيانه ، ويندر ذكر اسمه ، وفى النهاية ربما يتحول رجل مسن آخر إلى عجزوز الشارع السكير . وقد يسميه الناس دادى كذلك . وسيصبح دادى الذى كان اسمه فرانسس ندابولا نسياً منسياً ، ولن يتذكره سوى أهل بيته فحسب . وحتى هؤلاء سوف تضعف ذكراه لديهم وتبهت . وهذه هى الحياة .

وسكرت لياه فى تلك الليلة . . سكرت سكرنا . وكانت هذه هى المرة الأولى التى يراها فيها اجزوما على هذه الصورة . وكانت تضحك طوال الوقت وتميل برأسها إلى الوراء ، وثبتت قدميها متباعدتين قليلاً فوق الأرض الصلبة ، وتضع يديها فوق وركيها وتضحك . مرات عديدة وهى تأتى بهذه الحركة . وكان جسدها يرتج من هذا الضحك العميق شديد البهجة . وأغضب ذلك اليزا فلم تحدث لياه ، فى حين أشفت بها ميزى ، وراحت تعاملها كما تعامل طفلة صغيرة . وكانت لياه تتصرف وفقاً لما تشير به عليها ميزى . وأبصرها اجزوما مرة تنظر إلى لياه وتومئ إليها برأسها ، بل وسمعها تقول : « مسكينة لياه » .

لكن لياه كانت ثملة وسعيدة ، ودعت الجميع . وكان الشراب مجاناً . فتدفقت الجعة . لكن هؤلاء الذين كانوا يثرثرون حول دادى استبعدوا ، فلم تقدم لهم الجعة مجاناً ، بل إنهم لم يتمكنوا من شراء أى قدر من حانه لياه فى تلك الليلة .

وفجأة دخلت لياه وسط الناس ورفعت يديها صائحة « هدوءا !
هدوءاً ! » .

وهذا الناس واستدارت نحوها كل الرؤوس ، فصاحت : « سوف
نرقص ! » .

ورأت اجزوما وأشارت إليه ، فذهب إليها ، فأمسكت
بشنة صدر سترته وارتحت عليه بشدة ، وابتسمت له في عذوبة وقالت
له : « سترقص معي » .

ولمست اليزا ذراع اجزوما فالتفت إليها فقالت له : « سأذهب إلى
الغرفة » .

وأوما اجزوما برأسه .

فقالت الأم بلانك : « سأذهب معها » .

فصاحت لياه : « دعهما يذهبان ! دعمها يذهبان ! » وحملت
فيهما متألة وواصلت « أتحسبان أن دموعكما وملابسكما السوداء
ستؤدي إلى شيء ؟ .. أتظننا أن تمسككما بالصرامة واستجداء شفقة
الآخرين سيعينكما ؟ .. حمقاوتان ! ما راح قد راح ! . يامعلمه !
باه ! أنت أشد حمقا ! دموع ! دموع ! اغربا عن وجهي قبل أن
يتملكني الغضب فأقتل كلا منكما ! . اخرجوا ! اخرجوا ! كلتا كما ..
اخرجوا ! » . وكانت تصيح وفي صوتها نسيج موحش .

وقالت ميزى برقة : « هيا يالياه .. ارقصى » .

وخرجت اليزا والأم بلانك ، وأراد اجزوما أن يلحق باليزا ،
لكنه أدرك أنه لابد وأن يبقى مع لياه . ونظر إلى ميزى .

وهمست میزی : « يجب أن نبقى معها .. سرعان ما ستعود
الأم بلانك . إنها مجرد سائحة تغلب فيها قلبها على عقلها » .

وقالت لياه : « تعال ياجزوما .. سوف نرقص » .

وكون الناس حلقة ، وراقب اجزوما لياه ، متظرا ما ستفعله ،
فانحنى أمامه ، وصفق الناس ثم بدأت لياه تدور وتلف . تلف هنا
وهناك ، وبسرعة تزداد وتزداد . وبدت وكأنها لا تستطيع أن تتوقف ،
كأن شيئا ما يسوقها لأن تلف بطريقة أسرع فأسرع . ثم توقفت
فجأة . ولبرهة قصيرة راحت تتمايل من جانب لآخر ، وتأكد اجزوما
من أنها ستسقط على الأرض ، فتقدم مسرعا ليمسك بها ، ولكنه لم
يصل في الوقت المناسب ، فهوت ، وأحدث سقوطها ارتطاما
شديدا ، ورقدت متكومة على الأرض . ووثبت میزی داخل
الحلقة ، وأشارت لاجزوما ، وأخذت تغنى وترقص .

ورفع اجزوما لياه وحملها إلى البيت ، فظن الناس أن ذلك جزء
من الرقص .. وفي البيت حملها إلى غرفتها ووضعها على السرير .
وجاءت میزی بعد قليل بقطعة قماش مبلله ، ومسحت بها على رأس
لياه ففتحت لياه عينيها وابتسمت لهما . وكانت ابتسامة حزينة باهتة ،
ثم أغمضت عينيها .

وقالت میزی لاجزوما : « لا بأس ، يمكنك الآن أن تمضي .
ستكون الآن على ما يرام » ولمست ذراعا وابتسمت له ومضت تقول :
« كنت إنسانا طيبا .. فلتذهب الآن » .

ومشى اجزوما ، وفي الطريق إلى غرفته التقى بالأم بلانك
عائدة ، فسأله :

- أهى بخير ؟ .

وأوما اجزوما .

وقالت فى بساطه : « لقد عشقته » ثم هبطت إلى الشارع تاركة
اجزوما يتبعها بنظراته .

وكانت الأم بلانك امرأة هرمة ، وقد ظهر ذلك فى مشيتها .
كانت امرأة مسنة مرهقة ومجهدة ، تشعر بشئ من السأم من هذه
الأحوال التى يسمونها الحياة .

واستدار اجزوما ومضى . كان حائقا على اليزا . لما كانت جامدة
هكذا ؟ .. لم لم تستطيع أن تعى تلك الأشياء التى تؤثر فى حياة
إنسان ؟ . كانت تريد منه أن يمضى معها إلى البيت فى الوقت الذى
كانت لياها فى حاجة إليه . إنها لم تدرك ما كان يحدث .. ميزى
فحسب ، هى التى فهمت فبقيت .

وأدى به حنقه على اليزا إلى شعور بالحزن بطريقة غريبة ، كما
أثقل قلبه ، وجعله يحس بخواء عميق فى داخله ، ويحنين إلى البعد
عن المدينة .. البعد عن هذا المكان الذى يفرق فيه الناس أحاسيسهم
وآلامهم فى الشراب ، والذى لا يفهم فيه الآخرون حالة إنسان أصابة
الحزن . أراد أن يبتعد عن كل هذا . أن يرقد على العشب الأخضر
ويتطلع إلى السماء . وتمنى لو أنه لم يعرف داذى على الإطلاق ، لأن
موته أحزنه أكثر مما أحزنه موت أمه . كان الأمر معها واضحا ويمكن
للمرء أن يفهمه ، أما مع داذى فلم يكن الأمر كذلك . كان ثمة أمور
كثيرة جدا تتسم بالغرابة ، أمور لم يستطع فهمها على وجهها
الصحيح ، أمور جعلته يتحسس طريقه كالأعمى .. وكان ذلك شيئاً
سيئاً .

وسار ماراً بغرفته صاعدا الشارع ، وتوقف عند الناصية . وهناك وقف يرقب الشارع والناس وهم يروحون ويغدون . . يرقب ثلاثة أطفال صغار يلعبون في قناة صرف المياه . . . يرقب امرأة ملونة مخمورة تحاول الوصول إلى بيتها مستخدمة جدران البيوت تستعين بها على التحرك ، يرقب ثلاثة شبان جذبوا قلنسواتهم فوق عيونهم ، يدخنون الأفيون ، وتدور عيونهم في الشارع صعودا وهبوطا ليروا ما إذا كان ثمة شرطى على مدى البصر .

لم ير اليزا في الشرفة . . لم يرها تصعد الشارع في ببطء تتطلع إليه . . لم يكن يدرى عنها شيئا إلى أن سمعها تنادية . فاستدارت رأسه بسرعة . وتأبطت ذراعه وارتجفت .

فقال لها : « أنت بردانة » .

فهزت رأسها نافية ، وجعلته يشعر بدفع يديها ، وأحس بشئ ما غريب تجاهها . . شئ جديد لا يستطيع أن يجد له تسمية . وبدت له أن قامتها أكثر انتصابا ، وأشد قوة ، وأقرب شيها بلياه . ومع ذلك فإنه عندما تطلع إليها كانت هي نفسها . . اليزا الجميلة نفسها . ونسى حنقه عليها . وكان في عينيها ذلك الشئ الذى يستحيل معه أن يحنق عليها .

وقالت له : « لاتغضب منى » .

كان عقله يقول « ما فعلته مع لياه كان خطأ » ولكن ذلك كان يدور في عقله فقط . أما لسانه فقد قال :

- لست غضباناً .

- هذا شئ طيب .. الليلة أريد أن نسعد ، هيه ؟ .
وتوسلت إليه بعينيها .. وكانت حقا غريبة .. لم يرها هكذا
أبدا .. وأوما بشدة .

وقال وفكره يسرح مع دادى : « سوف نكون سعداء » .
ومشيا يتجولان صاعدين الشارع ، مبتعدين عن مالاى كامب ،
وفريديدورب ، متجهين إلى قلب المدينة ، بل حتى فيما وراء ذلك .
ولم يتبادلا حديثا . وكانت اليزا هى التى ترشده إلى الطريق . ذهبا
إلى أماكن لم يرتدها اجزوما أبدا . وأصبحت المدينة الآن وراءهما ،
وقد تمدد مالاى كامب بعيدا إلى اليسار ، حتى فريديورب لم يكن فى
الإمكان رؤيته .

أخذت الشوارع تتسع ، ولم يكن بها أحد من الناس ، وكان فى
الممشى الجانبى عشب اعتنى به بطريقة جميلة ، كما نمت فيه أشجار .
وكان للبيوت نوافذ بارزة كبيرة ، ومن خلال هذه النوافذ استطاعا أن
يريا أناسا من البيض يتناولون الطعام ويحتسون الشراب ، وأن يستمع
إلى موسيقى منبعثة منها وكذلك ضحكات البيض الهائثة . وكان
الوقت مازال مبكرا ، فلم تكن الساعة قد بلغت بعد الثامنة ، ولهذا
لم يشعر اجزوما بالقلق .. إنه لم ينم مطلقا منذ عاد من العمل ،
وكان يعلم أنه لن ينام ، ومن ثم سمح لاليزا أن تقود خطاه .

واجتازا البيوت وتسلقا تلاً صغيرا . وطوال هذا الوقت لم يتبادلا
حديثا . كان يشعر أن اليزا معه وليست معه فى نفس الوقت . وكان
ثمة ذلك الشئ الغريب المرتسم على وجهها . ووصلا قمة التل ،
فتنفست اليزا الصعداء . وقالت له بإلحاح :

- لا تلتفت وراءك .

وتبعها إلى حجر مستو ، دون أن ينظر خلفه ، وفوق ذلك الحجر وقف بجانبها .

وقالت : « الآن » ثم استدارت فجأة . . فخرجت صرخة من بين شفتيها . واستدار اجزوما وتطلع ، فشقق لأن المدينة كانت ترقد تحته . . مالاي كامب ، وفريديدورب ، وكثبان المنجم - كل شيء . وكان شيئاً غريباً أن يراها هكذا ، يراها وكأنه فوقها وأكبر منها . وكان يعلم أنها كلها موجودة ، وإن لم يكون يدرى تماماً أين تكون . لقد عرف سر المدينة ، فأى واحد يمكنه أن يرى ذلك ، وكانت الأضواء تتوهج وتضيئ وتنطفئ في ألوان خضراء وورقاء وصفراء ، وتكون دوائر تشكل خيولا ، وتشكل بيوتا في الجو . وكان ذلك هو قلب المدينة ، حتى الغبي يمكنه أن يدرك ذلك . وكان يعلم أن مالاي كامب الآن في مكان ما جهة اليمين ولكن أين ؟ .

- أين مالاي كامب ؟ .

وأشارت اليها بإصبعها وقالت : « ذلك الضوء هناك ، أبصره . لا . . الضوء الأزرق . . أجل . . والآن إلى يساره . أيمكنك أن ترى البقعة المظلمة وأضواءها القليلة . . تلك مالاي كامب من هناك وحتى الكويري . وعلى الجانب الآخر من الكويري وعبر النفق فريديدورب » .

وقال اجزوما : " إنه شديد الصغر من هنا " وأبدى دهشته .
« وحين تكونين هناك ، ترينه كبيرا ، عند قدومي لأول مرة إلى المدينة
تهت في مالاى كامب . أخذت أمشى من بعد ظهر ذلك اليوم وحتى
وقت متأخر من الليل . ولو لم تكن لياه خارج بوابتها لضعت . وهو
الآن صغير جدا ، يشبه تماما مزرعة كبيرة » .

وقالت اليزا فى شرود : " تلك هى المدينة .. المدينة " .
أجل .. كل شئ كان هناك فى واد غير عميق .. ويدت وهمية
فى ضوء القمر وفى الأضواء المتألثة التى انبعثت منها ، فأشبهت
بذلك لعبة كبيرة جميلة .

وقال اجزوما : " والناس فيها يعيشون " .
وحدقت اليزا بتركيز فيها تحتها ، وألقت عيناها مرة بعد مرة نظرة
شاملة ، من الأفق للأفق ، وكان فى تحديقها أثر من رغبة ملحة
وإحساس بالوحشة . وكان ذلك الأثر يزداد حدة حين تنظر إلى
الطريق الطويل الملتوى الصاعد إلى التل البعيد والذى يختفى وراء
الأفق .. طريق لعبة يصل من مدينة لعبة .

وسألها اجزوما : " أنت ولدت فى المدينة ؟ " .
- أجل ، ولدت فى المدينة .
وكان صوتها حزينا ، فأحاطها بذراعه وقال لها بلهفة :
- أرينى أين .

فابتسمت وحكت يده بوجنتها وقالت :

- فى بيت لياه .

- وقال فى إصرار : " أرينى " .

فهزت رأسها ثم أشارت مازحة بإصبعها . وكان البيت غارقا فى العتمة التى كانت هى مالاى كامب ، مثل كثير من بيوت أخرى كثيرة مثله تماما .

ومرت سحابات رقيقة متفرقة عبر القمر ، وفى الأسفل وفى قلب المدينة ، كانت أضواء النيون تومض وتنطفئ على الدوام لا تتوقف . . . وفتح اجزوما فمه ليتكلم ، لكن اليزا رفعت أصابعها إلى فمه وهزت رأسها ، فأغلق فمه . ومن المدينة جاء طنين . . تصاعد فى بطنه ، ثم تلاشى فى السماوات اللانهائية .

وجلسا صامتين ، لايتفوهان بكلمة واحدة ، ولايكادان يتحركان . لقد جلسا هكذا وقتا طويلا ، وحين نظر اجزوما إليها ثانية رآها تبكى فى صمت فسألها :

- ما هى الحكاية ؟ .

فقالت وهى تبتسم خلال دموعها : " لاشئ " .

فجفف لها دموعها ، وكان يتعذر عليه تماما أن يفهمها وهى على مثل هذه الحال . ولكنها كانت معه لم تحاول أن تفر بعيدا عنه .
وقالت برقة شديدة : " اجزوما " .

ونظر إليها ، ورأت هى كم يشق عليه ما يبذله من محاولة لفهمها واعتصر يديه .

- نعم .
- لاتذهب إلى العمل الليلة . أبق معى . . . وكان فى صوتها
توسل .
- لابد أن أذهب ، فأنا الرئيس .
- الليلة فقط يااجزوما ، رجوتك .
- يجب أن أذهب يااليزا . رجلى الأبيض يعتمد على .
- كان يتمنى لو استطاع أن يجعلها تفهم الموقف ، وابتسمت فجأة
. . ابتسامة مرحة متألفة وأومات وقالت :
- إننى حمقاء . يجب أن تذهب .
- وانتابه السرور ، فلقد أدركت الموقف . ثم بقيا بعد ذلك
صامتين . ومرت دقائق . . ثم بدأت بلا قصد تعبث بيده ثم بذراعه
، وأخذت حركة أصابعها تزحف إلى أن صار يشعر بها . ثم صار
يشعر بدفقتها ويعي دعوة أصابعها . وسرى الدفء إلى دمائه فتناول
يديها واعتصرهما بطريقة جعلتها تشفق من الألم .
- وقالت هامسة: " لابد أن تمارس الحب معى " .
- فقال: " هيا بنا " .
- كلا . . هنا .
- ولكن . .
- لأحد يأتى هنا . وأنا أريدك هنا .
- ولم يستطيع مقاومة أصابعها وعينيها وبسمه شفيتها الغربية
المغرية .
- وقبل أن ينقلها اجزوما عبر أعلى قمة لأعلى جبل ، أدارت اليزا
عينيها نحو المدينة ثم أغمضتهما بشدة وتشبثت به . .

اليزا .. اليزا . كان يتناديها وهو مستغرق في نومه ، ثم تقلب في فراشه .

وكان العمل شاقاً في الليلة الماضية ، لأنه لم يذق طعم النوم .
وبان في نومه الاضطراب المتوتر الناجم عن كل هذا .

وكان يتقلب في فراشه ويستدير ويثن منذ جاءت الأم بلانك الى الغرفة . وهو الآن ينادى اليزا ، والأم بلانك العجوز لاتدرى ماذا تفعل .

وعاود النداء : " اليزا " .

وراحت الأم بلانك إلى السرير ووقفت تتطلع إليه ، ومدت يدها لتلمسه ، ثم جذبتها ثانية . لقد فتح عينيه ورآها تحوم حوله . فاتبسم لها .

- أهلا .

- أهلا يا اجزوما .

ودار بعينه في الغرفة كلها . كل شئ فيها على ما كان عليه دائما . ملابس العمل موضوعة في مكانها المعتاد ، والنار وسط الغرفة والطعام فوقها .

- أين اليزا ؟ .

- مشت .

- هل ستغيب ؟ .

وتركته الأم بلانك فجأة وراحت إلى النار . . وبدأت شديدة
الهرم شديدة الإجهاد ، فقد كانت قدماها ترحفان على الأرض .
وانتصب اجزوما جالسا وهرش رأسه .

- أين ذهبت أيتها الأم بلانك ؟ .

- رحلت يا اجزوما . ولم تلتفت إليه المرأة العجوز .

- أين ؟ . وكان في صوته لهجة تنم عن اللهفة وضيق الصدر .

وفي جهد التفتت إليه الأم بلانك وثبتت عينيها عليه ، وقالت
في أناة :

- مضت في رحلة بالقطار طويلة . قالت لى أن أبلغك أنها
ماضية في رحلة بالقطار طويلة ولن تعود . ستستمر الرحلة يومين
وليلة .

وتوقفت الأم بلانك لحظة . وجلس اجزوما يحملق فيها . وفتح
فمه مرة ثم أغلقة ثانية دون أن يتفوه بكلمة . وعادت الأم بلانك
تتكلم ثانية :

- قالت إنها حاولت ، ولكن لافائدة يا اجزوما ، ولقد بكت
كثيرا يا ولدى لأنها تحبك بصدق . . من الصعب أن أوضح لك
يا اجزوما ، لأن الأشياء التي في رأس شخص آخر من الصعب دائما

فهمها . ولكنى أعلم أن اليزا فتاة طيبة ، وأعلم أنها تحبك أنت فقط . إن لديها نفس المرض الذى كان لدى دادى يااجزوما ، وقد أحبيت دادى ، ولهذا أنا مدركة للموقف
وقال اجزوما بلطف: " اهدئى " . . . وجلس يحدق فيما أمامه دون أن يرى أى شئ .

وفجأة كانت الغرفة هادئة وغريبة . وكان العالم أيضا كذلك ، مكاناً خاوياً وغريباً . وظلت الأم بلانك تنظر إليه . . لم يكن فى عينيه حثق . . لم يكن فيهما شئ . . وبقينا تتطلعان إلى مكان واحد دون أن تريا ذلك المكان . ولم تفكر الأم بلانك فيما يتوقع منه من تصرف . ولكنها رأت أنها لم تكن تتوقع منه أن يجلس هادئا ، يحملق فى مكان واحد دون أن يراه .
فقالت برقة: " أنا آسفة " .

لم يسمعها اجزوما ، فنهضت وملأت له صحننا بالطعام وقالت له: " طلبت ميزى منى أن أطهو لك طعامك " .
لكن اجزوما لم يسمعها .

وناولته الطعام ، فأكل بطريقة آلية دون أن يدرك ما هو أو يبدى به اهتماما . وتوقعست منه الأم بلانك أن يلقي عليها مزيدا من الأسئلة ، لكن ها هو الآن يتناول الطعام ويحملق ولا يرى شيئا ولا يتذوق شيئا .

الناس لا يتصرفون مثل هذه التصرفات . . فحين تنزل بهم مصيبة ، فانهم يقومون بعمل شئ . . إنهم يكونون أو يصرخون أو يمتنعون عن الطعام أو يلجأون إلى الشراب ، أو يغضبون أو تتييس أبدانهم . إنهم لا يكونون مجرد أناس طبيعيين كما كانوا دائما .

وعرف اجزوما نوع الطعام فنحاه جانبا ، فقالت له الأم بلانك :
- إنك لم تفرغ منه بعد .

فقال اجزوما : " امش من فضلك " .

وكانت الأم بلانك على وشك أن تعترض ، ولكنها نظرت إليه وعدلت عن رأيها . وفي تمهل لمت شالها وخرجت .

وقال اجزوما : " لقد رحلت " وراح يتطلع في كل أرجاء الغرفة . وحاول أن يفكر ، لكن التفكير كان مستحيلا . كل شئ كان مستحيلا . واليزا رحلت ولن تعود إليه ، وهذا كل ما يعيه . اليزا رحلت . وزحف الأصيل خلسة نحو المساء ، وبقي اجزوما جالسا على حافة سريره ، وكان الوقت مجهولا بالنسبة إليه . ودقت ميزى على الباب ودخلت . ورفع بصره مرة واحدة ، وكان مشدوها . وابتسمت ميزى بمرح ولكن كان يطل من عينيها ألم شديد .

وقالت ميزى : " يجب أن ترتدى ملابسك " وقدمت له قميصا وينظلونا .

ولبس وجلس ثانية على حافة السرير .

فسأله : " هل ستعمل الليلة ؟ " .

- كلا .

كان ذلك يوم سبت ولم يكن عليه أن يذهب إلى العمل حتى
الأحد ليلاً . وشعرت ميزي بالرثاء له . فالعمل سيكون مفيداً ..
والعمل الشاق يعين القلب .

فقالت له : " يجب أن نخرج ونرقص . صديقاتي في هوبفلاي
طلبوا منى أن أذهب إليهم ، وقالوا إننى يجب أن آتى بك معى
أيضاً . يمكننا أن نذهب الليلة ونعود فى الوقت الذى يناسب ذهابك
غداً إلى العمل ، هيه ؟ " .

وهز اجزوما رأسه ، ولاكت ميزي شفتها السفلى ثم ضحكت
فجأة : " لياه قالت إنها ستأتى أيضاً لو أنك جئت " .

ونفض اجزوما وأحكم ربط حزامه وراقبته ميزي فى قلق .

وقال اجزوما برقة : " لا أريد الذهاب الى صديقاتك ولا أريد
الذهاب إلى أى مكان . دعينى من فضلك وحدى ياميزى . فيما
بعد ، ربما أذهب معك ثانية ، أما الآن فلإنى أريد أن أدخلو إلى
نفسى " .

وترددت ميزى ثم خرجت ، وما إن أغلقت الباب وراءها حتى
سمعتها تنشج بالبكاء ، فأحنقه ذلك ، لكنه سرعان مانسى الأمر ،
وعاد الى السرير وجلس على حافته .

وقال : " لقد رحلت " وتعجب كيف شعر بذلك بطريقة تتسم
بالغموض لاثخيز فيها ، ولكن لاوجود لأحاسيس عنده ، اللهم إلا
فراغ شديد الوطأة . لاوجود لألم ، لاشئ .. لاشئ .. قد رحلت
اليزا ..

وبعد عشرين دقيقة من خروج ميسى دفعت لياه الباب وفتحته دون أن تقرعه ، ودخلت ووقفت برهة فى المدخل ، يداها فى وسطها ، ورأسها مائل على جنب ، وابتسامة مرتسمه على جانب من فمها . ونظرت إليه ، ثم تقدمت داخل الغرفة ، وقالت بصوت أجش ومرتفع : " أهلا يا اجزوما . أسمع كلاما كثيرا وأرى نسوة عجائز وشبابا حمقى يكون .. هيه ؟ " .

ونظر اجزوما إليها فى صمت .

- أنت إذن لا تستطيع الكلام هيه ؟ . اجزوما يا قادما من الشمال ؟ . ولم هذا ؟ لأن خليلتك هجرتك . أنظر إلى نفسك .. باه ! " .

فقال اجزوما : " إليك عنى " .

- قطعاً سأدعك وأمضى ، ولكنى سئمت من أولئك الضعفاء الذين يرتدون بنطلونات ويتظاهرون بأنهم رجال . وتغير صوتها فجأة ، أصبح أرق ، وأكثر وداً ، ولكن الابتسامة الملتوية بقيت مرتسمة على وجهها : " لقد رحلت يا اجزوما ، وهو أمر لا يمكن أن تجد له حلاً . رحلت لأنها تسأم هذا المكان وتسأمننا ، ولأنها تبتغى أشياء لا نستطيع أن نحققها لها ، أشياء لا نستطيع الحصول عليها هنا . وقد تستطيع نوالها وقد لا تستطيع . ولكن هذا هو حالها يا اجزوما وأنت لا تعيه . ولكن هذا هو سبب حبك لها . لقد قلت لك إنك مغفل مع الناس يا اجزوما ، مغفل كبير . أنت تظن أنك لو أحببت امرأة وأحبتك هى ، فهذا هو كل شئ ، هيه ؟ . هو كذلك

مع البعض ، ولكنه ليس كذلك مع آخرين . بالنسبة لميزي نعم ، هو كل شئ . وبالنسبة لاليزا لا يكون كذلك . ولكنك عما قريب قد تفهم اليزا حين يقع لك شئ ما . والآن اخرج يا اجزوما ، اخرج وتمش .. تمش فترة طويلة ، وعد حين تشعر بالاجهاد .

ودست يديها تحت إبطيه ورفعته مرة واحدة لينهض على قدميه . ووقفا يتطلع كل منهما للآخر ، ورفعت هي حاجبها الأيسر ، واتسعت البسمة الساخرة على جانب من وجهها .

وقالت له : " لو كنت رجلا " وتطلعت إليه من أعلى إلى أسفل " لو كنت رجلا يمكنك أن تجئ إلي بعد تمشيته ، فربما أخذتك الى الفراش " .

وضحكت بغلظة للتعبير الذي ارتسم على وجهه ، وخبطت على فخذيها ثم دفعته الى الخارج ، وشاهدته وهو يصعد الشارع ، ثم دخلت الغرفة بسرعة وأغلقت الباب وراءها واتكأت عليه بكل ثقلها وتنهدت ، ولعت الدموع في عينيها ، وفتحت فمها وتنفست جرعة هواء كبيرة ، وفي تمهل نظرت في أرجاء الغرفة . هنا كانت اليزا تعيش سعيدة بعض الأحيان . نعم . . كان ذلك يبدو على وجهها وفي عينيها وفي صوتها . ويبدو في الطريقة التي كانت تمسك بها يدي اجزوما أحيانا . لقد عاشت هنا سعيدة لفترة وجيزة .

وابتسمت في حزن فالانت الابتسامه وجهها ، وجعلته رقيقا وجميلا . وكانت ابتسامه كبيرة ملء الفم ، رقيقة وحزينة . ومن عينيها تسلت دمعتان ، انحدرتا بلا اكتراث على وجنتيها . ثم راحت إلى المنضدة الصغيرة ، وكان يعلوها صورة قديمة باهته لاليزا مثبتة

على الحائط ، واخذت تتطلع إليها فترة طويلة ، قالت بعدها فى رقة
" إنهم لا يدرون ما أشعر به " ثم دسها بين طيات ملابسها وضغطت
عليها بيدها وكانت عيناها عيني أم تهدد طفلها .

واتجهت إلى الباب ، وعنده تريثت قليلا ، ونظرت إلى الغرفة
ثانية ، ثم مسحت دموعها بسرعة وعدلت من هيئتها وخرجت ومشت
فى رشاقة تهبط الشارع .
لقد رحلت اليزا

اليزا رحلت ..

ترددت هذه العبارة في رأسه في أثناء مشيه . وكان رحيلا هو الشيء الوحيد الحقيقي . الشيء الوحيد الحى . فكل شيء آخر حوله كان ميتا فاقتدا الحياة . لم ير الناس وهم يمرون به مسرعين ، ولم يشاهد بهجة مالاى كامب فى ليل السبت ، ولم يدرك الحياة تنبض وتصطبغ فى كل مكان . شيء واحد فقط بارز فى رأسه . شيء واحد حقيقى حى مشتعل ، ولا شيء غيره .

ومشى دون أن يدري إلى أين هو ذاهب ، ودون مبالاة . كل ماكان يبتغيه أن يمشى فقط ، وأن يظل ماشيا كملايين البشر البلهاء فاقدى الهممة ، وأن يضيع وسط إيقاع الحركة . أن يفقد البصر ، أن يكون أصما لا يسمع صوتا . فقط ساق تتحرك إلى الأمام ثم تليها الساق الأخرى ، حسب هذا .. ودوما ..

وفى أثناء مشيه راح الإحساس بالانعدام ينزاح رويدا رويدا من رأسه .. وبعد ساعتين من المشى بدأ يعى الناس والأشياء من حوله . بل أنه أخذ يبدى اهتماما بهم ويتطلع إلى البعض منهم فى شيء من الفضول ، ثم أصبح مدركا لوجوده ، واعيا لأول مرة بالألم الذى سبب له غصبة فى حلقه . ثم دعك عينيه وهز رأسه ليهدئ ما فى عقله من فوران .

واعتراه إرهاق شديد ، فقد أجهده المشى ، فتوقف ، وحاول أن يتبين اتجاهه ، وفكر . . يجب أن أعود . وتلفت حوله ، هناك حجر مستو . . وكان الحجر مألوفاً له . . ولكن ترى أين رآه من قبل ؟ . ثم تذكره . . فى الليلة الماضية مارس الحب مع اليزا على نفس الحجر . وأشاح بوجهه فجأة . . أجل ، فى هذا المكان كانا معا فى الليلة الماضية . من هنا كانت المدينة تشبه لعبة ذات أضواء كثيرة . ومن هنا تطلعا إليها الليلة الماضية . لقد طلبت منه ألا يذهب إلى العمل . وكانت تبدو غريبة . وجعلته يمارس الحب معها هنا . وخيل إليه أنه يكاد يراها حين نظر إلى الحجر . . وكأنها كانت هناك تنظر إليه بتلك العينين السوداوين الرقيقتين وبتلك الغمازتين الفاتنتين حين كانت تبسم . لقد كانا هنا الليلة الماضية ، أما الآن فقد رحلت .

واستدار اجزوما وأسرع يبتعد عن المكان ، وخفق قلبه بشدة . وآلمته رجلاه ، ولكنه مشى بسرعة ، وكانت الذكرى تعاود مهاجمته . وكان الإحساس بالانعدام قد ولى ، وكان إدراكه أنه لن يرى اليزا ثانية وأنها هجرته إدراكاً قوياً وواقعياً . . لم يكن إدراكاً مبهماً مشوشاً . إنه موجود ومؤلم . وخنقته الغصة التى فى حلقه .

وكان كل شيء متألّقا وواقعياً . . البيوت والناس والشوارع والسيارات والأضواء والسماء والأرض . . كل شيء كان واقعياً ومثيراً . ومن رأسه بدأت الأشياء التى كانا يفعلانها سوياً تتسرب رويداً . . مشيهما سوياً ، رقصهما معا ، جلوسهما صامتتين معا ، ضحكهما معا ، مراقبتهما الناس معا ، كل الأشياء المعتادة التى كان لها هالة حولهما . انتهى كل ذلك ، انقضى ، وراح معها . لن

يستيقظ ثانية على صوت الطائر المغرد الذى يتحول إلى دندنة اليزا .
لن يجلس ثانية إلى النار بجوارها يتناول الطعام . لن تستخدم مرة
أخرى رجله متكأ لذراعها . لن تطهو له طعاما ثانية أو تتركب زراراً
لقميصه . لن يكونا معا مرة أخرى ، وهو ما يؤلمه ألماً حاداً مميتاً .

ووصل إلى مالاي كامب ، وكان الآن واعياً بالدفء المحيط به .
وكان الشتاء يولى ، وعادت الشوارع مراكز للتجمع ثانية ، والناس
يروحون ويجيئون ، ويضحكون ، يلتقون مع صديقاتهم ويرقصون
عند نواصى الشارع . ومرة أخرى ومع قدوم الصيف تبدأ الحياة تنبض
بأسلوبها الدافئ المتمهل فى شوارع مالاي كامب . لقد جعلته الحياة
حوله أكثر إدراكاً بعزلته ووحدته وغياب اليزا وحاجته الشديدة إليها .

وشق طريقه وسط جماعة من الناس ، فأمسك رجل منهم بذراعه
محتجاً عليه ، ودافعاً إياه جانباً ، فتخلص منه اجزوما واستمر يهبط
الشارع . وغضب الرجل وسبه وراح يتعقبه ، ولكن المرأة التى كانت
بصحبه جرت وراءه وأمسكت بذراعه وقالت : « دعه بإمكانك أن
تدرك أنه فى ضائقة » .

وذهب اجزوما إلى غرفته ووقف يجيل النظر فيها . وكانت
الغرفة متغيرة بالفعل . لم تكن هى نفس المكان الذى سعدا فيه وتناولوا
فيه طعامهما ومارسا صمتهما . لقد بدت كثيفة مقبضة باردة رغم
المدفأة التى فى وسطها . لم يستطع البقاء فيها ، فخرج وأغلق الباب
خلفه . وفى تمهل اتخذ طريقه إلى مكان لياه . لم يكن بوده الذهاب
هناك . لكن ، لم يكن يوجد مكان آخر يذهب إليه . لم يكن يعرف

أحد آخر ، ولياه والذين يحيطون بها كانوا هم فقط أصدقاءه طوال الوقت الذى أمضاه فى المدينة . ولم تكن لديه الليلة رغبة فى الشوارع ؛ لأنها تذكره باليزا . فمرور رجل وامرأة به يتمشيان على مهل ، أمر يفوق قدرته على الاحتمال . و لذلك كان المكان الوحيد الذى يعرفه هو مكان لياه .

وكانت الأم بلانك خارج البوابة تراقب رجال الشرطة ، حيث كان البيع يجرى بالداخل .

وسأله : « كيف حالك يا اجزوما ؟ » .

فرد بشاقل : « بخير » .

فقالت له : « ادخل . الآخرون موجودون ، وميزى موجودة أيضا » .

ودخل اجزوما وتلفت حواليه ، وكان المكان مكتظا بالشاربين والشاربات . وعند ركن على الجانب الآخر رأى لياه ، وكانت تبيع وتضحك مع مجموعة من رجال حولها . ورأته لياه فنادت امرأة أخرى لتحل محلها ، ومشت إلى الناحية الأخرى لتقابله .

وقالت : « أهلا يا اجزوما » وكان فى صوتها رقة وإشفاق . وضغطت على يده ، فأحس بارتياح أفضل . وعندما كانت فى غرفته أيضا فى وقت مبكر اليوم ، كان وجودها أفضل لديه كثيرا من وجود الآخرين .

وقالت له : « الحال الآن أفضل . لقد آلمك الأمر ، لكن الإحساس بالانعدام قد ولى عنك ، وهذا شىء طيب » .

وأوماً برأسه ، فقد أدرك أنها تفهم الأمر ، أنها أكثر دراية
بالناس من أى واحد آخر عرفه على الإطلاق . وابتسمت له
ثم قالت :

- ربما توجب عليك أن تشرب الليلة . . عليك أن تعب كمية
كبيرة ، فلعل هذا يعينك على النسيان .
فقال وهو يهز رأسه : « لا » .

- جوهانز بالداخل ، اذهب إليه وتحادث معه . ثم ابتسمت
وأشاحت بوجهها « بعد قليل سيكون جيه . ب . وليامسن وسيتعذر
الحديث معه » .

فقال اجزوما : « لا رغبة لى فى الحديث معه » .

- طيب . . تعال واجلس بجوارى وأنا أقوم بعملية البيع ،
وسنذهب فيما بعد للقاء صديقى الذى سيخبرنى بما تتوى أن تقوم به
الشرطة .

وأخذته إلى ركنها وهيأت له مكانا ، فجلس إلى يسارها وعلى
بعد قليل من ورائها ، وراح يراقبها وهى تكيل وتطفف أكيالها وتجمع
فى مقابل ذلك قطع الشلن والشلنين . ومن حوله طنت أصوات
الناس ، ومن حوله كان الناس يتحركون ، تيار لا ينقطع من
الناس . . ناس يفدون ويحصلون على شرابهم ، ويفسحون مكانا
لآخرين . وكانوا فيما بينهم يضحكون كثيراً ويديرون أحاديث تنبض
بكثير من الحيوية . وكانت لياه تلتفت إليه من آن لآخر ، وتلقى
بعض التعليقات وتبتسم له . وأحيانا ما كانت تلتفت إليه مجرد

التفاته ، ثم تشيخ بوجهها عنه . ورأته ميزى حين جاءت من البيت
فتألفت عيناها ، وارتسمت على شفتيها ابتسامة عريضة سعيدة .
ولاحظت هي الأخرى أن إحساسه بالانعدام فارقه . فأسرعت إليه
وربتت على كتفه ، فنظر إليها وابتسم . ولم تتفوه هي بكلمة ، كل
ما فعلته أنها ربتت على كتفه ، ونظرت إليه ثم ارتدت إلى البيت .
فقالت لياه وصوتها يعلو على صوت الضجيج : « إنها إنسانة
طيبة » .

فرد بفتور : « أدرى » .

فقالت لياه : « إنها تعشقك » .

فأشاح بوجهه في صمت . وأقبل جوهانز من البيت ، تتكى لنا
خليلته على ذراعه في ثاقل . كان ثملاً ، فأراح رجلاً عن طريقه ،
فأريق بعض من جعة الرجل ، فاحتج ، فأمسكه جوهانز بيده
الضخمة من رقبته ورفع في الهواء ، فتذمر الرجل وقاوم في وهن .
فقال جوهانز هادراً :

- أنا جيه . ب . وليامسن ، سأسحقك ياخسيس .

وصاحت لياه هادرة : « أنزله على الأرض » وصفعته ، فبانت
على وجهه نظرة ألم تتسم بالبراءة ، وأطلق يده فهوى الرجل وارتطم
بالأرض ، وأحدث ارتطامه صوتاً مكتوماً .

وصاح جوهانز في حزن : « ضربتني يا أخت لياه .. لقد
ضربتني » . وبدأ يبكي .

ولبرهة أصابت الدهشة لياه لرأى دموع جوهانز . لقد كان ضحما وطويلا ، وكان شديد القوة ، ولذلك صدمها بكأؤه ، ثم انفجرت بعد ذلك ضاحكة .. فلقد كان الموقف شديد الهزل .

- أنت ضربتني .. وأعول جوهانز ، ودموعه تنهمر على وجهه . وبدأت لنا خليلته تنشج ، وسرعان ما انخرط الاثنان كلاهما فى البكاء .

واهتزت أعطاف لياه من ضحك لم تستطع السيطرة عليه ، ولم يتمالك اجزوما نفسه ، فضحك هو كذلك . أما الرجل المسكين الذى ألقى به جوهانز ، فقد ترك على الأرض بلا مبالاة . ورقد يتفرج مشدوها على مشهد جوهانز وخليلته وهما يبكيان . وضحك رجل قريب من لياه ضحكة مكتومة ، فتقدم جوهانز خطوة إلى الأمام وهو يحملق فى الرجل مغضبا والدموع تنهمر على وجهه . وتوقفت الضحكة فى حلق الرجل . وتقدمت لياه لتقف بينه وبين جوهانز . وبحث الرجل عن مخرج له ، ولم يجرؤ الآخرون على الضحك سوى لياه واجزوما .

وجاءت مىزى إلى الفناء ورأت ما يحدث فتهافت من الضحك . ونظرت لياه إلى اجزوما ورأته يضحك فتسللت إلى ضحكها نغمة جديدة من السعادة . ويكى جوهانز و خليلته بمرارة ، فتساءلت لياه « ما هذا ؟ » .

فقالت لينا : « لقد ضربته » . واشتدت فى البكاء .

وقال جوهانز : « لقد صفعتنى » .

فقالت لياه وهى تحاول السيطرة على ضحكها : « لقد خنقت الرجل » .

فرمى جوهانز الرجل بنظرة ازدراء وبصق : « هو الذى بدأنى بالضرب » .

- هذا كذب .

فسأل جوهانز لينا وهو يدفعها بعنف : « أليس الأمر كذلك ؟ » .
فصاحت لينا : « لا تدفعنى » وأمسكت بذراعه ، وحاولت أن تغرس فيها أسنانها ، فتخلص منها كما لو أنها كانت ريشة .

وقال جوهانز : « اسألى اجزوما ، لقد رأى الرجل يضربنى » .
وابتسمت لياه ونظرت إلى اجزوما وسألته : « هل كان الأمر كذلك يا اجزوما ؟ » .

- كلا

- ما رأيك يا جوهانز ؟ .

فنكس جوهانز رأسه .

وقالت لينا فجأة : « أنت متوحش . اعتذر للرجل ، قل له إنك آسف ، هيا ! » . وشمرت كميتها وتقدمت نحوه .

وقالت لياه : « هيا يا جوهانز ، لن أسمع لك بالتدخل مع عملائى . قل إنك آسف » .

وانقضت عليه لينا ، فhez نفسه بطريقة جعلتها تلف وتدور .
وبخجل مال تجاه الرجل الملقى على الأرض وأمسك بيده فانتزع الرجل
يده وابتعد خائفا .

فقالت لياه تستحث الرجل : « امسك يده ، إنه لن يضربك » .
وفى تردد أمسك الرجل يد جوهانز الضخمة ، الذى شده
فأنهضه وقال له : « إننى آسف » .
وأوماً الرجل برأسه وابتعد . فتمتم جوهانز فى همس
« خسيس » .

فقالت لينا : « هذا شىء طيب » وأمسكت بذراعه « والآن
يمكنك أن تشتري لى شرابا » .
فقال جوهانز وقد ناول لياه ورقة بعشرة شلنات : « أعطى هذه
الخسيسه شرابا » .

- سأحتفظ لك بالباقي ، لأنك سوف تحتاج إليه غدا .
وفى كل مكان كان الناس يطلبون شرابا ، وعبقت بالمكان رائحة
الجمعة ، وأصبح حديث السكارى من الرجال والنساء طينيا . وكان
الجو هو جو مالاى كامب والأماكن الأخرى المظلمة من جوهانسبرج
فى ليلة من ليالى السبت . الجو الذى لا وجود له فى أى مكان آخر
على وجه الأرض إلا فى الأماكن المظلمة فى جوهانسبرج .
- هيا يا جزوما ، سأمضى إلى الشارع لأقابل صديقى الذى
سيحمل أخبارا لنا .

ولحق بها اجزوما خارج البيت ، وكانت الأم بلانك ما تزال بالخارج ، وقالت : « كل شيء آمن » .

فقالت لياه : « إننى ماضية لاكتشاف خطط الشرطة » .

ومضت هى واجزوما فى الشارع ، وكانت من آن لآخر تتلفت إليه ، لكنه كان غارقا فى أفكاره المكتئبة ، وقالت له : « أنا أيضا أفقدتها » .

ونظر اجزوما إليها . . أمر طبيعى . . هى أيضا تعشق اليزا . . لقد لاحظتها وهى تنمو وتكبر ، ولهذا لابد أن تكون اليزا كابنة لها . من الطبيعى أن تتعلق أيضا باليزا .

وقال لها : « أجل إنك تحبينها أيضا » .

- كلنا نحبها .

- وهى ؟ .

- هى تعشقك يا اجزوما . . أنا أعلم ذلك . . وأنا لست بلهاء مع الناس .

- لكنها هجرتنى .

- وهجرتنى كذلك ، وهجرت الأم بلانك . . وقد أحببتنا أيضا .

ووصلا إلى ناصية الشارع وانتظرا . ومضت خمس دقائق ، عشر دقائق . ثم أبصرا الشرطى الأسود قادما فوق دراجته من بداية الشارع ، وتوقف .

فقلت لياه : « أهلا .. ما الأخبار ؟ » .

فقال الرجل : « أنا قلق ، إنهم ينظرون إلى بطريقة غريبة » .

فقلت لياه بخشونة : « هذا شأنك .. إننى أدفع لك لتبلغنى بما يخططون له ، لا لتبلغنى بالكيفية التى ينظرون بها إليك . ماذا يخططون ؟ » .

فقال الرجل : « إنك قاسية » .

- والحياة قاسية ... ماذا يخططون ؟ .

- لن يأتوا الليلة ولا صباح باكر أيضا ، ولكنهم سيأتون عند أصيل الغد ، وهم لن يتركوا المكان فى الليل ولو لساعة واحدة فقط .

فقلت لياه : « حسن » وعدت خمسة جنيهات ورقية . ، فوضع الرجل النقود فى جيبه ومضى فوق دراجته .

وقالت لياه باستغراق : « لن نبيع فى الغد على الإطلاق ، وأعتقد أن هذا أفضل . وستخلص الليلة من الصفائح . فما قولك يااجزوما ؟ » .

فقال اجزوما : « لك أنت دراية بمثل هذه الأمور » .

ورجعا إلى البيت صامتين . وعند الباب قابلتهما ميزى التى قالت لاجزوما : « بنا نتمش يااجزوما » .

فقلت لياه : « امض معها » ودفعته .

- وهو كذلك .

وقالت لياه : « ولكن لا تمكثا فترة طويلة ، يجب أن نعالج الليلة مشكلة الصفائح ، وأنتما تستطيعان أن تقدما يد العون . امضيا الآن »

وتأبطت ميزى ذراعه ومشيت به فى اتجاه فريديدورب . وسارا فترة طويلة فى صمت ، وظلت ميزى تتعطف يسارا إلى أن مشيا فى مكان كان العشب فيه تحت أقدامهما .

وتساءل اجزوما : « أين يكون هذا المكان ؟ » .

- هذه فوردسبيرج ، ساحة الرياضة للأطفال الملونين . إنها تقع فى منتصف المسافة بين مالاي كامب وفريديدورب . فلنجلس على العشب . وجذبتة إلى جوارها .

واستلقيا على العشب الأخضر . . اجزوما على ظهره متوسدا يديه ، وميزى على جنبها تتكىء على أحد مرفقيها ومستديرة ناحيته .

وتطلع اجزوما إلى القمر الذى لم يكتمل ، لقد بدا الألم شديد اللفة . إنه إلى حد كبير جزء من الحياة . وسرح بفكره فى موطنه وأهله هناك ، وأدرك أنه لن يذهب أبدا إلى موطنه ثانية ، وهو لا يريد العودة إليه ، فهو لم يعد موطنا . ولكن فى موطنه الآن ، لو أنه كان مستلقيا على العشب ، لكان فى كل مكان عدد لا يحصى من وهج ضئيل ، وهج اليراعات الصغيرة ، حيث تبدو أضواؤها وتختفى طوال الوقت . ولكان هناك الطنين الهادئ بدون ذلك الصوت الخفيض المبهم للأزير الذى يسمعه الإنسان فى المدينة ، ولكن الموطن الآن انتهى . هجران اليزا قضى عليه ، وقد كان يحلم بالذهاب إليه معها .

وسألته میزی : « هل المكان هنا هادئ ؟ . إننى أحبه ؟ » .

وكان اجزوما سارحاً بفكره مع اليراعات فى موطنه فلم يقل شيئاً .. ونظرت إليه میزی ثم أشاحت بوجهها بعيداً عنه . والتقطت عيناها ضوءاً خافتاً يومض فى الأفق .. ضوءاً واهناً كان من الصعب أن يطيل بقاءه . وثبتت هى عينيها عليه .

- اجزوما .

- هيه ؟ .

- كانت إنسانة جيدة .

وحول بصره إليها وبقي هادئاً .

- هجرانها لك سيشعرها بالسأم يا اجزوما . وهى الآن ، فى هذه الليلة وأينما تكون ، تشعر بالوحشة وتتوق إليك ، لأنها أحبتك .

- لا تتحدثى عنها .

- بل يجب أن نتحدث عنها ، لأنها تعيش فى تفكيرك ، ويحسن أن نتحدث عن شىء يعيش فى رأسك .

- لا أريدك أن تتحدثى عنها ! .

وبقيت میزی تحديق فى الضوء الوامض البعيد .

- حسن ، سأحدث أنا عن نفسى لأتنبى أريد أن أتكلم ، فصدرى متعب ، ومن الخير لى أن أفضفض . وتوقفت لحظات

ولعقت شفتيها ، ثم وفي صوت يتسم بالواقعية ، استرسلت تتحدث
كما لو كانت تناقش أمرا ما غير ذى بال : « الوقوع فى حب رجل
يحب امرأة أخرى أمر مؤلم ، بل ربما يكون أشد إيلا ما من أن تحب
إنسانا يحبك ثم يهجرك . لا أدري . . كل ما أعرفه أن حب رجل
يحب واحدة أخرى أمر شديد الإيلام . . إنك تنظر إليه فترى شعاع
عينيه متجها إلى الأخرى فيدمى قلبك . وأنت ترقد لتنام ، وتكون
وحيدا ، ويبدو لك أن لا أحد يريدك ، وتقول لنفسك « إنهما معا »
فيؤلمك هذا ويتأبى عليك النوم ، وأنت طوال الوقت تحمل هذا بين
ضلوعك ، وتنظر إليهما حين يكونان معا فتبتسم ، ولكن قلبك يتزف
. ويمضى يوم وراء يوم وأنت طوال الوقت على هذه الحال . . هذا
هو الألم يا اجزوما . الألم الذى أحمله بين جوانحي منذ شهور » .

وبعنف انتزعت من الأرض حزمة من عشب وطوحت بها بعيدا
. كان ثمة دنيا من المראה فى هذه الحركة . ولفترة طويلة ساد بينهما
صمت عقب ذلك . وأدارت عينيها عن الضوء الوامض البعيد والتفتت
إليه وقالت فى صوتها الهادئ المبحوح الواقعى :

- كنت أعرف أن حبكما سىتهى . عرفت ذلك تماما ، لأن هذا
هو حال اليزا . إنها ترغب فى أشياء لا ندركها نحن ولا نفهمها .
وانتظرت . والآن انتهى الأمر ولكنى لست سعيدة . ربما يرجع السبب
فى ذلك إلى أنى أعرف الآن أنها تحبك حقا بنفس قدر حبك لها . لا
أدري . . ربما يكون الأمر كذلك ، لكنى لست الآن سعيدة ، لقد
ظننت أنى سأسعد حين تهجرك وتعود أنت إلى . ولكنى لست
سعيدة . .

ونظرت إليه فأطالت النظر بعض الشيء . ووسط الظلام ظن
اجزوما أنه رأى شبح ابتسامة على شفثتها ، ثم انهارت ميزى فجأة ،
وأخفت وجهها بيديها وبكت فى مرارة . وهز جسدها نشيج مفرط
عاصف وراحت شفثاتها تقطران الألم والعذاب ، واختلطت ببيكائها
كلمات خففت من حدتها الأرض الطيبة والعشب الأخضر المزهر .

ونفض اجزوما ونظر إليها . لم يكن بوسعها أن يفعل شيئًا . ولم
يكن بمقدوره أن يقول شيئًا ، بل إنه لم يكن حتى قادرا على لمسها .
كل ما استطاع أن يفعله هو أن يتطلع إليها ويصغى إلى الألم المنبعث
من صوتها ، لم يكن بمقدوره أن يساعدها .

وهناك فى الأفق البعيد كان الضوء الواهن يومض فى خفوت .
وكان القمر الوليد ساطعًا كعهده دائما ، وزاد من حدة هدوء الليل
طنين المدينة الخفيض ، وكانت النجوم فى مواقعها ، وكانت الدنيا
على خير مايرام .

ثم أخذ نشيج ميزى يختفى رويدا رويدا ، وراح لهاثها يخفت ،
وبدأ تنفسها ينتظم . وأخيرا استلقت منهوكة القوى متعبة ، تنفس
يسر واستواء . لقد هزتها العاصفة حتى الأعماق . ثم مرت ، وها
هى الآن راقدة تستريح . لقد عاد الزمن ، ورجعت الدنيا .

وظلت ميزى راقدة فترة طويلة ، عيناها مغمضتان ، تتلمس
أصابعها أطراف العشب الحادة ، ثم جلست أخيرا وجففت عينيها ،
وأشعل اجزوما سيجارة وأخذ نفسا عميقًا .

وقالت ميزى : « يجب أن نعود » ونهضت واقفة .

وسارا عائدين فى تمهل دون أن يتفوه أحدهما بكلمة ، وأمسكت
مىزى بيده ، وكانت كعهدها دائما . وكان الوقت متأخرا والشوارع
خالية . وحين وصلا إلى مكان لياه كان آخر الزبائن يغادرونه ،
وكانت لياه فى الفناء تحدث الأم بلانك والمرأتين اللتين ستساعدان فى
إخراج الصفائح .

وقالت لياه وهى تربت على ظهر اجزوما : « هاهما البتان اللتان
ستساعداننا . سأحدد الأماكن ، وتقومون أنتم بالحفر » .
وانتظروا إلى أن انتهت لياه من تحديد الأمكنة ، وكانت خمسة .
وعينت لكل منهم مكانه ، وشرحت لهم كيف يجرى الحفر .
- وأنت أيتها الأم بلانك ستقومين فى الخارج بالمراقبة .
واتجهت الأم بلانك إلى البوابة .

وأحضرت لياه مجارف قصيرة اليد ونادت : « أسرعوا الآن »
وبدأت تحفر .

كانت صفيحة اجزوما التى تمتلئ إلى منتصفها بالجنة أول صفيحة
يتم رفعها ، وكانت التالية صفيحة لياه . ودعت مىزى اجزوما ليعينها
على رفع صفيحتها ، وأخرجت المرأتان صفيحتهما ، هذه الصفائح ،
ثلاث منها كانت فارغة ، وواحدة تمتلئ إلى منتصفها ، وواحدة مليئة
بالكامل .

وقالت لياه : « علينا الآن أن نبعد هذه الصفائح » .
وفجأة امتلأ الفناء بأناس . . . أناس جاءوا من كل مكان . عدا

البوابة . وأضيئت المشاعل وشاع الاضطراب لحظة من زمن . وسلط ضوء بطارية بالكامل على وجه لياه ، التي حدثت في الضوء الساطع دون أن تطرف عيناها .

وقال صوت رجل أبيض في رقة : « أهلا يالياه » .

فقلت لياه : « أبعد هذا الضوء عني » .

وأطفأ الثعلب بطاريته وقال : « وأخيرا وقعت في يدي يالياه » .

وابتسمت لياه ابتسامتها الساخرة وانتصب كتفها وقالت :

« أجل . . لقد أمسكت بي » .

- فلندخل إلى البيت يالياه . . أريد أن أراك وأرى أصدقائك .

وقادت لياه خطاهم ، وتبعها الثعلب . ورافق الآخرين شرطى ،

وقام شرطيان بحراسة الصفائح الخمس . وتطلع الثعلب إلى الوجوه

من حوله فتعرف على اجزوما .

- أهلا يا اجزوما .

لكن اجزوما بقى صامتا ، فنظر الثعلب إلى لياه ، وكان في عينه

إعجاب بها حين رأى رباطة جأشها وابتسامتها الساخرة المرتسمة على

ناحية من وجهها .

- لقد نصبت فخا يالياه . . وسقط الفأر في المصيدة ، ويالها من

سقطة ! لقد حصلت على ما يكفي لسجنك ستة أشهر يالياه .

وسأله لياه : « وكيف نصبت فخك ؟ » .

وابتسم الثعلب ابتسامة ودية .

- لم يش بك أحد ، كنت أعلم أن شخصا ما يبلغك بخططنا ،
ولذلك وضعت خططا مضللة . خططت ألا نأتى الليلة بل بعد ظهر
الغد ، وأبلغك بذلك صديقك ، لكننا أخطأنا وأتينا الليلة بدلا من
الغد ، ومنذ ساعتين ونحن فوق الأسطح .

فقالت لياه : « هذا ذكاء منك » .

- إننى الثعلب .

وأومأت لياه : « ثمة شيء واحد يا ثعلب . هؤلاء الآخرون
كانوا ينفذون ما أمرتهم به ، وأريدك أن تدعهم لحال سبيلهم . إنك
إنسان ، ولو كنت صديقا لى لفعلت ما طلبته منك . لقد كنت تطلبنى
أنا ، وها أنت قد نلتنى ، فدع الآخرين » .

فسأل الثعلب : « من كان ينقل إليك الأخبار ؟ » .

فهزت لياه رأسها ، وابتسم الثعلب ورأت لياه الإعجاب باديا فى
عينيه ، وأوما هو برأسه .

- أو يمكنهم أن ينصرفوا ؟ .

- نعم يالياه . . . يمكنهم أن ينصرفوا .

- شكرا لك ، أنت إنسان طيب .

- وأنت امرأة طيبة يالياه . . هل أنت مستعدة ؟ .

- أمهلنى قليلا .

- على ألا تطيلى ، فالوقت متأخر وزوجتى فى انتظارى .

وأومأت لياه والتفتت إلى اجزوما : « ناد الأم بلانك » .

ونخرج اجزوما ثم عاد مع الأم بلانك بعد بضع دقائق ، واستوعبت المرأة العجوز الموقف كاملا فى لحظة خاطفة ، ثم تطلعت إلى لياه ، وابتسمت لياه ، وبدت فى عيني المرأة العجوز ومضة تنم عن الفهم . لقد أدركت هاتان المرأتان تمامال ما حدث ، فى حين صدم الآخرون ، وأراحت لياه يدها على كتف المرأة العجوز .

- سوف يتم ترحيلى حوالى ستة شهور أيتها الأم بلانك . بيعى كل شىء واحتفظى بالنقود ، احتفظى بها مع النقود الأخرى ، سوف نكون فى حاجة إلى بيت جديد حينما أعود ، هيه ؟ . وانتبهى .. لا تضيعى النقود على المحامين .. مفهوم ؟ .

ونظرت لياه إلى ميزى ، وشعاع من ورقة ينبعث من عيناها . لقد كانت لياه أقوى وأهدأ شخص فى الغرفة .. ثابتة وقوية وصلبة .

- وداعا ياميزى .. كونى فتاة طيبة .. اعتنى بالأم بلانك ، فهى تشيخ ، وكبار السن فى حاجة إلى رعاية .

وارتجفت ذقن ميزى ، وسقطت من عينيها دمعتان ، لكنها ابتسمت ، وأومأت بقوة .

وقالت لياه لاجزوما : « حسن يا اجزوما يا قادما من الشمال » ..
وكان صوتها لطيفا يتسم بالمزاح « حسن .. المصائب لا تأتي
فرادى .. هيه ؟ » .

فقال اجزوما : « سأتى معك » .

وهزت لياه رأسها « لا يا اجزوما . أنا ذاهبة وحدى .. أريد أن
أذهب وحدى . يؤسفنى أن كل الأشياء وقعت معا .. بدأت بدادى ،
ثم باليزا والآن هذا . هكذا الحياة دوما ، سوف أشعر بالقلق عليك
لأنك بالنسبة لى ابن كبير ، والابن دائما عزيز على قلب الأم ..
هيه ؟ » .

ومدت إليه يدها .. يد قوية قادرة . وسلم عليها اجزوما فشعر
بقوة قبضتها .

وعادت الأم بلانك بشال من غرفة لياه وألقته على كتفها .
والتفت لياه إلى الشرطى وقد ارتفع حاجبها الأيسر وارتسمت على
جانب وجهها الابتسامة الساخرة : « أنا مستعدة يا ثعلب » .

وتنحى الثعلب جانبا ، فمرت لياه أمامه .

وهمس الثعلب : « أنا آسف » .

فقال لياه : « إنك أحمق » ، وضحكت باستخفاف ، وكأن
رأسها ملقى إلى وراء ، وكتفها معتدلتان ، ومشيت فى قوة تتسم

بالاطمئنان والثقة . إنها لياه . . لياه القوية .

وراقبها الآخرون إلى أن دار الموكب حول المنعطف واختفى عن
الأنظار .

وبعد وقت طويل من انصرافهم ، كان اجزوما لا يزال يرى بسمه
لياه الساخرة على شفيتها ، ويسمع الضحكة المستخفة التي كانت آخر
صوت سمعه منها . لقد رحلت اليزا . . ولا وجود الآن للياه .

ضوء النهار يعقب ظلام الليل ، وظلام الليل يعقب ضوء النهار .
أما الأيام ، فقد راحت تمضى وتكر على هذا المنوال ، وفقد الزمن
معناه ، وكل شيء كان وهما . وفيما وراء ذلك الوهم . . كانت
السما ، وكانت الأرض ، وكان الناس . . وكان تناول الطعام
والعمل والنوم واحتساء الشراب . والناس هم الناس أنفسهم . .
يتعاركون ويتقاتلون ويضحكون ويحبون . ويبدو الأمر وكأن الدنيا
لا تأبه بالناس ، والناس لا يأبهون بها بالمثل . وهذه الأرض الضخمة
التي قيل أنها مستديرة كالكرة ، ظلت ماضية في مسارها . رحلت
إليزا ، وهي لا تزال تدور ، ومات دادى وهي لا تزال تدور ،
ودخلت ليلاه السجن ، وهي لا تزال تدور . كيف يحدث هذا ؟
ولماذا يحدث ؟ . ومن ذلك الذى يعنى بالناس ويهتم بهم ؟ .

وتوقف اجزوما وأشعل سيجارة ، وطوح بعود الثقاب وتطلع إلى
القمر ، وكان القمر مستديرا وكبيرا ويمضى مسرعا تجاه الغرب . ولم
يكن الصبح يبعيد . وكان قد غادر المناجم لتوه ، وحاول أن يفكر فى
عمله ، لكن عقله كان مشدودا إلى ليلاه . لقد ذهب إلى المحكمة
عندما نظرت قضيتها ، وكانت تقف فى مقصورة صغيرة وضع فيها
كل المساجين ، وابتسمت له ، وكانت عيناها وديعتين ودودتين ، ثم
قال لها الرجل الأبيض أنها لابد أن تسجن تسعة شهور . ووضعوا
صورتها فى صحيفة الرجل الأبيض . وخارج المحكمة راح شاب

يحكي لكل واحد أن الرجل الأبيض يبيع الجعة وغيرها من مشروبات
ولا يذهب إلى السجن . وقال إن السبيل الوحيد لمنع الحانات المحرمة
هو فتح مشارب للسود .

لم يكون الأمر خطأ فيما لو باعت لياه جعة ، ويكون صوابا فيما
لو قام الأبيض بذلك ؟ .

منذ ليل ذلك السبت ، حين هبطت لياه الشارع يحيط بها رجال
الشرطة ، فقد اجزوما كل ما لديه من إحساس . . الإحساس الوحيد
الذي بقي كان هو التعب . . التعب وكثير من الأسئلة التي كانت
مصدر توتر لعقله ، لأنه لم يكن قادرا على أن يجد لها إجابات .
والنوم أيضا كان عسيرا ، لأن تعب جسده كان عليه أن يقاوم قلق
عقله . لقد بدا الأمر وكأن اجزوما الحقيقي مات ولم يبق سوى قوقعة
فارغة . وكان ثمة إحساس ، ولكنه كان وكأنه إحساس رجل غريب
لأنه لم يكن يؤلم . وهو لم يعد يشعر بالألم ، ولم يعد في حلقه
غصة ، ولم يكن قلبه يدق في عنف ، وكان بإمكانه أن يتشم في
يسر . وكان يقوم بكل الأشياء العادية التي تعلم أن يقوم بها منذ أن
جاء إلى المدينة . لقد بدا كل شيء تماما كما كان من قبل . لكن
ترأى له كما لو أن شخصا آخر هو الذي يطل عليها ويقوم بأدائها
ويفكر فيها . لقد ضاع شيء ما . شيء كان موجودا طوال الوقت
داخل نفسه وهو الآن غير موجود .

وكانت الأم بلانك وميزي تهيئان إلى غرفته ليقتضيا له بعض
حاجاته ، ويحاولان التسرية عنه ، لكنه لم يكن بحاجة إلى تسرية .

لم يكن تعسا . كانت المسألة فحسب أنه يشق عليه مجرد الكلام مع الأم بلانك أو مع ميزى ، لكنهما لم يفهما ذلك . كل مدار برأسهما أنه تعيس . وكان يتمنى ألا يجيئا إلى غرفته ، ولكن لو أنه طلب ذلك منهما لتسبب فى كثير من المشكلات ، ولهذا تغاضى عن ذلك ، فكائتا تجيئان إليه ، وكائتا تحاولان الحديث معه ، بيد أنه لم يكن ثمة شىء يمكن أن يقال ، ثم توقفتا عن المجيء بعد فترة من الوقت . وفى آخر مرة كانت فيها ميزى عنده فى غرفته وقفت بالباب وقالت له : « حين تريدنى تعال إلى فى مكان عملى ، والأم بلانك موجودة معى ، ولسوف نسعد لرؤيتك » ثم مضت . وكان ذلك منذ أيام كثيرة

وامتص اجزوما دخان سيجارته وراح يراقب سرعة القمر . ثم ركل كتلة من التراب وجلس على الأرض .

غريب أن تغير كل شىء دون وجود لياه ، فالنهار يكر نحو الليل ، والليل يكر نحو النهار . وتمضى الأيام كلها رتيبة ومنغصة بصورة مفزعة . وكان يحس وكأنه غريب فى مكان غريب . وفكر فى الليلة التى ذهب فيها إلى البيت الذى كان يوماً ما بيت لياه . لقد ترك غرفته وراح يمشى على مهل . وكان الناس يحبونه لأنه أصبح من مواطنى مالاي كامب ، وبان ذلك فى عيونهم . وكان يعلم أنهم يعرفون أمر اليزا ، لأنه من العادات الغريبة ألا يدرى أحد أن أهالى فريديدورب ومالاي كامب لابد وأن يعرفوا كل شىء عن كل واحد آخر . فعندما كان يمر بهم فى بعض الأايين يقول واحد لآخر :

« هذا اجزوما الذى يعمل فى المناجم ، هجرته خليلته . ولياه القوية التى أحبها كما يحب طفل أمه ملقاة فى السجن . وكل هذا وقع فى وقت واحد » .

لقد حدث ذلك فى تلك الليلة التى كان فيها يتمشى فى نهاية الشارع متمهلا . لقد انعطف يسارا ثم يمينا ثم يسارا مرة أخرى . وكان الناس حوله فى كل مكان . ثم تحول متمهلا صاعدا الطريق إلى حيث كانت تسكن لياه . وكان الشارع هو نفس الشارع ، والبيوت هى نفس البيوت . . كل شىء كان كما هو . ثم شاهد البيت ، نفس البيت . وكاد أن يرى الأم بلانك واقفة بالبوابة ، ولياه تميل بجسدها تطل على الشرفة ، ودادى مخمورا فى الشارع . وكاد أن يرى اليزا واقفة بجوار لياه تبسم ، بحيث بانت غمازاتها ولمعت أسنانها البيضاء الجميلة . كاد يسمع ضحكة ميزى التى تتسم بالبهجة ، ويرى لنا الضئيلة النحيلة وهى ترهق جوهانز الضخم المغمور . وفجأة تلاشى الوهم ؛ فقد خرجت امرأة إلى الشرفة ووقفت فيها ، كانت قصيرة وبدينة ، بل تكاد تكون مستديرة . لم تكن طويلة قوية ومتينة البنيان كلياها . وانضم إليها رجل به عرج بسيط ، فما كان منه إلا أن أشاح بوجهه سريعا وابتعد . آله أن يرى البيت الذى كان يوما بيت لياه صار بيتا لغرباء . غرباء يعيشون فيه ويضحكون وينامون ويتحدثون . كان شيئا مؤلما لأن البيت كان يعنى له الشىء الكثير . فهو أول بيت بات فيه حين قدم إلى المدينة . وأول بيت كون فيه أصدقاء ، وهو البيت الذى عثر فيه على اليزا ، والتى فيه ، ولدت ، والذى عاش فيه دادى

والأم بلانك مع لياه . . لقد كان بيت لياه .

وابتسم اجزوما فى مرارة والتقط حفنة من رمل . وكان القمر
يرتحل سريعا والنجوم تذوى . . إنه يوم يسرع فى الرحيل .

وسمع وقع حذاء طويل الساق بنعله مسامير فوق أرض مفروشة
بالحصى ، فرقع بصره ، وإذا برجل قادم نحوه . وكان رجلا ضخما ،
لكنه كان شديد البعد ، فلم يتمكن من رؤيته بوضوح ، وراقب
اجزوما وانتظر ، وحين دنا الرجل أدرك أنه الأحمر .

وصاح بادی : « أنت هنا يازوما ! » .

ورد اجزوما وانتظر . . وصعد بادی وارتمى بجواره على الأرض .
وأخرج علبة سجائر ناولها لاجزوما بعد أن أخذ منها واحدة . وأشعل
كل منهما سيجارته . ونظر اجزوما إلى الرجل الأبيض فى انتظار أن
يبدأ الحديث . غير أن بادی بقى صامتا يتطلع إلى السماء ويشاهد
القمر . وأخيرا سأله اجزوما :

- ما هى الحكاية ؟ .

فقال بادی : « من الصعب أن أتكلم . ذلك أنه حين يصاب
إنسان بعلة فى بدنه تقول « بهذا الرجل هذه العلة » وتقول له اذهب
إلى الطبيب ، وسيعطيك الطبيب دواء ويقول لك « خذ هذا عدة مرات
فى اليوم ، ولسوف تتحسن » « هيه ؟ » .

- تمام .

- حسن . . هذا وضع ، لكن يوجد الآن وضع آخر ، وربما

استطعت أن تخمنه . فلو أن إنسانا أصابه اعتلال فى التفكير ، فماذا عليه أن يفعل ؟ . إنه لا يستطيع الذهاب إلى طبيب .

فقال اجزوما وهو يتطلع إلى القمر : « عليه أن يتحملة » .

- ليست هذه هى الحكمة التى علمك إياها أسلافك .

- كان ذلك قبل مجيء الرجل الأبيض ؟ .

- والآن وبعد أن جاء الرجل الأبيض ؟ .

- لا يوجد ما يمكن عمله .

- ولا حتى يكافح ؟ .

- كيف يمكنك مكافحة المدافع وأنت صفر اليدين ؟ .

- أسأت فهمى يازوما ، إنه ليس ذلك النوع من الكفاح ، يوجد

سبيل آخر .

- فما هو ؟ .

- عليك بالبحث عنه يازوما . ويجب أن يتولد من مشاعرك ومن

آلامك ، لقد عثر عليه آخرون ، وأنت أيضا تستطيع . ولكن عليك

أولاً أن تفكر وألا تخشى أفكارك . وإذا ما كان لديك استفسارات

وتلفت حولك ، فستجد من يرد على استفساراتك . ولكن عليك

أولاً أن تعرف ما الذى ستكافحه ولماذا وماذا تريد .

- لماذا تتكلم معى على هذا النحو أيها الرجل الأبيض ؟ .

- لأننى أولاً إنسان مثلك يازوما ، ورجل أبيض بعد ذلك .
ولقد أدركت علة عقلك ، فأنا أعمل معك كل يوم ، وقد لاحظت
علتك وفهمتها .

وأدار اجزوما بصره تجاه بادی وحدق فيه : « أنت تقول إنك
فاهم أيها الرجل الأبيض » .
وأوما بادی برأسه .

- وتقول إننى يجب أن أتحدث عما فى قلبى ؟ .

. وأوما بادی ثانية . فأشاح اجزوما عنه بوجهه وصمت . وانتظر
بادی ، وكان القمر بعيدا ناحية الغرب ، والنجوم تشاهد بصعوبة .
وبدا الرجلان الأسود والأبيض وكأنهما رجلان وحيدان فى العالم .
ليس من حولهما دلالة أخرى من دلالات الحياة . وعلى مسافة بعيدة
كانا يستطيعان رؤية كثران المنجم ترتفع نحو السماء ، وفى الناحية
المقابلة كانا يريان بنايات جوهانسبرج العالية ، وساد السكون هواء
الصباح المعتدل ، وبدا العالم وكأنه يحبس أنفاسه .

وقال اجزوما : « تقول إنك فاهم ، ولكن كيف يتأتى لك ذلك
وأنت رجل أبيض ؟ . إنك لا تحمل جواز مرور ، ولا تعرف كيف
يشعر المرء حين يستوقفه شرطى فى الشارع . أنت تذهب إلى أى
مكان تشاء ، ولا تدري كيف يكون شعور المرء حين يقال له :
« ابتعد ! للبيض فقط » . هل هجرتك خليلتك لأنها مجنونة بالرغبة
فى نفس الأشياء التى يمتلكها الرجل الأبيض ؟ . هل عرفت لياه ؟
هل أحبتها ؟ . هل تعرف مدى شعور المرء حين يراها ذاهبة لتسجن
تسعة شهور ؟ . هل عرفت بيت لياه ؟ . هل دخلت بك إليه فى

منتصف الليل ؟ » . وهنا علا صوته : « هل تحدثت لياہ إليك
وضحكت معك ضحكتها الساخرة التى ترتسم على ناحية من وجهها
؟ . تقول إنك فاهم .. هل تحس بهذه الأمور كما أحسها أنا ؟ .
كيف يمكنك أن تعى أيها الرجل الأبيض ؟ . أنت تعى بعقلك ، وأنا
أعنى عن طريق الألم ، الألم الذى يحمله قلبى . وهذا هو الوعى ،
وعى القلب وألم الوعى ، وليس الرأس والشفاه فقط . إننى أحس
بأشياء ! . وأنت تريدنى أن أكون صديقا لك ، فكيف يتم ذلك
وقومك يفعلون هذا بقومى ؟ . » ونهض اجزوما واقفا .

- ما تقوله صحيح يازوما ، هذه الزمور لم تقع لى ، ولهذا أنا
لا أحسها . ولكن أجبنى عن هذا .. هل تظن أن الأسود يمكنه أن
يحس بهذه الأمور إن لم تحدث له ؟ هل كان لدى جوهانز نفس
المشاعر تجاه لياہ وتجاه اليزا ؟ . إنه لم يحب اليزا ، وربما يشعر
بالأسى لك لأنك صديقه . ولكن هل يشعر باليزا كما شعرت أنت
بها ؟ . أجبنى .

- جوهانز أسود مثلى ، وهو يعلم أن اليزا هجرتنى بسبب الرجل
الأبيض ، وهو يعلم أن لياہ فى السجن بسبب ذلك ، وحين يكون
مفيا يمتلى قلبه بتعاسة شديدة لأنه حينئذ يعى كل هذه الأمور .

- بقلبى دائما تعاسة شديدة .

- ولكنك أبيض .

- إننى إنسان أولا ، وأريدك أن تكون إنسانا أولا قبل أن تكون
أسود .

- إننى أسود ، وقومى سود ، وأنا أحبهم .

- هذا شىء طيب .. شىء طيب أن يحب المرء قومه وألا يشعر بالخزى مما هم عليه . ولكن ليس من الصالح أن تفكر فقط كرجل أسود أو كرجل أبيض . الأبيض فى هذا البلد يفكرون فقط كأناس بيض ، وهذا هو السبب فى هذه الإساءة التى يرتكبونها فى حق قومك .

- إذن يجب أن أفكر تفكير رجل أسود .

- كلا . يجب أن تفكر بوصفك إنسانا أولا ، يجب أن تكون إنسانا فى المقام الأول ثم رجلا أسود بعد ذلك ، ولو تم ذلك فستفهم كرجل أسود وأيضا كرجل أبيض . هذا هو النهج السليم ياروما .
و حين تدرك ذلك ، سوف تكون إنسانا تشيع الحرية فى نفسك .
وهؤلاء الذين تتحرر نفوسهم هم وحدهم القادرون على تحرير من حولهم .

وهز اجزوما رأسه وحقق بعيدا تجاه الشرق . وكانت أولى أشعة شمس الصباح تنعكس على صفحة السماد .. خطوطاً ساطعة من ورائها زرقة .. لقد قال الحقيقة للرجل الأبيض ، وتوقع أن يغضب منه ، بل إنه ظن أن الرجل إنسانا صالحا وكان شفوفا . ونظر إليه اجزوما وقال :

- أنت شفوفا يا أحمر ، وهذا شىء جميل . ولو أن كثيرا من الناس ليسوا كذلك . ولهذا فإنه من الخير أن نجد أناسا يشعرون بالشفقة علينا . وإن لم تكن الشفقة هى ما أعنيها .

فقال بادی ورنه غضب فى صوته : « ليست الشفقة هى ما
أعرضها . لقد ظننت أنك تريد أن تفهم أشياء . ربما كنت مخطئا ،
وربما كان من الواجب أن أكون قد ذهبت إلى فراشى . وربما تكون
على قدر كبير من البلاهة بحيث تخشى أن تفكر ! » ثم وثب واقفا
ومضى .

وشاهده اجزوما وهو يغادر . ومست شفتيه ظلال ابتسامة وصباح
قائلا : « نوما هنيئا بأحمر » . وكان فى صوته ود ، وراح يرقبه إلى
أن اعتلى قمة تل صغير واختفى عن البصر . عندئذ استدار اجزوما
وسار فى اتجاه ملای كامب .

وذكره غضب الرجل الأحمر بلياه . لقد كانت تحادثه بمثل هذا
النوع من الغضب ، وكان أمرا غريبا أن يحدث نفس الشيء من
شخص أبيض كذلك . وأخذ يفكر فى كلام بادی ، يقلب فيه
الأمر ، يمحسه . لكى تكون إنسانا فى المقام الأول ، فكر أولا
كإنسان أسود . كيف يمكن أن يتأتى ذلك ؟ . إنه سوف يعنى أن
الناس يكونون بلا لون . ولكن الناس ليسوا بلا لون ؟ . ولكنها
فكرة لطيفة . . أجل . . لطيفة جدا . لا أبيض ولا أسود . . ناس
وحسب . ياسلام ! لو كان الأمر كذلك لاستطاع حيثئذ أن يذهب إلى
أى مكان ولن يعترض سبيله أحد من أجل جوار المرور ، ولظلت اليزا
معه . ولو كان الأمر كذلك لحصل على نفس النقود التى يحصل
عليها الرجل الأحمر ، ولسوف يركب نفس الأتوبيسات التى يركبها
البيض . هى الواقع هى فكرة لطيفة ! ولو كان الأمر كذلك فلسوف
يشعر بإنسانيته . . مثلما يشعر الإنسان . . هذا ما قاله الرجل
الأحمر ! كإنسان ! . ليس إنسانا أسود وليس إنسانا أبيض . . مجرد
إنسان ، ولن تكون لياه فى السجن ! .

لو كان الأمر كذلك لكان الآن فى طريقه إلى مكان لياه - لا ، سيكونون نائمين . لا ، ليس إلى مكان لياه ، بل إلى غرفته لينام إلى أن تصل اليزا من المدرسة ، وسوف تكون فى وسط الغرفة نيران وشواء لحم .. ثم يذهبان فيما بعد إلى مكان لياه .. لو كان الأمر كذلك لكانت اليزا معه ولكانت سعيدة دون ذلك الجنون .. فقط لو كان الأمر كذلك ..

ومشى خلال الشوارع الخالية يملأ الطنين رأسه ، والصور تتسلل إلى ذهنه ، صورة وراء صورة . وأحس أنه خال من الهموم ، حر ، مبتهج . الناس هم الناس ، لايض ولاسود ، مجرد أناس ، أناس عاديين ، ويستطيع الواحد أن يفهم الشخص الأبيض وكذلك الشخص الأسود ، ويأسى للأبيض كما يأسى للأسود . وتوارى استيائه الذى يكنه ضد كل البيض ، فلا يوجد أناس بيض .. وإنما أناس فقط .

وحمله التخيل بعيدا ، فقد رأى نفسه واليزا وبادى وخليلته جالسين جميعا إلى منضدة صغيرة فى أحد مشارب الشاى الصغيرة تلك فى قلب جوهانسبرج ، يحتسون الشاى ويضحكون ويسمرون ، ومن حولهم أناس آخرون كلهم سعداء وبلا لون . وقد ساد ذلك فى كل مكان فى البلد .. وفى المزارع كان الأمر كذلك ... الناس يعملون جنبا إلى جنب ، والتربة بهيجة وغنية وتنتج محصولا وفيرا ، وثمة طعام لكل فرد وعمل لكل إنسان ، وغناء وقت العمل وضحك كثير . والمدن أيضا يسرى فيها ذلك ، الناس يعملون ، يأكلون ،

سعداء . وآه من الضحك ! إنه يكون أشبه بموجة ضخمة تعم البلاد ،
وقد التمعت معه كل عيون الناس وهم يعملون تحت أشعة الشمس ..
وكان فى الشمس سطوع جديد .

ووصل اجزوما إلى غرفته وخلع ملابسه دون أن يلتفت إلى شيء
.. لقد كان قبل كل شيء إنسانا . إنسانا متفردا ، قويا ، حرا ،
سعيدا ، بلا لون . إنسانا مفعما بالحياة ، شامخا أبيا إنسان بكل
عظمته . وكانت البلد بلدا طيبا ، وكان العالم عالما جميلا .. مغمورا
بالضحك مليئا بالود ، زائرا بالطعام موفورا بالسعادة .. إنه العالم
الجميل ...

واستسلم اجزوما لنوم هائئ ..

ليت الأمر كان كذلك .

كان الليل يغمر جوهانسبرج حين استيقظ اجزوما . وكانت غرفته غارقة فى الظلام . وتقلب على ظهره ومد يده إلى الثقباب ليوقد شمعته . ثم عدل عن رأيه ورد يده إلى موضعها ، ورقد ساكنا فى الظلام ، وشعر بخواء معدته ، واضطراب نبضات قلبه ، وبدت دقات قلبه عالية ومزعجة ، وتذكر حديثه مع الأحمر ، وتذكر الحلم الجميل الذى أسلمه إلى النوم . . . حلم الإنسان الذى يعيش بلا لون ، والضحك فى كل مكان . كل ذلك كان جميلا جدا وطيبا . . . ولكن أيمكن أن يتأتى ؟ . كلا ، لا يمكن . كيف يمكن أن يتحقق ذلك ؟ ولكنه سؤال لا إجابة عنه . الرجل الأبيض لن يسمح به ولهذا لا توجد إجابة .

وبدأ رد الفعل . لقد شعر أنه وحيد وممرور وتعيس ، وأن العالم مكان مظلم ، بل أشد ظلاما مما كان عليه من قبل . لقد كان فيما سبق تعيسا ووحيدا ، ولكن ليس على هذه الصورة . كانت تعاسته من قبل مجرد إحساس . وقد دار الحلم برأسه منذ ذلك الحين . . . حلم الإنسان الذى يعيش بلا لون . الآن لديه شيء ما مضاد يثير ألمه وتعاسته بل ويضخمها . شيء كان أكبر بكثير من قدرته على الاحتمال ، وقد ضغط عليه ، فثارت فى صدره موجات من ألم وكراهية ، واتقدت عيناه . أجل ! لقد كره كل البيض وأبغض الرجل الأحمر . فلو لم يتحدث معه الأحمر لما كان هذا حاله الآن . لكن

البغض لم يخفف من شدة الضغط على رأسه . بل إنه زاد الأمر سوءا ! وكان يتغنى شيئا يخلصه من هذا الضغط حتى يعود إليه إحساسه الذى كان يملكه قبل أن يتكلم معه الأحمر . . أن يعود مجرد إنسان خالى الوفاض ، ودون هذه الأحاسيس بالغة الشدة ، بل أن ذلك كان أفضل من الشعور الذى يتأبى الآن . أواه ! كم هو يبغض الرجل الأحمر ! .

ثم عصف به الجوع ، فأشعل عود ثقاب وأوقد الشمعة ونهض وارتدى ملابسه . وكان بالغرفة خبز لكنه لم يكن طازجا ، وكان بها جريش ذرة ولحم نيئ لكنه لم يكن يريد أن يطهو . فغسل وجهه وخرج متويا الذهاب إلى مطعم رخيص بشارع مجاور . فى هذا المطعم يطهون الذباب أحيانا مع اللحم ، بيد أنه لم يمت أحد بعد تناول لحومهم . ثم أن المطعم بجانب ذلك حار وسيكون به أناس كثيرون . ومشى يهبط الشارع .

الناس حواله يتنقلون من مكان إلى مكان ، جماهير متدفقة تموج بالحركة . هكذا الحال دوما . . قد يرحل شخص بعيدا كما رحلت اليزا ، أو قد يموت شخص كما مات دادى ، وقد يلقي بآخر إلى السجن مثلما ألقى بلياه ، ولكن جماهير الناس دائما باقية . . نفس جماهير الناس المغمورين ، الذين يتنقلون ويمارسون الحياة ويضحكون ويتقاتلون . لقد مات أناس ، ورحل أناس وسجن أناس . . فرد واحد . . ربما ، أو مائة . . ربما . . ولكنهم كانوا أفرادا وليسوا جماهير الناس ، فالجماهير قد لا تبنى أبدا ، وربما كانت هى نفس

الجماهير التى وجدت منذ بداية الزمن . ربما لا تفى الجماهير أبدا .
وربما توجد فى كل مكان فى العالم جماهير كهذه الجماهير ، وعلى
الجانب الآخر من البحر كذلك . فالجماهير دائما تستمر وتقوم
وتواصل المسيرة . ويحدث نفس هذا الشيء فى كل مكان .
والبيض ؟ . لماذا يجد نفسه يفكر فى البيض ؟ . قد يكونون هم نفس
الشيء أيضا . نعم ، ربما يكونون كذلك .

ودخل اجزوما المطعم الرخيص ، وكان حافلا بالناس ، وتلفت
هنا وهناك ، فرأى مكانا ظن أنه يستطيع أن ينحشر فيه بعيدا عند
الركن ، فراح إليه ، واحتك حذاؤه بنشارة الخشب المفروشة على
الأرضية ، وكانت رائحة اللحم الرديء تملأ جو المكان ، واختلطت
جلبة الأصوات العالية بالطنين الأعلى لذباب اللحم السمين .

وحشر اجزوما نفسه فى موضع ، وصاح يطلب الطعام . وجاءه
رجل مسن فى ثياب قدرة مهلهلة وألقى على المنضدة القدرة طبق لحم
يعوم فى صلصة مرقة ، وقطعة كبيرة من خبز . ومد الرجل العجوز
يدا ملوثة بالدهن ، فألقى فيها اجزوما شلنا .

وفى أثناء تناوله الطعام راح يعقد مقارنة بين هذا المكان وبين
الأمكنة التى يؤمها البيض . البيض ليسوا مضطرين إلى التزاحم فى
المكان الذى يذهبون إليه والجلوس فوق بعضهم البعض . لديهم
حجرات أوسع ، وليس مجرد حجرة صغيرة . لديهم مطاعم أنيقة فى
كل شارع فى المدينة على وجه التقريب .

ومرة أخرى راح يفكر فى العالم الجميل الذى يكون فيه الإنسان بلا لون . لو كان الأمر كذلك ، إذن لاستطاع كل الناس أن يأكلوا فى أماكن نظيفة أنيقة . . أماكن بلا ذباب يحوم حولك طوال الوقت .

وفجأة أحس اجزوما بالوحدة ، وأراد أن يتحدث عنها مع إنسان ما . إنسان قادر على أن يفهمه ، ربما يكون هنا شخص ما . ونظر إلى الرجل الجالس بجواره ، وبدأ الرجل لا بأس به ، كل ما فى الأمر أن فمه محشو بالطعام ، وبدأ الغضب فى عينيه . وهو يحاول هش الذباب .

وقال اجزوما : « للرجل الأبيض أماكن جيدة لتناول الطعام » لكن الضجيج غطى على صوته .

والتفت الرجل إلى اجزوما : « ماذا ؟ » .

فقال اجزوما : « أماكن جيدة لتناول الطعام ! » .

فصاح الرجل : « ذباب كثير للغاية » .

وتنهذ اجزوما . . أراد أن يتكلم مع إنسان ما فى مكان هادئ . مع شخص يمكنه أن يفهم يقول . . فنهض واقفا .

وسأله الرجل : « ذاهب ؟ » .

فأوما اجزوما برأسه وانصرف .

وفى الخارج وقف يراقب جمهور الناس برهة من الزمن ، وكانت رغبته فى أن يكون فى صحبة أحد مازالت قوية ، سيكون شعوره

أفضل لو استطاع أن يتحدث مع شخص ما عما يدور برأسه . ربما يريحه مجرد التعبير عن أفكاره بوضع كلمات يستمع إليها شخص ما . وكانت ميزى هى الإنسانية التى يود الحديث إليها . ألم يشعر دائما بالطمأنينة حين يكون معها ؟ . نعم ، نعم يجب أن يذهب إليها ويتحدث معها . وساءل نفسه عما راحت تفعله منذ آخر مرة رآها . ربما اتخذت لها صديقا جديدا . لم يكن يدرى سبباً لذلك ، ولكنه كان يحس أنه خطأ ، وأنه لن يكون سعيدا جدا لو حدث ذلك .

وانطلق إلى مكان عمل ميزى . وكلما دنا من المكان اشتد إحساسه بأن لها صديقا جديدا وازداد معه إدراكه أيضا بأن ذلك خطأ ، وكانت خطواته وهو يسير تقول : « سيكون ذلك خطأ . . . سيكون ذلك خطأ . . . سيكون ذلك خطأ » . وتكرر العبارة إلى أن راحت الفكرة تطن فى رأسه . وكان همه بأنه لا ينبغى لذلك الأمر أن يتم ، يزداد حثيثا .

هو الآن أوشك أن يكون هناك ، وسيطيب له أن يرى ميزى وكذلك الأم بلانك . فهل ستسر ميزى لرؤياه ؟ . سرورا حقيقيا ؟ . لم تكن ملابسه نظيفة نظافة تامة . لكن لعلها لا ترغب فى رؤيته . وربما لا تكون موجودة هناك . وبأصابعه تفض الغبار عن طيات صدر سترته ، ودس طرف قميصه تحت حزامه بطريقة أكثر إحكاما ، ونظر إلى حذائه فى تبرم . وحين وصل إلى بوابة المكان الذى تعمل فيه ميزى تملكته رجفة مع لهفة ، ونظر إلى البوابة ولحق شفثيه . يجب ألا يظهر قلقه . لابد أن يكون هادئا ، فهذا ما يليق برجولته . وعليه

أن يخبر ميسى أنه ما قام بهذه الزيارة إلا ليتكلم معها فقط فى شىء يقلقه كثيرا . ولكن كيف يتأتى له أن يحكى لها عن أن يكون إنسانا بلا لون ؟ . وحاول جاهدا أن يفكر فى هذا الأمر ولكن تفكيره لم يسعفه بالكلمات التى كانت معدة على طرف لسانه اختفت ، ولم يعد لها وجود بعد ، فما كان منه إلا أن استدار وعاد أدراجه إلى مالاى كامب . إنه لم يكن ليستطيع أن يتكلم مع ميسى ، وربما كانت ميسى نفسها لا توده أن يتكلم معها . وربما لم تكن لتفهمه .

لقد أحسن صنعا بعدم ذهابه إليها ، ولسوف يعود إلى غرفته ويبدل ملابسه بملابس العمل ويستلقى على فراشه ويفكر إلى أن يحين وقت عودته إلى العمل . . .

حين وصل اجزوما إلى المناجم كان هناك اضطراب فى كل مكان . فقد اشتعل فى كل مكان عدد وافر من الأضواء ، وحيته أصوات مرتبكة . وانطلقت صفارات ، وتحركت جماعات صغيرة من الرجال هنا وهناك . فشق اجزوما طريقه بين الرجال ورأى بعضا منهم ممن يتبعون مجموعة جوهانز . وبعيدا وفى طليعة الناس رأى الرجل الأحمر . لابد وأن حادثا وقع . وأمسك برجل قريب منه وهزه .
- ما الحكاية ؟ .

فقال الرجل : « وقع حادث » .

- أين جوهانز ؟ .

- لا أدري .

فقال رجل آخر : « جوهانز تحت » .

وشق اجزوما طريقه حتى وقف بجانب بادی ، فأمسك بادی بيده .

- جوهانز وكريس تحت ، وأنا سأهبط .

فقال اجزوما : « سأهبط معك » .

فقال رجل أبيض آخر : « خطر » .

وقال المدير : « انتظروا المهندسين قبل أن تهبطا » .

فقال بادی : « ثمة رجلان تحت » وتحرك تجاه المصعد الصغير يتبعه اجزوما ودخلاه ، فانطلق هابطا إلى أسفل .

ووصلت سيارة إسعاف ووقف بجوارها رجال يحملون نقالات . ووقف طبيبان يترقبان ، وخيم صمت على حشد الرجال المنتظرين ، وظل مدير المنجم يتطلع إلى ساعته ، وكان الوقت يزحف بطيئا . خمس دقائق .. عشر .. خمس عشرة .. عشرون دقيقة .

ثم سمعوا المصعد يعلو قادما . وساد صمت مطبق حين خطا اجزوما خارج المصعد يحمل جثمان جوهانز ، يليه بادی ومعه جثمان كريس . وفحص الطبيبان كريس وجوهانز .. وكانا قد فارقا الحياة .

وصرخ واحد من عمال المنجم : « لقد حالا بجسديهما دون انهيار المكان حتى نتمكن من الخروج » ثم راح ينشج بالبكاء . لكن أحدا لم يلتفت إليه .

ووضع الجسدان كلاهما فى سيارة الإسعاف فانطلقت بهما .
وخف التوتر الذى يسود الجو . . وهبط مهندسان إلى المنجم لفحص
التلف . وطبق الصمت على الحشد المنتظر من الرجال . .

ومرة أخرى كان الوقت يزحف بطيئاً . وقدم بادی سيجارة إلى
اجزوما . ثم صعد المهندس .

وقال المدير : « خيراً ؟ » .

فقال أحد المهندسين : « كان انهيار بسيطاً ، وهو الآن على
مايرام . دلفت العوارض بشدة ، وهوت عند موضع واحد . لقد
انهارت . ليس ثمة شىء خطير . . ولو حمى هذا الشخصان رأسيهما
وبقياً حيث كانا بدلاً من ذعرهما ومحاولتهما الإبقاء على المكان
مفتوحاً بجسديهما لكان كل شىء على مايرام ، وعلى أية حال المكان
الآن لا بأس به بالنسبة للعمل ، مجرد قدر قليل من الترتيب ووضع
دعامات جديدة . ويمكن للنوبة الجديدة أن تقوم بذلك » .

ونظر المدير إلى المهندس الثانى الذى أوماً موافقاً وقال : « لقد
فقدنا حياتهما بسبب الرعب » .

فأمسك بادی بتلابيب الرجل ، وبلكمة أسقطه على الأرض
وقال : « لقد كانا يسهران على رجالهما . ونحن حذرناك من هذا
الامر منذ فترة طويلة » .

وحجز الناس بين بادی والمهندس الذى هوى على الأرض .

وصاح المدير : « حسن ! حسن ! المنجم على مايرام . نوبة الليل .. استعدوا للهبوط ! » .

فصاح اجزوما : « لا ! لا ! » .

فصرخ المدير : « استعدوا ! » .

فصاح اجزوما : « دعهم يرممون المكان أولا .. لقد نبهناهم إليه ، فقالوا إنه على ما يرام . والآن مات رجلان ! رجلان من خيرة الرجال ! دعهم يرممونه أولا ، ثم نهبط بعد ذلك » .

ونظر المدير إلى اجزوما ثم إلى بقية عمال المنجم وصرخ ثانية « استعدوا ! » .

وصاح صوت : « كلا . رعه أولا ! » .

وشعر اجزوما فجأة بالارتياح . شعر بالقوة والحرية . شعر أنه إنسان .

وصاح : « نحن بشر . لا يهم أن يكون لون جلودنا أسود ! لسنا قطيعا نبدد أرواحنا هباء ! نحن بشر » .

فقال المدير صائحا : « هذا إضراب » وأشار إلى اجزوما وصرخ : « سوف تذهب إلى السجن ! » .

لقد استدعيت رجال الشرطة ! وسيكونون هنا حالا » .

وضاح أحد الرجال : « لن نهبط يا اجزوما ولو طلبت أنت ذلك » .

وأحس اجزوما أنه أقوى من أى وقت مضى . . أحس أنه قوى

بدرجة تؤهل لأن يكون إنسانا بلا لون . وقد أدرك الآن فجأة أن ذلك يمكن أن يتحقق . يمكن للإنسان أن يكون بلا لون .

وقال فى صوت صارخ : « رمم المكان ونحن نهبط . . شيدده بطريقة سليمة . . جوهانز كان صديقى ! كان صديقنا ! وقد مات الآن . . فشيده المكان ! » .

فصاح المدير وقد خطا ناحية اليسار : « غير المضربين يأتون إلى هذا الجانب ! » . فتحرك إلى اليسار كل من رجال الاندونا والبيض ، ولم يبق سوى بادی فى المكان الذى كان يقف فيه .

وبذلك كان اجزوما وعمال المنجم يقفون يمينا ، وفى اليسار كان المدير والاندونا والآخرى من البيض ، بينما كان بادی فى الوسط . ونادى المدير : « أوشيا ! » .

وبدا أن بادی لم يسمعه ، فصاح رجل أبيض :

- تعال يا بادی ! شىء لطيف جدا أن تلهو معهم أحيانا ، ولكن يجب أن نقود هؤلاء الكافرين إلى المكان الذى يتمون إليه . تعال يا بادی ! » .

وفكر بادی . . هذا ما كنت أحاج فيه دى . . وهذا اختبار لكل معتقداتى التى كنت أتشدد بها .

ولقد تولى روما القيادة ويجب أن أشايعه . كان رأى دى فيه خاطئا ، فهو إنسان .

واستطاعوا أن يسمعوا عن بعد سارينات سيارات الشرطة .
وسرعان ما سيكون رجال الشرطة في المكان . ومشى بادی تجاه
اجزوما وسلم عليه قائلا : « أنا إنسان يا زوما أولا » . ثم التفت إلى
عمال المنجم الآخرين وصاح فيهم : « زوما محق ! إنهم يدفعون لكم
القليل ! وهم لا يابھون لو أنكم خاطرتم بحياتكم . فلم هذا ؟ .
أليس دم الرجل الأسود أحمر اللون كدم الرجل الأبيض ؟ . أليس
لدى الأسود إحساس أيضا ؟ . ألا يشعر الرجل الأسود بالحب
أيضا ؟ . أنا معكم فليرمموا المكان أولا ! » .

وابتسم اجزوما . لقد فهم الآن . . فهم أشياء كثيرة . يمكن
للوحد أن يكون إنسانا في المقام الأول . إنسانا أولا ثم . . أسود أو
أبيض بعد ذلك .

واندفعت إلى القناء شاحتان ، انطلق منهما رجال شرطة .

وصاح المدير : « ها هما ! هذان هما زعيما العصابة » .

وانضم رجال الاندونا إلى رجال الشرطة حين اندفعوا نحو الحشد
يضربون يمينا ويسارا بهراواتهم . ورأى اجزوما شرطيا يضرب بادی
على قفاه ، في حين أمسك آخر بيديه يلويهما بعنف خلف ظهره .
وفجأة اقترب منه شرطى فلم يعد قادرا على رؤية بادی بعد ذلك .
شى ما وخز كتفه الأيسر جعل ذراعه اليسرى تتهدل من الألم ، ثم
تفادى ضربة كانت موجهة إلى رأسه وأمسك بيدي الشرطى . وبلى
معصمه ، وانتزع منه الهراوة ، فهوى الشرطى ، ثم أحس بضربة
على مؤخرة رأسه ، وسيل من دم دافىء يتدفق سائلا على قميصه .

وفجأة صفا تفكيره . . ينبغي أن يتعد عن هنا ، وضرب شخصا أمامه يلبس خوذة ، وانتقل إلى مكان آخر . إنه الآن عند أطراف الحشد المتقاتل . . يستطيع أن يندفع هاربا ويتعد بذلك عن المكان ، ثم جاءه صوت بادی : « لا تفر ياروما ! » .

لكن الأقدام كانت تركض بخطوات ثقيلة من خلفه ، ورغبته في الخلاص كانت قوية ، ولهذا جرى . واقترب منه وقع الخطوات الثقيلة فأسرع في جريه . وبعد فترة من الوقت لم يكن أحد يلاحقه ، لكنه ظل يجرى . وأحس وكأن رثييه ستفجران ، كما أحس بصداع مؤلم ، وكان مازال قادرا على سماع بادی يصيح : « لا تفر ياروما ! » .

وكانت الشوارع من حوله خالية ، فكان وحده في هذا العالم . وجرى خلال الشوارع الخالية ، خلال مالاى كامب ، مارا ببارك ستيشن . لقد كان يجرى وكأن شيطانا يدفعه . وفي عينيه اضطربت دموع الإجهاد لكنه مازال غير قادر على التوقف . لقد اقترب الآن من مكان ميزى فخفف من سرعة خطوه . وحين بلغ بوابتها أخذ يسير ، ولكنه كان يسير بسرعة . لقد كان فى عجلة من أمره . وسار فى الممر الضيق ، ولم يكن أمامه سوى وقت قصير جدا . ودق بابها . . وبعد برهة قصيرة رأى ضوءاً ، ثم فتحت ميزى الباب ، وحين رأت وجهه اختفى النوم تمام من عينيه .

- اجزوما ! .

- أهلا ياميزى .

وجذبتة داخل الغرفة وأغلقت الباب . وانتصبت الأم بلانك
جالسة في ركن الغرفة حيث كانت تنام على الأرض ، ولاحظ اجزوما
أنها تبدو أشد كبرا . ودون أن تتفوه ميزى بكلمة واحدة أحضرت ماء
وغسلت رأسه ، وقامت الأم بلانك بإعداد شاي على موقد بريموس
صغير خاص بميزى . وحين إنتهى اجزوما من احتساء الشاي روى
لهما كل ما حدث .

وحين فرغ من حديثه سأله ميزى : « ماذا أنت فاعل ؟ » .

- الرجل الأحمر في السجن ، ويجب أن أذهب أيضا هناك .
إن لم أذهب إليه سأكون مخطئا ، ولن أكون حيثئذ إنسانا .

فقالت الأم بلانك : « أنت مجنون يا اجزوما ، اذهب إلى مدينة
أخرى إلى أن ينتهى الأمر . ولن ينالوك » .

- لا أيتها الأم بلانك .. يجب أن أذهب إليه ، فإن لم أفعل
فلن تكون بى رغبة فى الحياة لما سأشعر به من اشمئزاز من نفسى .
يجب أن أذهب ، فالرجل الأحمر هناك . إنه ليس رجلاً أسود ،
ومع ذلك فإنه سيسجن من أجل أهلنا ، فكيف لا أذهب ؟ . وثمة
أشياء كثيرة أود أن أخبرهم بها أيضا . أود أن أخبرهم كيف أحس ،
وكيف يحس السود .

فقالت المرأة العجوز : « هم يدرون كيف نحس ، ولن يفعلوا

شيئا » .

- ولكنهم لم يسمعوننا ونحن نتحدث عن إحساسنا ، ومن الخير أن يحكى أسود للبيض كيف نحس . كما يجب أيضا أن يحكى أسود للبيض كيف يحسون . وماذا يريدون . هذه الأمور يجب أن أقوم بها ، لأننى حينذاك سوف أشعر أنى إنسان ، أفهما ؟ . وهنا التفت إلى ميسى .

وربتت ميسى على يده وأومات برأسها : « أفهم يا جزوما » .
وأمسك بيدها ونظر إلى عينيها « لقد كنت دوما طيبة معى ياميسى . وأنا الآن أدرك أنى أهواك وأريدك . لعلك ستنتظرينى ، حين أعود سوف نهى لنا بيتا ، هيه ؟ .
- واليزا ؟ .

- مسكينة ، تعيسة ، تلك الفتاة . ولكن المسألة انتهت ، وأنت الإنسانية التى تلاثمنى .

وابتسمت ميسى وسط دموعها « سأنتظرك يا جزوما . . طال الوقت أو قصر . سأنتظرك . . سأنتظرك حتى تعود إلى ، ولسوف نقيم حينئذ بيتا ، يكون عامرا بكثير من الضحك مغمورا بكثير من السعادة ، ولا تخش من أنى سارى آخرين ، فأنت الوحيد الذى أرومه ، ولسوف أنتظرك كل يوم وكل ليلة » .

- سأعود ، لأنك شخصية جميلة جديرة بأن يحيا الإنسان معك .

وتأبطت ميسى ذراع اجزوما ، وجلسا هكذا فترة من زمن .

وصبت الأم بلاتك لنفسها قدحاً آخر من الشاي ثم اندست في بطاطينها مرة أخرى ، وعندئذ نهض اجزوما وقال :
- الآن يجب أن أمضى .

فقالت ميزى : « سأذهب معك حتى قسم الشرطة » .
فقال : « كلا » .

فقالت : « بل نعم » .
فقالت الأم بلاتك : « دعها تذهب معك » .
- وهو كذلك .

فقالت المرأة العجوز : « وحين تحكى لهم يا اجزوما ، احك بطريقة جيدة ، لأن دادى حيثذ سيكون بك فخورا » .
وقالت ميزى : « نعم ، احك لهم ، وسأكون هناك لأنصت إليك » .

ونخرجوا ومشيا هابطين الشارع الخالى

أخذت أنوار مالاي كامب تضاء واحدا وراء الآخر ، وشيئا فشيئا راحت تضاء أنوار فريديدورب وأماكن جوهانسبرج الأخرى المظلمة ، وجنوب إفريقيا .

وكانت الشوارع خالية ، والبيوت المتمايلة المتهالكة هادئة . . فقط ، كان ثمة أطياف تتحرك فى كل مكان . فقط ، كانت رشوشة الليل الهادئ تغطى سماء المدينة . . سماء فريديدورب . . وسماء مالاي كامب .

المشروع القومى للترجمة

١ - اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢ - الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بليغ
٣ - التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقي جلال
٤ - كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريكتوكفا	ت : أحمد الحضري
٥ - ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦ - اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ - العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
٨ - مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩ - التغيرات البيئية	أنثروس. جوى	ت : محمود محمد عاشور
١٠ - خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معصم وعبد الجليل الأزدي وعمر حلى
١١ - مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢ - طريق الحرير	ديفيد براونستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣ - ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤ - التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥ - الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيقى
١٦ - أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : بإشراف / أحمد عثمان
١٧ - مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨ - الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩ - الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ - قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت : يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١ - خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
٢٢ - مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣ - تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤ - ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥ - مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
٢٦ - دين مصر الغام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ - التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨ - رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩ - الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠ - الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بليغ
٣١ - مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كابين	ت : عبد الستار الطوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢ - الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم قهسى
٣٣ - التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هويكنز	ت : أحمد فؤاد بليغ
٣٤ - الرواية العربية	روجر آلن	ت : حمزة إبراهيم المنيف
٣٥ - الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت

٢٦ - نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٢٧ - واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
٢٨ - نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مغيث
٢٩ - الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
٤٠ - قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
٤١ - ما بعد المركزية الأوروبية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / مصود ملجد
٤٢ - عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
٤٣ - الذهب المزدوج	أوكتايفيو باث	ت : المهدي أخريف
٤٤ - بعد عدة أصياف	الدوس هكسلى	ت : مارلين تاندرس
٤٥ - التراث المغفور	روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
٤٦ - عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد على
٤٧ - تاريخ النقد الأدبي الحديث (١)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨ - حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتي
٤٩ - الإسلام فى اليلقان	ه . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
٥٠ - ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشنيخ	ت : محمد يرادة وعثمانى الميود ويوسف الأشكى
٥١ - مسار الرواية الإسبانية الأمريكية	داريو بيانوييا وخ . م بينياليستى	ت : محمد أبو العطا
٥٢ - العلاج النفسى التدعيمى	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣ - الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت : مرسى سعد الدين
٥٤ - المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحى
٥٥ - ما وراء العلم	جون بولكنجهوم	ت : على يوسف على
٥٦ - الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
٥٧ - الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
٥٨ - مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩ - المحبرة	كارلوس مونيث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠ - التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبرى محمد عبد الغنى
٦١ - موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهري
٦٢ - لذة النص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
٦٣ - تاريخ النقد الأدبي الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤ - برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : رمسيس عوض .
٦٥ - فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦ - خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧ - مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدي أخريف
٦٨ - نقاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
٦٩ - العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠ - ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجت	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١ - السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود

- ٧٢ - السياسى العجوز ت . س . إليوت
٧٣ - نقد استجابة القارئ جين . ب . توميكنز
٧٤ - صلاح الدين والماليك فى مصر ل . ا . سيمينوفا
٧٥ - فن التراجم والسير الذاتية أندريه موروا
٧٦ - جاك لاكان وإغواء التحليل النفسى مجموعة من الكتاب
٧٧ - تاريخ النقد الأدبى الحديث ج ٢ رينيه ويليك
٧٨ - العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية رونالد روبرتسون
٧٩ - شعرية التأليف بوريس أوسبنسكى
٨٠ - بوشكين عند «نافورة الدموع» ألكسندر بوشكين
٨١ - الجماعات المتخيلة بندكت أندرسن
٨٢ - مسرح ميجيل ميجيل دى أونامونو
٨٣ - مختارات غوتفريد بن
٨٤ - موسوعة الأدب والنقد مجموعة من الكتاب
٨٥ - منصور الحلاج (مسرحية) صلاح زكى أقطاي
٨٦ - طول الليل جمال مير صادقى
٨٧ - نون والقلم جلال آل أحمد
٨٨ - الابتلاء بالغرب جلال آل أحمد
٨٩ - الطريق الثالث أنتونى جينز
٩٠ - وسم السيف (قصص) نخبة من كتاب أمريكا اللاتينية
٩١ - المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق باربر الاسوستكا
٩٢ - أساليب ومضامين المسرح كارلوس ميجل
الإسبانيون أمريكي المعاصر مايك فيذرستون وسكوت لاش
٩٣ - محدثات العولمة صمويل بيكيت
٩٤ - الحب الأول والصحبة أنطونيو بوينو بايخو
٩٥ - مختارات من المسرح الإسباني قصص مختارة
٩٦ - ثلاث زنيقات ووردة فرنان برودل
٩٧ - هوية فرنسا (مج ١) نماذج ومقالات
٩٨ - الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى ديفيد روبنسون
٩٩ - تاريخ السينما العالمية بول هيرست وجراهام تومبسون
١٠٠ - مسطرة العولمة بيرنار فاليط
١٠١ - النص الروائى (تقنيات ومناهج) عبد الكريم الخطيبى
١٠٢ - السياسة والتسامح عبد الوهاب المؤدب
١٠٣ - قبر ابن عربى يليه آباء برتولت بريشت
١٠٤ - أوبرا ماهوجنى جيرارچينيت
١٠٥ - مدخل إلى النص الجامع د. ماريا خيسوس روبييرامتى
١٠٦ - الأدب الأندلسى نخبة
١٠٧ - صورة اللدائى فى الشعر الأريكى المعاصر
- ت : فؤاد مجلى
ت : حسن ناظم وعلى حاكم
ت : حسن بيومى
ت : أحمد درويش
ت : عبد المقصود عبد الكريم
ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
ت : أحمد محمود ونورا أمين
ت : سعيد الغانمى وناصر حلاوى
ت : مكارم الغمري
ت : محمد طارق الشرقاوى
ت : محمود السيد على
ت : خالد المعالى
ت : عبد الحميد شبيحة
ت : عبد الرازق بركات
ت : أحمد فتحى يوسف شتا
ت : ماجدة العناني
ت : إبراهيم الاسوقى شتا
ت : أحمد زايد ومحمد محيى الدين
ت : محمد إبراهيم مبروك
ت : محمد هناء عبد الفتاح

ت : نادية جمال الدين
ت : عبد الوهاب علوب
ت : فوزية العشماوى
ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف
ت : إدوار الخراط
ت : بشير السباعى
ت : أشرف الصباغ
ت : إبراهيم قنديل
ت : إبراهيم فتحى
ت : رشيد بنحدو
ت : عز الدين الكتانى الإدريسي
ت : محمد بنيس
ت : عبد الغفار مكاوى
ت : عبد العزيز شبيل
ت : أشرف على دعدور
ت : محمد عبد الله الجعيدى

- ١٠٨ - ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي مجموعة من النقاد
١٠٩ - حروب المياه جون بولوك وعادل درويش
١١٠ - النساء في العالم النامي حسنة بيجوم
١١١ - المرأة والجريمة فرانسيس هيندسون
١١٢ - الاحتجاج الهادي أرلين علوي ماكليود
١١٣ - راية التمرد سادي پلانت
١١٤ - مسرحيات حماد كوني وسكان المستنقع رول شوينكا
١١٥ - غرفة تخص المرأة وحده فرجينيا وولف
١١٦ - امرأة مختلفة (درية شفيق) سينثيا نلسون
١١٧ - المرأة والجنسية في الإسلام ليلي أحمد
١١٨ - النهضة النسائية في مصر بث بارون
١١٩ - النساء والأسرة وقوانين الطلاق أميرة الأزهرى سنيل
١٢٠ - الحركة النسائية والتطور في الشرق الأوسط ليلي أبو لغد
١٢١ - الدليل الصغير في كتابة المرأة العربية فاطمة موسى
١٢٢ - نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان جوزيف فوجت
١٢٣ - الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية نيل الكسندر وفنادولينا
١٢٤ - الفجر الكاذب جون جراي
١٢٥ - التحليل الموسيقي سيدريك ثورپ ديفي
١٢٦ - فعل القراءة فولفانج إيسر
١٢٧ - إرهاب صفاء فتحى
١٢٨ - الأدب المقارن سوزان باسنيت
١٢٩ - الرواية الأسبانية المعاصرة ماريا دولورس أسيس جاروته
١٣٠ - الشرق يصعد ثانية أندريه جوندرو فرانك
١٣١ - مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى) مجموعة من المؤلفين
١٣٢ - ثقافة العولة مايك فينرستون
١٣٣ - الخوف من المرايا طارق على
١٣٤ - تشريح حضارة بارى ج. كيمب
١٣٥ - المقارن من نقد ت. س. إليوت ت. س. إليوت
١٣٦ - فلاحو الباشا كينيث كونز
١٣٧ - منكرات ضابط في الحملة الفرنسية جوزيف ماري مواريه
١٣٨ - عالم التلفزيون بين الجمال والعنف إيفيلينا تارونى
١٣٩ - باريسيفال ريشارد فاچنر
١٤٠ - حيث تلتقى الأنهار هريوت ميسن
١٤١ - اثنتا عشرة مسرحية يونانية مجموعة من المؤلفين
١٤٢ - الإسكندرية : تاريخ ودليل أ. م. فورستر
١٤٣ - قضايا التطوير في البحث الاجتماعى ديريك لايدار
١٤٤ - صاحبة اللوكاندة كارلو جولدونى
- ت : محمود على مكي
ت : هاشم أحمد محمد
ت : منى قطان
ت : ريهام حسين إبراهيم
ت : إكرام يوسف
ت : أحمد حسان
ت : نسيم مجلى
ت : سميرة رمضان
ت : نهاد أحمد سالم
ت : منى إبراهيم ، ومالة كمال
ت : ليس النقاش
ت : بإشراف / رؤوف عباس
ت : نخبة من المترجمين
ت : محمد الجندي ، وإيزابيل كمال
ت : منيرة كروان
ت : أنور محمد إبراهيم
ت : أحمد فؤاد بليغ
ت : سمحة الخولى
ت : عبد الوهاب علوب
ت : بشير السباعى
ت : أميرة حسن نويرة
ت : محمد أبو العطا وآخرون
ت : شوقي جلال
ت : لويس بقطر
ت : عبد الوهاب علوب
ت : طلعت الشايب
ت : أحمد محمود
ت : ماهر شفيق فريد
ت : سحر توفيق
ت : كاميليا صبحى
ت : وجيه سمعان عبد المسيح
ت : مصطفى ماهر
ت : أمل الجبوري
ت : نعيم عطية
ت : حسن بيومى
ت : عدلى السمرى
ت : سلامة محمد سليمان

- ١٤٥ - موت أرتيميو كروث كارلوس فوينتس
 ١٤٦ - الورقة الحمراء ميغيل دى ليبس
 ١٤٧ - خطبة الإدانة الطويلة فانكريد دورست
 ١٤٨ - القصة القصيرة (النظرية والتقنية) إنريكي أندرسون إمبرت
 ١٤٩ - النظرية الشعرية عند إليوت ولونيس عاطف فضول
 ١٥٠ - التجربة الإغريقية روبرت ج. ليمان
 ١٥١ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١) فرنان برودل
 ١٥٢ - عدالة الهنود وقصص أخرى نخبة من الكتاب
 ١٥٣ - غرام الفراشة فيولين فانويك
 ١٥٤ - مدرسة فرانكفورت فيل سليتر
 ١٥٥ - الشعر الأمريكى المعاصر نخبة من الشعراء
 ١٥٦ - المدارس الجمالية الكبرى جى آنبال وآلان وأوديت فيرمو
 ١٥٧ - خسرو وشيرين النظامى الكونجى
 ١٥٨ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ٢) فرنان برودل
 ١٥٩ - الإيديولوجية ديفيد هوكس
 ١٦٠ - آلة الطبيعة بول إيرليش
 ١٦١ - من المسرح الإسباني اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا
 ١٦٢ - تاريخ الكنيسة يوحنا الاسيرى
 ١٦٣ - موسوعة علم الاجتماع جوردن مارشال
 ١٦٤ - شامبوليون (حياة من نور) جان لوكوتير
 ١٦٥ - حكايات الثعلب أ. ن. أفانا سيفا
 ١٦٦ - العلاقات بين المثنيين والعلمانيين فى إسرائيل يشعياهو ليتمان
 ١٦٧ - فى عالم طاغور رابندراناث طاغور
 ١٦٨ - دراسات فى الأدب والثقافة مجموعة من المؤلفين
 ١٦٩ - إبداعات أدبية مجموعة من المبدعين
 ١٧٠ - الطريق ميغيل دليبيس
 ١٧١ - وضع حد فرانك بيجو
 ١٧٢ - حجر الشمس مختارات
 ١٧٣ - معنى الجمال ولتر ت. ستيس
 ١٧٤ - صناعة الثقافة السوداء ايليس كاشمور
 ١٧٥ - التليفزيون فى الحياة اليومية لورينزو فيلشس
 ١٧٦ - نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية توم تيتنبرج
 ١٧٧ - أنطون تشيخوف هنرى تروايا
 ١٧٨ - مختارات من الشعر اليونانى الحديث نخبة من الشعراء
 ١٧٩ - حكايات أيسوب أيسوب
 ١٨٠ - قصة جاويد إسماعيل فصيح
 ١٨١ - النقد الأدبى الأمريكى هنسنت . ب . ليتش
- ت : أحمد حسان
 ت : على عبد الرؤوف البمبى
 ت : عبد الغفار مكاوى
 ت : على إبراهيم على منوفى
 ت : أسامة إسبر
 ت : منيرة كروان
 ت : بشير السباعى
 ت : محمد محمد الخطابى
 ت : فاطمة عبد الله محمود
 ت : خليل كلفت
 ت : أحمد مرسى
 ت : مى التلمسانى
 ت : عبد العزيز بقوش
 ت : بشير السباعى
 ت : إبراهيم فتحى
 ت : حسين بيومى
 ت : زيدان عبد الحليم زيدان
 ت : صلاح عبد العزيز محجوب
 ت : مجموعة من المترجمين
 ت : نبيل سعد
 ت : سهير المصادقة
 ت : محمد محمود أبو غدير
 ت : شكرى محمد عياد
 ت : شكرى محمد عياد
 ت : شكرى محمد عياد
 ت : بسام ياسين رشيد
 ت : هدى حسين
 ت : محمد محمد الخطابى
 ت : إمام عبد الفتاح إمام
 ت : أحمد محمود
 ت : وجيه سمعان عبد المسيح
 ت : جلال البنا
 ت : حصة إبراهيم منيف
 ت : محمد حمدى إبراهيم
 ت : إمام عبد الفتاح إمام
 ت : سليم عبد الأمير حمدان
 ت : محمد يحيى

١٨٢ - العنف والنبوة	و . ب . بيتس	ت : ياسين طه حافظ
١٨٣ - جان كوكو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	ت : فتحي العشري
١٨٤ - القاهرة .. حالة لا تنام	هانز إندورفر	ت : دسوقي سعيد
١٨٥ - أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت : عبد الوهاب علوب
١٨٦ - معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل أنوود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧ - الأرضة	بُزْدُجْ علوى	ت : علاء منصور
١٨٨ - موت الأدب	الفين كرنان	ت : بدر الديب
١٨٩ - العمى والبصيرة	بول دى مان	ت : سعيد القانمى
١٩٠ - محاورات كوفوشينوس	كوفوشينوس	ت : محسن سيد فرجاني
١٩١ - الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت : مصطفى حجازي السيد
١٩٢ - سياحته إبراهيم بيك	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
١٩٣ - عامل المنجم	بيتر أبراهامز	ت : محمد عبد الواحد محمد
١٩٤ - مختارات من النقد الأنطو- ليريكي	مجموعة من النقاد	ت : ماهر شفيق فريد

(نحت الطبع)

الجانب الدينى للفلسفة	عن الذباب والفئران والبشر
الولاية	العولة والتحرير
تاريخ النقد الادبى الحديث (الجزء الرابع)	علم اجتماع العلوم
الإسلام فى السودان	قصص الأمير مرزيان على لسان الحيوان
العربى فى الادب الإسرائيلى	شتاء ٨٤
ضحايا التنمية	الشعر والشاعرية
المسرح الإسباني فى القرن السابع عشر	ديوان شمس
فن الرواية	مصر أرض الوادى
ما بعد المعلومات	الذرافيل أو الجيل الجديد
علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	سحر مصر
المهلة الأخيرة	الهيولية تصنع علماً جديداً

طبع بالهيئة العامة لشتون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١١٠٤٩ / ٢٠٠٠

Mine Boy

PETER ABRAHAMS

الأدب الإفريقي أدب ثرى ، لا يقل ثراء - إن لم يزد -
عن الأدب الغربى ، فضلاً عن رسمه صوراً للمعاناة التى
لقيها السود على يد المستعمر ، هناك صور لمعاناته من
الحكم المطلق الذى قبض على زمام الأمور عقب جلاء
المستعمر ، والذى كان يتم بتخطيط منه لأغراض سياسية .
وتعد هذه الرواية واحدة من أولى الأعمال التى لفتت
الانتباه إلى نوع الحياة التى يحياها أبناء جنوب إفريقيا
السود تحت سيطرة الحكم العنصرى ؛ فهى تعرض لنا عناء
المواطن الأسود ؛ فمثلاً فى بطلها الريفى الذى نرح إلى
المدينة بعد أن ضاقت به سبل الحياة فى قريته ، ليعمل فى
المناجم ، والعمل فى المناجم قاسٍ ومرير ولا إنسانى ؛ حيث
إن العمال السود هم دون مستوى البشر .

كما أن الرواية تصور ، من بين ما تصور ، تطلعات
السود للحصول على وسائل حياة البيض ، وتشبثهم باتِّباع
نمط معيشتهم ، وما يؤديه العجز عن تحقيق هذا من تمزق
وتدمير نفسى ، وصور التمييز والتفرقة هنا متعددة ، وكلها
صور مقززة تشمئز منها النفس ، وتشير فيها السخط .